طه حسين .. مرة أخرى

عندما أصدرنا عدداً خاصاً من المعرفة عن طه حسين في شهر تشرين الثاني من العام الماضي ، كنا نحاول أن يكون العدد في مستوى الرجل ، رغم معرفتنا المسبقة بأن الرجل أكبر من قدرتنا على تقديمه إلى القارىء في هذا العدد المحدود من الصفحات .

وكنا بعد وفاة الرجل بعدة شهور قد شرعنا في الإعداد لهذا العدد الخاص ، واتصلنا بالصديق مجاهد عبد المنعم مجاهد في القاهرة لكي يسهل لنا مهمة الاتصال بالكتاب المصريين الذين يمكنهم أن يسهموا في هذا العدد الخاص . وبالفعل ، فان الصديق مجاهد قام بجهد مشكور في هذا المجال ، وأجرى اتصالات واسعة كان من نتيجتها الاتفاق مع عدد من الكتاب المصريين على الاسهام في هذا العدد ، كل في مجال اهتمامه أو اختصاصه .

وكنا في الوقت نفسه قد اتفقنا مع عدد من الكتاب من القطر العربي

السوري على موضوعات محددة يمكن إذا اجتمعت في عدد واحد أن تسهم في تقديم صورة وافية عن الرجل .

ومرت أسابيع وشهور في انتظار أن يكتب المكلفون من اخواننا المصريين ، لكن أحداً منهم لم يفعل . وكتب لنا الصديق مجاهد بأنهم يحتاجون إلى مزيد من الوقت حتى تكون المادة المكتوبة في مستوى المناسبة . وانتظرنا شهوراً أخرى اقتربت معها الذكرى الأولى لوفاة طـــه حسين ، ولم يعد بالإمكان أن ننتظر أكثر ، فقررنا أن يصدر العدد في هذه المناسبة حتى ولو كان مقصوراً على كتاب من القطر العربي السوري ، مع دراسة خصت بها المجلة الكاتبة الفرنسية الكفيفة انجيل فانييه .

وبالفعل ، فقد صدر العدد ، وكان بشهادة الجميع أفضل ما صدر عن طه حسين . وكانت شهادة الدكتور محمد حسن الزيات الذي يعمل الآن على جمع كل ما نشر عن طه حسين لكي يوضع في متحف خاص ، موضع تقدير ، فهي شهادة تصدر عن الرجل الذي يعرف طه حسين أكثر من غيره ، سواء بحكم القرابة العائلية ، فهو متزوج من ابنة طه حسين ، أو بحكم الاتصال الفكري والثقافي .

وفي هذا العدد ، نعود مرة أخرى الى طه حسين . فقد احتفلت القاهرة في الشهر الماضي بذكرى الرجل ، وكان من جملة الدراسات التي ارسلت الى المهرجان ، هذه الدراسات التي تنشرها المعرفة ، والتي كتبها الاستاذ الدكتور شكري فيصل وتناول فيها مسألة على درجة غير عادية من الأهمية ، من حيث انها تسعى إلى الاجابة عن السؤال الآتي : هل كان طه حسين محافظاً أم مجدداً ؟ .

رئيس التحرير

طه حسين بين المحافظة والتجديد

الدكتور شكري فيصل

ما أكثر الذين اجتذبهم نحوه وشدَّهُمْ اليه من قراء العربية ، وما أقوى ما كان من أثره فيهم وتوجيهه لهم . . كانت الثقافة العربية تأخذ بعض طرقها إلى تشكُّلٍ جديد . فلما جاءهم هذا الكاتب الثائر يكتب لهم بأسلوبه هذا الناصع الساحر ، وبأفكاره هذه الجريئة الجديدة ، تنازعته عقولهم وقلوبهم . . فأما قلوبهم فقد استوى له أن يمتلكها كلّها . . فلم يكن بين القراء والمثقفين من لم يُؤْخذ بهذا الأسلوب ، ولم يكن فيهم من لم يمض معه منفعلاً به ، مكبراً له ، مؤثراً أن يربط بينه وبين الأساليب الفذّة المعدودة التي تعاقبت على العربية أو التي ولدتها العربية من خلال القرآن الكريم والحديث الشريف والتراث المتنامي والآفاق والأحداث والثقافات

التي ألمت بحياة العرب والمسلمين . . وأما عقولهم فلم تخلص كلها له : أوجس القارئون مما كان من آرائه هذه الحادة ، والدارسون المختصون أنكروا ما كان من تحريف حيناً وتغييب للحقيقة أو غياب لها حيناً آخر . . وكثيرون منهم أولئك الذين وجدوا فيه هذه المخالفة الصريحة لمـــا نؤمن ونعتقد . .

ومن كل ذلك وقف طه حسين موقفاً فريداً في الحياة العربية وفي الثقافة العربية . . ذلك أنه موقف ذو مستويين :

في مستوى العمل الفني البحت كان هنالك هذا الإجماع الذي لم ينعقد في العربية إجماع آخر يناظره بعد الجاحظ . . فالكثرة الكاثرة من المثقفين والدارسين أحست أنها وجدت نفسها حين كانت تقرأ طه حسين في منطقة الإبداع ، إذ تجلت لها من قدرة العربية آفاق ، وانفتح أمامها من خلال الكلمة والجملة ومن خلال الموسيقية البارعة التي تتولد عن التئام عوالم كانت غادرتها منذ زمن بعيد .

وفي مستوى الفكرة ، أو في مستوى الاتجاه ، كان هنالك هذا الانقسام حول الانصياع إلى طه حسين أو حول الحذر منه . . حول تقبله أو رفضه ، محاورته أو مهاجمته . . وسواء أكان الأمر هجوماً أم دفاعاً فان ذلك ظل في الغالب ، مُغَلّفاً بهذا التقدير الذي ينسجه أسلوبه في الأداء ، وكأنما كان هذا الأسلوب الخيط المشترك بين الراضين والغاضبين.

وعلى مدى حياة الدكتور طه حسين التي مضت طولاً إلى أبعد الطول ومضت عرضاً وعمقاً إلى أكثر العرض وأشد العمق ، وعلى اختلاف الميادين التي خاضها ، والقضايا التي أثارها والاتجاهات التي أخذ بها أو

دعا اليها ؛ على كل ذلك كان هنالك دائماً هذا الموقف المزدوج وهذه الثنائية الواضحة : ثنائية الدكتور طه وازدواجية التقدير من حوله . .

فأما الدكتور طه فقد كان يدرك أنه أمام هذا التراث الضخم والماضي البعيد والحضارة التي كانت ورثت حضارة الدنيا فأغنتها ثم ورّثتها . . وأنه بعد ذلك أمام هذا العالم الذي يتجدد كل شيء فيه أدبه وفكره ، فلسفته وعلمه . . وأنه ، لذلك ، لابد للمفكر العربي أمام هاتين الموجتين المصطرعتين المتلازمتين من هذه الثنائية اللبقة الذكية التي يجب لها أن أن تتعرف كل ما حولها من قبلُ ومن بعدُ ، وأن تتعرف ما كان وما يكون ، لكي تجعل من هاتين الموجتين موجة واحدة تشق الطريق نحو الأفق البعيد .

وأما جمهور القراء والمثقفين فقد كان لا بدّ لهم من هذه الازدواجية في مقابلة هذه الثنائية . . لا بدّ لهم من هذا الرفض حيناً ومن هذا الرضا حيناً آخر . . ولا غنى لهم عن هذا التقدير ، أبعد التقدير ، مرة ؛ وعن هذا الحذر أشد الحذر مرة أخرى . . وقِلّةٌ منهم أولئك الذين استطاعوا أن يوفقوا بين الرضا والإنكار ، وبين الثورة والمحافظة . . وإنما استطاع ذلك أولئك الذين وضعوا الدكتور طه في موضعه من ظروفه الخاصة وفي موضعه من الحياة العامة ، وأدركوا مكانه من الثقافة العربية ومكانه من الثقافة الأجنبية وقدروا سير الدنيا بالثقافة والناس والمجتمع في طريق لا بدّ لها من أن تظل — إلى جانب استقامتها وأصالتها وارتباطها بجذورها — طريقاً مفتوحة إلى أبعد الآماد .

ولم يكن ممكناً ، أو لم يكن سهلاً ولا يسيراً آنذاك على طه حسين — الفرد المتميز — بكل ما كان عنده من طموح وتطلع وفعلٍ تجاوزُ

هذه الثنائية في الاتجاه . . ولم يكن سهلاً ولا يسيراً على المجتمع ، بكل ما كان عنده من ردود الفعل ، تجاوزُ هذه الازدواجية في التقدير . . ذلك أننانتحدث الآن — بعد خمسة من العقود — عما كان . . إننا نتأمل الأشياء بعد أن فقدت وهجها ، وبعد أن غادرتْها حرارة الجدّة أو الحرص على الجدّة فيها ، وتوهُّجُ الغضب أو توهج الرضا عنها . . إننا ننظر في هذه الأمور اليوم بعد أن تغيرت أشياء كثيرة لا تكاد تحصى في ذهن طه حسين وفي ذهن الجماعة حوله . . ننظر اليها مجردة من كل ظروفها الفردية والاجتماعية ؛ وننظر اليها كذلك بعقولنا نحن ونفوسنا نحن . . وهي عقول غير العقول التي واجهت ذلك ، ونفوس غير النفوس التي تأثرت بذلك . . وإذن فنحن حين نؤلف بين طرفي هذه الثنائية لنجعل منها وجهين متكاملين لحقيقة واحدة إنما نفعل ذلك حين نفعله ونتمكن منه أو نوفق اليه ، لان البركان المتفجر قد خمدت ناره ، ولأن الزمن قد عمل عمله تطويراً وتحويراً وكسراً للحدّة وفثْءاً للغضب ، ونظراً للأمور في غير الضوء الذي كان ينظر فيه من قبل .

* * *

والحق أن طه حسين كان مجدداً لا ينقطع عن المحافظة ولا يتنكر لها . وأن المجتمع من حوله كان محافظاً لا يرغب عن التجديد ولكنه يخافه حيناً ويخشى إسرافه حيناً آخر . . ومن اختلاف ما بين هاتين المعادلتين الصعبتين واتفاقهما . . من اختلاف المعادلة الفردية والمعادلة الاجتماعية ، نستطيع أن نفسر كل ما كان من حياة الدكتور طه حسين ومن صنيعه . كما نستطيع أن نفسر كل ما كان من أثره وتأثيره .

وليس أدلّ على ذلك من أن ننظر في هذه الساحات المختلفة التي عمل

فيها الدكتور طه . وأن نتابع المواقف التي وقفها في الحياة الأدبية أو في الحياة الفكرية على حد سواء .

في الحياة الأدبية ، في جانب التاريخ الأدبي مثلاً ، كان هنالك موقف طه حسين من الشعر الجاهلي ، وموقف الجماعة من طه حسين . . وما من شك في تباعد هذين الموقفين ؛ وما من شك كذلك في أن الأمر اتخذ هذه الصور العنيفة ، سواء في ذلك ما كان من صنيع الدكتور طه أو ما كان من ردود الفعل التي خلّفها عند أولئك الذين تصدّوا له بالرد أو بالنقد أو بالمؤاخذة . .

لقد بدا الدكتور طه وكأنه خصم لهذا الشعر الجاهلي يريد أن ينكره ، وأن ينفي ما ثبت منه . . لا يفعل ذلك على نحو موضوعي بحت وإنما يمزج بين شيء من الرأي وشيء من الانفعال وشيء من إثارة الإنفعال . . وهو لا يفعل ذلك مبتدعاً وإنما هو يستفيد أشد الفائدة مما قال الشيوخ من علماء العربية في ذلك قبله ، ويفيد مما قال المستشرقون من بعد ، ولكنه يؤلف بين ذلك على نحو مُستحدَث ويضيف ما يضيف ويحذف ما يحذف ، حريصاً على أن يقدم ذلك في إطار نظرية كاملة لها منهجها وأسبابها ونتائجها . . ولكنه على كل ما كان منه في ذلك — وهو كثير — كان في أعماقه هذا العرق الذي ينبض بأن الأمر — بعيداً عن الإضافات والتزيدات والإسراف في الاستنتاج — لا يخرج عما انتهى اليه القدماء في ذلك . .

ألم يكن جوهر هذه الفقرات التي قدم بها ابن سلام لكتابه طبقات فحول الشعراء أن العلماء قد عرفوا النحل وتحدثوا عنه وعالجوه . . وانهم انتهوا من ذلك — بعد طول ممارسة ومدارسة — إلى أن هذا الشعر لا يخرج عن أن يكون أحد ثلاثة أقسام : قسم صحيح لا شك فيه ولا ارتياب معه ؛

يطمئن إليه العلماءويأخذبه الباحثون . . وقسم موضوع لا شك فيه حُمل على الشعر العربي حملاً يعرفه أصحاب العلم به كما يعرفه واضعوه وإنما كان وراء هذا الوضع دوافع وكان أمامه غايات . . وقسم ثالث غُمَّ أمره على العلماء ولكنهم تنبهوا له وأدركوا من أمره ما أدركوا فقالوا عنه : « وإنما يشكل ذلك بعض أشكاله » .

هذه القضية القديمة كان لا بدَّ للدكتور طه من أن يثير الحديث عنها . . كان هنالك هذه المناهج الجديدة التي داخلت دراسة الأدب العربي وكان هنالك هذه الشكوك التي جدد المستشرقون بعثها في هـذا الأدب . وكان طبيعياً ، أو في حكم ما هو طبيعي ، أن يستخدم طه حسين العنف في إثارة هذا الموضوع ، وأنه يغلّب أحياناً جانب الشك على جانب اليقين . . ولكننا نخطىء إذا نحن فهمنا طه حسين في هذه الفترة بعيداً عن ظروفه الذاتية أولاً ، ونخطىء إذا نحن فهمناه بعيداً عن فترة السن التي كان يحياها ، ونخطىء أذا نحن أهملنا هذا التفاعل العنيف الذي تثيره هذه المقابلة بين دراسة الأدب كما وعاها الدكتور طه في الأزهر ثم كما وعاها بعد في السوربون .

غير أننا نخطىء أكبر الخطأ إذا نحن اقتطعنا هذا الموقف المحدد من حياة طه حسين وأفكاره لنجعل منه مادة الحكم له أو عليه . . فقد أسرف طه حسين في الإنكار ولكنه لم يخرج إلى الجحود ، وأدار فأسه في بعض الأغصان وفي بعض الجذوع فتقصفت أغصان يابسة وبقيت جذوع نالت من الفأس بأكثر مما نال منها الفأس . .

وحقق طه حسين بعض ما كان يريده لا ما بدا أنه كان يريده . . وإنما أراد طه حسين هذه الإثارة للأدب الجاهلي وهذا اللفت له . . وأراد

هذه الإثارة للتاريخ الأدبي كله ولكنه لم يكن يريد القضاء عليه . . وكان في ضمير طه حسين ويقينه أن هنالك هذا الأدب الجاهلي العريق الكثير ، بل كان في سيرته وعمله انصرافُه إلى هذا الأدب وجلاؤُه وكشف روائعه وتقديمه للناس على نحو جديد لم يألفوه . . إن روح المحافظة لم تغب عن طه حسين وهو في عنفوان ثورته وفي أشد لحظاتها تلهباً . . ولعله لم يتح لكتاب من الكتب ، في هذه الفترة من الحياة الأدبية أن يكون له من الأثر في دفع الباحثين نحو العمل في تاريخ الأدب العربي ولم يكن له من القدرة على إثارتهم وفتح أبعد الآفاق أمامهم ووضع هذا الأدب موضع التداول والتعرف والدراسة ، ولم يكن له كذلك من الإيحاء للباحثين الذين يقرؤون وينظرون فيه . لعله لم يتح لكتاب في خلال عقود من السنين ، أن يحقق مثل الذي حققه كتاب طه حسين عن الأدب الجاهلي .

إن الذين رأوا في عمل طه حسين في الأدب الجاهلي أنه هدم للأدب القديم كله ينسون أن هذا الأدب الجاهلي القديم إنما أخذ طريقه إلى عقول الناس وقلوبهم بالذي كان من صنيع الدكتور طه فيه . . ومن الذي يستطيع أن ينكر أن وقفاته عند هذا الأدب وتوضيحه له وتحبيبه به كان بعض الطريق إلى إحيائه . . لقد كتبت عشرات من الرسائل الجامعية وألفت أعداد كثيرة من الكتب ، ونشرت مئات من الأبحاث ابتدأت كلها من حيث غلب على ظن بعض الناس أن الدكتور طه أراد أن يصرف الناس عن هذا القديم فإذا أجيال من الناس لا تعمل إلا في هذا القديم ، وإذا أعداد لا تكاد تحصى في طول الوطن العربي وعرضه وفي أقطار العالم كله وراء الوطن العربي تقصر جهدها عليه وبحثها فيه . . كان عمل

الدكتور طه أشبه بالحجر الذي يلقى في الماء لتنداح ، من حيث اصطدم بالماء ، آلاف الدوائر .

* * *

قلت إن في حياة طه حسين دائماً هذين الخطين : خط التجديد وخط المحافظة . . وإذا كان ذلك واضحاً في الحياة الأدبية في مثال قضية الشعر الجاهلي ، فهو كذلك شديد الوضوح في القضية الأخرى التي تتصل بمناهج الدراسة الأدبية . . فنحن جميعاً ، في الجامعات العربية ، مدينون بهذا الذي أشاعه الدكتور طه في كتاب « في الأدب الجاهلي » عن تدريس الأدب ، ونحن مدينون له كذلك بهذا الذي أشاعه عن منهج الدراسة الأدبية حين كتب كتابه عن أبي العلاء . . وفي كلتا الناحيتين كان يجمع الدكتور طه بين المحافظة والتجديد في شيء من توازن ، لا يبدّد القديم ولا يضلل الجديد . . كان ينسج منهجه من هذين معاً . . وكان يعبر عن ذلك تعبيراً صادقاً لا مواربة فيه . . وأيّاً كانت اندفاعاته نحو التجديد وأيّاً كان إصراره عليه ، وأيّاً كان تزيينه له فان حرصه على المحافظة يظل دائماً يؤلف لحمة نسيجه ، على نحو ما يؤلف التجديد سداه . . ألم يقل وهو يدعو دعوته الحارة إلى تجديد طرائق دراسة الأدب في مصر فيما قاله عن الجامعة المصرية القديمة في مقدمة كتابه في الأدب الجاهلي : « وكانت الجامعة القديمة قد أخذت تغيّر هذا تغييراً قيّماً ، فعنيت بالمذهبين النافعين في وقت واحد عهدت إلى المرحوم حفني ناصف ثم إلى المرحوم الشيخ مهدي بدرس الأدب ، وعهدت إلى الأستاذ جويدي ، ثم الأستاذ نلينو ، ثم الأستاذ فييت بدرس تاريخ الأدب . . فبينما كان الأولان يدرسان الأدب ونصوصه المختلفة دراسة نقد وتحليل فيه حظّ

عظيم من العناية بالنحو والصرف واللغة والبيان ، فيبثان في نفوس الطلاب حب الأدب العربي القديم والميل إلى قراءته واستظهار الجيد من نصوصه المختلفة أو ينشئان فيهم الذوق وملكة الإنشاء ؛ كان الآخرون يدرسون التاريخ الأدبي بمناهجهم الغربية الحديثة ، فيعلمون الطلاب كيف يبحثون ويقارنون ويستنبطون . وكان كلا الأسلوبين في الدرس يتم صاحبه ، ويقوي أثره ، ويكوّن للطالب مزاجاً أدبياً علمياً مستقيماً خليقاً أن يغيّر حياة الأدب العربي في شكلها وموضوعها كما يقول أصحاب القانون » .

أترون إذن كيف كانت دعوته الثنائية إلى هذا التزاوج بين القديم والجديد وإلى هذا التكامل بينهما حتى يتكون هذا المزاج الأدبي العلمي المستقيم .

الأمر ذاته كان في منهجه التطبيقي في إقامة الأبحاث الأدبية . . ان كتابه عن ذكرى أبي العلاء كان فاتحةً لكثرة كثيرة من الدراسات تأثرته أو تأثرت به . . وكان عمله في هذا الكتاب أصيل في هذه المزاوجة . . كانت مادة البحث استصفاء من المصادر القديمة وكانت صياغته استئناساً واقتباساً من هذه الأساليب الجديدة ؛ وكان ثمرة هذا التفاعل والتكامل بين القديم والجديد أنْ ولد هذا التيار في مثل هذا النوع من الدراسات الأدبية التي تتجه إلى بعض الشخصيات ، والتي تضع هذه الشخصيات موضعها في حياة المجتمع والناس ؛ والتاريخ والأحداث والثقافة والعلم ، ثم تنفذ من ذلك إلى الشخصية نفسها في ضوء آثارها ونتائجها .

* * *

ونستطيع أن نمضي نتلمس الأمثلة على ذلك فيما شاء الله من أعمال الدكتور طه حسين . . . على أن الدكتور طه كفانا مؤونة ذلك حين تحدث عن هذا القديم والجديد في بعض ما كتب في مجلة السياسة مما جُمع بعد في حديث الأربعاء . ففي هذه الأحاديث نجد إشارات كثيرة تؤكد عندنا بوضوح أن أعمال الدكتور كانت تقوم على هذين المحورين وعلى تلاؤم ما بينهما وتناسق حركتهما ، حتى تدور الحياة بالقديم والجديد ، وحتى لا تقف عند أحدهما ولا تنزلق عند الآخر . . فهو يتحدث عن الاعتدال في الأساليب تارة فينفي الإسراف في القدم كما ينفي المغالاة في الجدّة . . وهو يتحدث عن القصد تارة أخرى فيقول : « ويغلو قوم منا في إيثـار القديم فيضيّقون وفي الحياة سعة ، ويغلو قوم منا في إيثار الجديد فيرتفعون عما ألف الناس ، ومع ذلك فالقصد أساس الخير في كل شيء » وهو يتحدث عن هذه الصلة بين القديم والحديث تارة ثالثة فيقول : « . . ذلك أنا لا نقطع الصلة بين قديمنا وحديثنا ، وإنما نزيدها قوة ومتانة ، نستمد الحياة من قديمنا على أن نضيف اليه من الحديث ما يتيح له الخصب والإثمار » ، وهو يرى أن أمر الجديد والقديم هو أمر الحياة نفسها « فما دامت هناك حياة فهناك قديم وجديد ، وجهاد بين القديم والجديد ، وأنصار للقديم وأنصار للجديد ، ونحن مضطرون بحكم التطور إلى أن نحتمل الخلاف بين الذين يبكون مغرب الشمس والذين يبتسمون لإشراقها ، وكل ما نستطيع أو كل ما نرجو إنما هو ألا ننفق حياتنا في بكاء على الماضي أو ابتسام للمستقبل فقد يصرف البكاء والابتسام عن أن ننتفع بتراث الماضي أو نحيا بآمال المستقبل » .

• • •

في بداية هذا البحث قلت إننا نجد هذه الثنائية في تجاور المحافظة والتجديد وتفاعلهما في كل مواقف الدكتور طه حسين : في مواقفه في الحياة الأدبية وفي مواقفه في الحياة الفكرية على حد سواء .

فإذا تجاوزنا أمثلة الحياة الأدبية إلى أمثلة الحياة الفكرية ازددنا اقتناعاً بهذا الذي نذهب اليه ، وبدا لنا أن المواقف الفكرية هي هي في تماثلها ، من هذا النحو مع المواقف الفكرية .

ولعل كتاب مستقبل الثقافة في مصر أن يكون أبرز كتب الدكتور طه في هذا الجانب الفكري ، أو الجانب الفكري ـ الاجتماعي إذا شئنا . . ولعله أن يكون كذلك أكثر الكتب التي أوجدت شيئاً من هوة بينه وبين الحركات القومية في الوطن العربي .

والحق أنه من الخير لنا ومن الخير للدكتور طه ومن الخير للحقيقة الصرف أن لا يفهم هذا الكتاب ، أو بعض الذي جاء فيه ، فهماً منفصلاً عن الظروف التي كانت فيها مصر أو كانت فيها أجزاء من الوطن العربي حين صدر الكتاب عام ١٩٣٨ . . وأنه حين يفهم الكتاب أو بعض قضاياه في إطار هذه الظروف : ما يتصل منها بالمؤلف وما يتصل منها بالحياة العامة ، فان الأمر يتخذ شكلاً آخر ، والمؤشرات التي تبدو وكأنها تتجه إلى الغرب لا تلبث في أذهاننا ـ على نحو ما كانت في ذهن المؤلف ـ أن تتجه إلى تحرر أقطار الشرق وتجاوز مرحلة الضعف الذي كانت تعانيه .

ومع ذلك يظل بعض الذي قاله الدكتور طه هنا في قضايا الفكر قريباً من بعض ما قاله في القضايا الأدبية في حديثه عن الشعر الجاهلي . . يظل هناك هذا الاندفاع مرة ، ويظل هناك هذا الشطط مرة أخرى ، ويظل

هذا الحرص على الحركة وان خرجت إلى شيء من اضطراب . . ولكن ذلك محمول في أكثره على الظروف الذاتية التي أحاطت به . . أريد أن أقول انه يظل محمولاً على شعور التحدي الذي كان يلازم الدكتور طه في فترات من حياته : . حين كان يتطلع أن يقود الركب كله في اتجاه جديد ، وحين كان يستبد به هذا الشعور : شعور أن يقود ، تعويضاً عن كل هذه اللحظات الحرجة التي يحسها انسان ذكي نادر حين يقاد .

ولست أحب أن أذهب بعيداً في هذا التفسير النفسي . . فقد يتحرج منه من يتحرج وقد يبيحه من يبيح . . ولكني أريد أن أقول أن موقف طه حسين من الثقافة في مصر يظل مشدوداً إلى العربية . . وليست العربية هنا إلا الوجه الأوضح للعروبة . . وعلى ذلك نستطيع أن ندرك أن ما كان من توجه إلى شطآن المتوسط لم يكن توجهاً يريد أن تتفرد به مصر وإنما كان إقراراً للحياة العربية كلها : وجوداً وثقافة ولغة وفكراً وحضارة ، على شطآن هذا البحر وجزره . . لأن هذه الشطآن والجزر إنما تتخذ قناطر ومراكز ينطلق منها ويسلكها الفكر العربي في طريقه إلى أن يتجدد . . على نحو ما سلكها الفكر الغربي من قبل حين أخذ طريقه إلى النهضة عن طريق اتصاله بالثقافة العربية والاستمداد منها .

وفي تقديري أن كل ما يبدو هنا تجديداً بحتاً يبعث على الحذر في آراء الدكتور طه مرتهَن بعنصر المحافظة التي تحاول أن تبدد هذا الحذر . وعنصر المحافظة هذا يتمثل في الحرص على رعاية اللغة العربية واعتبارها هي أداة الفكر وهي وسيلته . . فأما ما كان وراء ذلك من الانفتاح على الثقافات الأجنبية والخوف من أن يُدخل ذلك الضيمَ على الثقافة العربية أو يفسر بأنه عداء لها فأحسبه بعيداً عن عقل الدكتور من نحو وعن قلبه

من نحو آخر . . بعيداً عن تكوينه من نحو وعن سيرته من نحو ثان . ؟ ذلك أننا ننظر من حولنا فنرى عمل الدكتور طه في جملته كان أفضل ما يكون العمل في احتفائه بالثقافة العربية وإحيائه لها وحرصه على تفتحها . . وقد عودنا الدكتور طه من قبل في الحياة الأدبية أن يصطنع في الاحياء والاثارة شيئاً من صدمة عنيفة ، ويرى أن التفتح لا يكون إلا في أعقاب مثل هذه الصدمة حتى تنتشر في الثقافة وفي الفكر روح الحياة أولاً وروح المعاصرة ثانياً . . فأما روح الحياة فهي التي تمكن لها أن تعرف ذاتها أدق المعرفة ،وأما روح المعاصرة فهي التي تمكن لها أن تتفاعل مع غيرها أصدق التفاعل . . حتى يتجدد لها في كيانها بعد ذلك هذا الخصب الخصيب :

ولكن ما هي طبيعة هذا التجاور بين المحافظة والتجديد عند الدكتور طـــه ؟ . . وماذا كان من أثره ؟ . .

أ ــ في طبيعة هذا التجاور يحسن أن نلاحظ هذه الظواهر الثلاث التاليـــة :

الأولى : أنه لم يكن تجاورا ساكناً ، لم يكن جمعاً توفيقياً بين عناصر المحافظة وعناصر الجدة

الثانية : انه لم يكن عملاً عفوياً ولا حركة استرضاء بقدر ما كان عملاً عقلياً ذكياً يدرك ارتباط مابين الماضي والحالي ، وما بين الحياة والتطور ، وما بين التطور والاتصال . . . ويتصرف دائماً وفاق هــذا الإدراك .

الثالثة : إن هذا التجاور بين المحافظة والتجديد لم يقتصر على الجانب

النظري وإنما تجاوزه إلى الجانب التطبيقي بل ان الجانب التطبيقي هو المظهر الأمثل له ، سواء في ذلك ما تحدثت عنه في ما كان في نطاق الحياة الأدبية أو في نطاق الحياة الفكرية . . وما لم أتحدث عنه في نطاق الأدب المبدع ، حين دعا الدكتور طه إلى تقبل هذه الفنون الجديدة في القصة والمسرح وإلى الإقبال عليها ، وحين مضى هو يكتب في هذه الفنون المستحدثة على نحو ما كان يكتب في الأدب القديم سواء بسواء .

ولست الساعة لأتحدث عن هذه الظواهر كلها بتفصيل . . ولكن حسبي أن ألاحظ أن آثار الدكتور طه هي التي تدل على ذلك وهي التي تقف برهاناً له وشاهداً عليه حتى في عناوينها . . انها تنتقل بين القديم الجديد ، بين الثقافة العربية والثقافة الأجنبية ، بين الترجمة والتأليف ، بين الدراسات الأدبية والدراسات الاجتماعية ، وانها تحاول أن تمتد في هذا الأفق بين الشرق والغرب ، وبين العرب واليونان . . تقف عند القديم العربي وعند القديم اليوناني وتتحدث عن قادة الفكر عند اليونان كما تتحدث عن قادة الفكر عند العرب ، وتتحول من الشعر إلى النثر ومن النثر إلى الشعر ، وتستلهم الصيف كما تستلهم الربيع ، وتنطلق من الشك حتى تصل إلى اليقين ، وتحسن الاشكال الأدبية القديمة كما تحسن الأشكال الأدبية المحدثة فتعنى بالقصة كما تعنى بالتمثيلية . . ويكون لها وقفاتها الطويلة عند المعري والمتنبي على مثال وقفاتها عند شوقي وحافظ . . وتتمثل الحياة الجاهلية تاريخاً وأدباً كما تتمثل عصر صدر الإسلام بعد ذلك رجالاً واحداثاً وفتناً ، وتتحدث صراحة ، كما تتحدث في جنة الشوك ، رمزا . . وما أكثر ما يستطيع الباحث أن يرصد مثل هذه الثنائيات . .

ب ـ واما ما كان من أثر هذا التجاور . . فمن ذا الذي يستطيع أن ينهض با لحديث عن آثاره في حياة الجماعة العربية كلها . . في أدبها القديم وفي أدبها الجديد في لغتها وتاريخها ، وفي مدارسها وجامعاتها ؟ . . . انه يكفي في ذلك أن يكون طه حسين قد حقق أمرين اثنين :

أما أولهما فذلك هو التحبيب بالإدب العربي . وليس هذا التحبيب في الفترات التي جاء فيها بالأمر الهين أو اليسير . . لأنه كان بعض الروابط التي استطاعت أن تشد جمهرة المثقفين والمتأدبين وطلاب الجامعات في الادب العربي الذي كان يهدده الغزو الأدبي الأجنبي على نحو أو آخر .

وأما الثاني فذلك أنه أعاد إلى الأدب العربي روحه التي كان يفتقدها ، حين ربط الدكتور طه بينه وبين الثقافة وأكد في صفحات مشرقة لاتعرف الغموض أن الأدب العربي لايمكن أن يكون بعيداً عن الثقافة وأن المفهوم القديم الأصيل للأدب حين كان « الأخذ من كل شيء بطرف » يجب أن يبقى وأن يتجدد وأن يكون قوام الحياة الأدبية الجديدة التي نريد لها الحياة والازدهار .

لقد عاد هذا الربط بين الأدب وبين الثقافة على الأدب العربي في مرحلتيه بالخير : عادت على دراسة الأدب العربي القديم بكثير من الخير لأنه دفع دارسي الأدب إلى أن يدركوا كل ما كان حول الأدب من ضروب الثقافة التي كان لها اثرها فيه وتأثيرها عليه على نحو ما كان من أثره هو فيها وتأثيره عليها . . وعادت على الأدب العربي الجديد بمثل هذا الخير لأنه خرج به من نطاق غلبة اللفظ وغياب الفكرة أو ضحالتها ، واصطناع الزينة ، إلى أن يكون موصولا بهذه الروافد الثقافية الكثيرة

المحدثة التي تعطي الأدب العربي المعاصر الوجه المشرق وتتيح له أن يقف مع الآداب الأجنبية في ساحة واحدة موقف المقارب إن لم يكن — في كثير من الأحيان — موقف الند والنظير .

انه مما يتجاوز قدرة انسان أن يتحدث عن آثار ما كان من عمل طه حسين في هذه المجاورة المتفاعلة الحية بين القديم والجديد . . حسبه أنه على طول البلاد العربية وعرضها وعلى تعدد الجامعات العربية وتنامي طلابها — كان في مقدمة الرواد .

وبعد ، فقد كان هذا الجمع بين القديم والجديد عند طه حسين يؤلف محور حياته ، ويكون ابرز الخطوط في سيرته . ولقد غبر زمن أسيء فيه فهم هذه العبقرية الفذة التي أدركت ، بذكاء نادر لايكاد يلحق ، أن أدبنا وثقافتنا ولغتنا لابدّ فيها من هذا الصنيع الذي صنعه الدكتور طه أو صنع بعضه . . لابد من بحث هو أعمق البحث ، وإثارة هي أشد الإثارة ، وتجديد هو أحكم التجديد حتى يرتبط ما بين القديم منها والمحدث فيها .

ولقد كان الدكتور طه هو الذي رسم هذا في عقول الناس وأذهانهم ، في ابحاثهم وكتبهم . . انه هو الذي اختطه في الفكر العربي المعاصر . ويبقى أروع ما في ذلك أنه تجاوز أن يكون الرجل الذي يفكر في ذلك إلى أن يكون الرجل الذي يطبقه . . أعني انه تجاوز أن يكون الرجل الذي يفقه القديم إلى أن يكون الرجل الذي يبدع أو يشارك في إبداع كثير جداً من هذا الجديد . .

حجر التفوق والمنطق الامبريالي

الدكتور منير الصلاحي الأصبحي

يقول لزلي فارمر في مقاله « كل ما نعرفه هو ما نقرأه في الصحف » :

ليس هدفي أن أنكر أن للعرب بعض النواقص ، ولكن جمع جميع الخلال السيئة أو التي تثير التساؤل لشعب ما — أو شخص ما — وقراءتها كما لو كانت قرار اتهام يمكن أن تجعلهما يبدوان أسوأ مما هما في الواقع بثلاثة أضعاف . فبإمكان المرء أن يقول بنفس القدرة من الصحة : « ان سقراط قبيح ويرتدي ملابس مزرية وله زوجة رهيبة ولكن ليس لديه صواب الرأي الكافي لأن يطلقها وهو يمضي معظم وقته في الكلام » (١) .

ان مثال فارمر عن سقراط يشرح إلى حد ما سلبية الصورة المرسومة للعرب في « الخروج » والروايات الأخرى . فنحن إذا حاولنا أن نأخذ أية صفة من الصفات التي تسبغها هذه الروايات على العرب ، وحاولنا نفيها ، لوجدنا ذلك صعباً . انه لا يمكننا مثلا أن نقول أنه لا وجود بين العرب لشخص منحط مثل فرج الطبري ، فكل شعب من الشعوب له نواقصه ، وفي كل أمة من الأمم يوجد أفراد يبلغون أدنى درجات الإنحطاط . لذا فانه من العبث أن يحاول المرء التمييز بين ما هو صحيح وما هو مفترى في صورة العرب التي تعرضها هذه الروايات . ولكن من المهم أن يبحث المرء أسباب عدم توفر أية صفات ايجابية في هذه الصورة والطريقة التي يتم بها ذلك .

ان جزءاً من التفسير قد ذكر في المقال السابق ، وهو جهل المؤلفين لحقيقة العرب . وان بامكان القارىء الذي لديه شيء من الاطلاع على أحوال الوطن العربي أن يستنتج مثلا أنه من المحتمل أن يكون جون كليري قد أمضى أسبوعاً أو أسبوعين في بيروت ، قبل أن يكتب رواية « موسم الشك » ، وأنه حاول في تلك الفترة أن يثبت عدداً من الإنطباعات التقليدية المكونة لديه مسبقاً عن العرب ، دون أية محاولة للتعرف حقيقة على أوضاعهم ، وأن ليون يوريس استطاع تجميع قسط وافر من المعلومات عن الوطن العربي ، ولكن معلوماته استقيت بأكلها من مصادر ثانوية متميزة ، وأن موريس وست لم يقم قط بزيارة دمشق – التي يجري فيها جزء كبير من أحداث روايته « برج بابل » – ولم يحاول بشكل جدي أبداً أن يستقي المعلومات الصحيحة عنها . ان هذه استنتاجات محتملة ، وان احتمال صحتها كبير . وكذلك يمكن للقارىء أن يستنتج أن سميث هبستون هو من أكثر هؤلاء الروائيين اطلاعاً على واقع العالم العربي . ومع ذلك فان هبستون نفسه يزورنا بمثال جيد عن جهل هؤلاء الكتاب .

وفي رواية « في وسط الأسود » ، يصور الأب هرزوغ على أنه أمضى أربعين عاماً « يدرس القانون الإسلامي ويعيش بين كل من البدو والحضر يعرف أيضاً شيئاً من اللغة العربية – بوصف القومية العربية بأنها هراء ، فانه يبني هذا الموقف على افتراض ان الشيء الوحيد المشترك بين العرب – بالإضافة إلى دينهم – هو « لغة كتابية مشتركة يجهلها الملايين من الأميين . » ومن الواضح أن هرزوغ يعني بذلك اللغة الفصحى . وهنا يتضح جهل هبستون ، فاللغة

الفصحى ليست مجرد لغة كتابية ، بل هي اللغة المستعملة في المواقف الرسمية كالصلوات والخطابات وبعض البرامج التلفزيونية والإذاعية ، بالإضافة إلى الكتابة . ومن المعروف أن جميع البرامج الأخبارية مثلا تستغل العربية الفصحى ، وبذلك فان « الملايين من الأميين » هم على اتصال أكيد بهذه اللغة ولديهم من المعرفة بها قدر كاف يسمح لهم أن يفهموها ، بل وأن يستعملوها أيضاً في بعض المناسبات . وبالإضافة إلى ذلك فان ذكر هيستون للدين كعامل مشترك بين العرب قد يكون مبنياً على جهله أنه بالرغم من أن غالبية العرب هم من المسلمين إلا أن هناك عدداً كبيراً من العرب المسيحيين واليهود ولابد أن هرزوغ سيصاب بالدهشة إذا علم أن عدداً كبيراً من رواد القومية العربية هم من المسيحيين .

وكذلك فان هؤلاء الروائيين يتقبلون الكليشيهات المتوفرة عن الوطن العربي دون القيام بأية محاولة لفحص هذه الكليشيهات حتى حين تستدعي طبيعة أعمالهم مثل هذا الفحص . والكليشيه الخاصة بانعدام الوحدة العربية هي مثال على ذلك . فهؤلاء الكتاب يسارعون إلى ذكر الخلافات القائمة بين القادة العرب والمجموعات السياسية العربية ولكنهم يمتنعون عن محاولة سبر أسباب هذه الخلافات ووضعها في اطارها الصحيح . فليس هناك من ذكر لأية أمثلة تاريخية تتناول أماً تعرضت للتقسيم إلى كيانات سياسية صغيرة وجاهدت لتحقيق الوحدة بين هذه الأجزاء ، رغم أن مثل هذه الأمثلة متوفرة بسهولة وهي حتماً تعطي شيئاً من التفسير للخلافات العربية وتتيح لقارىء هذه الروايات الغربي فرصة أكبر لو ذكرت الوصول إلى فهم صحيح لطبيعة (وربما حتمية) هذه الخلافات في بعض مراحل الجهاد من أجل الوحدة العربية . وكذلك يقبل بعض هؤلاء المؤلفين بنفس التهافت الكليشية القائلة أن وجود اسرائيل هو الدافع وراء التوافق « الضئيل » المتوفر بين العرب . ولكن نظرة متعقلة للوضع في الوطن العربي تبين أن الاساس الذي يبنى عليه هذا القول يعادل أن لم يكن يقل عن الأساس القول بأن وجود الدولة الصهيونية قد سبب ووسع شقة الخلافات السياسية الموجودة في الوطن العربي . فالخلاف بين القيادة الفلسطينية والمملكة الأردنية مثلا (والذي تجري الآن محاولات لتخطيه) هو خلاف حول السياسة التي يتبعها كل من الجانبين تجاه الوجود الصهيوني في فلسطين . ونستطيع أن نقول أن مثل هذا الخلاف هو أساس أو على الأقل جزء كبير من أساس معظم الخلافات العربية .

وباختصار يفشل هؤلاء المؤلفون في رؤية الوطن العربي في السياق التاريخي والنفسي الصحيح . إذ لايبدو أن أياً منهم يدرك أنه لبضع عشرات من السنين خلت كان معظم العرب يعيشون في ظل الاحتلال الأجنبي الذي زعزع (بل ودمر) المؤسسات السياسية والإجتماعية المتعارف عليها وأنه من الطبيعي جداً أن يمر هؤلاء العرب في مرحلة من البحث والقلق وعدم الإستقرار – يزيد من حدتها إلى حد كبير صراع القوى العظمى للحصول على مراكز نفوذ في المنطقة وكذلك الوجود الصهيوني – قبل أن يستطيعوا التوصل إلى مؤسسات جديدة مناسبة ، وأنهم قد قطعوا شوطاً كبيراً في تطوير مثل هذه المؤسسات .

وبالإضافة إلى الجهل وانعدام التعمق الكافي ، فانه يمكن تفسير سلبية الصورة المرسومة للعرب بلجوء المؤلفين إلى تطبيق المقاييس الغربية حيث لايصح بالضرورة تطبيقها . ويعلق الأب هرزوغ نفسه بأن

الغلطة الكبرى التي قام بها معظم الغربيين بصدد العرب – بالإضافة إلى وضعهم جميعاً في كتلة واحدة كما لو كانوا قد صبوا على نفس القالب – هي محاولة تقييم العرب على أساس مقاييس غربية . انه بامكانك بنفس الاسلوب أن تشكو من أن البرتقالة ليس لها طعم التفاح .
(« في وسط الأسود » ، ص ٣٧) .

ويلاحظ مالكولم ﻟ . كر – وهو استاذ العلوم السياسية بجامعة كاليفورنيا لوس انغلوس وباحث خبير بشؤون الشرق الأوسط – أن تطبيق هذه المقاييس الغربية ليس صحيحاً بالنسبة لصورة العرب الاجمالية فقط بل هو صحيح أيضاً بالنسبة للقضية الفلسطينية بشكل خاص . فهو يقول :

ان ما يميز الرجل المثقف حقاً هو التقمص العاطفي – هو ادراكه أن تفكير وفهم أشخاص من حضارات أخرى قد يختلف بشدة عن تفكيره ، وأن ما يبدو طبيعياً له قد يبدو شديد الغرابة لأشخاص آخرين ، وأن كل نموذج في معزل عن النماذج الأخرى يكون ضيق الأفق .

وأن فهم الأمريكيين للصراع العربي – الإسرائيلي هو مثال كبير على مثل هذا الضيق في التفكير . ان فهمنا لطبيعة الصراع يميل لأن يكون مفصلا حسب طراز مألوف بشكل مريح من المواقف والتعاطفات المتأصلة في التجربة الأمريكية . هذا الطراز يحمل اندماجاً عاطفياً يكاد يكون تاماً مع شعب اسرائيل ويهبط بالعرب إلى مالايزيد كثيراً عن شخصيات كاريكاتورية . فاسرائيل تعتبر دولة « غربية » يقطنها ساكنو حدود رواد نشيطون ديمقراطيون ذوو عقلية تقنية يقومون بتغيير طبيعة البراري ويزودون المضطهدين بوطن ؛ بينما يعتبر العرب كأناس يصعب سبر غورهم إلى حد يبعث على الضيق ولا يمكن الاعتماد عليهم وهم عديمو الكفاءة ، متخلفون ، فاشيون ، عاطفيون . اسرائيل هي صديقتنا الوفية ، أما العرب فانهم يرمون الحجارة على سفاراتنا . (٢)

ان صورة العرب التي يصفها البرفسور كرهي مشابهة جداً للصورة التي تعرضها الاعمال التي تجري دراستها في هذا البحث . ويتضح تطبيق المقاييس الغربية بشكل خاص في تصوير عادات العرب الاجتماعية وفي الحديث عن مركز المرأة العربية . ففي المسألة الثانية يصل المؤلفون الى الاستنتاج بأن المرأة العربية تعيش حياة « رهيبة » من العبودية والذل وذلك لمجرد الاختلاف في مظاهر الاشارة الى تمكن همبستون من ادراك ان المظاهر لاتعطي صورة حقيقية عن دور المرأة العربية كدليل على سطحية بقية المؤلفين في نظرتهم وفي أحكامهم . وأما في المسألة الاولى – عادات العرب الاجتماعية – فيمكن أخذ مسألة « اللف والدوران » التي ينعت هؤلاء الكتاب العرب بها كمثال . فما يعتبر ضرباً من الادب والمجاملة في المجتمعات العربية – أي محاولة الضيف ابداء اهتمام ومودة لمضيفه يتعدى الشؤون غير الشخصية التي تربط بينهما – يفسر على أنه عادة اجتماعية قبيحة لمجرد اختلافه عن التقاليد والعادات الغربية .

ولا شك أن جمع العرب بأكلهم في كتلة واحدة – حسب تعبير الاب هرزوغ في رواية « في وسط الأسود » – هو سبب آخر للقتامة الشديدة التي تطغى على صورة العرب هذه . في هذه الاعمال ، قلما يصور العرب كأفراد . في « الخروج » مثلا يوجد فقط شخصيتان عربيتان هما شخصيتا كال وابنه طه وكلاهما – كما يؤكد يوريس باستمرار – لايمثل العرب بشكل عام ، بينما توجد في الرواية نفسها عشرات من الشخصيات الصهيونية . وأما العرب بشكل عام – باستثناء هاتين الشخصيتين – فهم يصورون في الرواية صورة تصلح لوصفها العبارة التي يستعملها يوريس في وصف مفتي القدس (ص ٢٦٨) : وجود « شرير » يحن في الظلال . » وجميل الطربي هو العربي المعاصر الوحيد في « الينبوع » ، وهو أيضاً وبصورة واضحة لايصلح لتمثيل العرب . وفي هذه الرواية نجد أن الشخصيات العربية التاريخية هي أقل بكثير مما ينبغي اذا ماقارنّاها بالشخصيات الكنعانية والصليبية واليهودية ، ولذلك فان تاريخ العرب في فلسطين يعرض بصورة مقتضبة الى حد كبير جداً . وحتى حين تجري جميع أحداث احدى الروايات في منطقة عربية ، فان الشخصيات العربية على ندرتها لاتصلح لاعطاء فكرة صحيحة عن العربي العادي أو عن العرب بشكل عام . ونرى مثالا على هذا في « موسم الشك » التي تجري أحداثها بأكلها في لبنان ، اذ لاتوجد شخصية واحدة في هذا العمل الروائي تمثل مشاعر ووجهة نظر الجماهير العربية . وتصور هذه الجماهير على أنها مجرد مجموعة من « الرعاع » المتظاهرين الذين هم مصدر ازعاج وتهديد والذين يبقون في خلفية الأحداث .

وحتى في الحالات القليلة التي يتم فيها تصوير أفراد العرب ، فان هؤلاء يقدمون اما كشخصيات تكاد تكون كاريكاتيرية أو يعطى كل منهم بعداً واحداً يجعله أبعد مايكون عن الواقعية . ويمكن العثور على مثال جيد على الشخصيات الكاريكاتيرية في شخصية مصطفى حسني في رواية « كأس الغضب » ، فهو يصور على أنه « رجل ضخم بدين في السابعة والثلاثين ذو شاربين أسودين معقوفين » . وهو يحب ارتداء جزمة ركوب الخيل وحمالات المسدسات الضخمة . وهو ايضاً مغرم « بالبريق السطحي » ، ويتبجح حول « ميوله الفاشية » . ويحمل قدراً كبيراً من الاعجاب بهتلر (ص ١٩٩ – ٢٠٠) بينما لانجد أي

ذكر لحياة مصطفى الشخصية . (وفي الواقع يقع دوره في الرواية بأكمله في أقل من ثلاث صفحات) . وفي المقابل ، تصور حياة مايكل راتنز الشخصية تصويراً مفصلا مع التركيز على المقاساة والألم اللذين تعاني زوجته منهما بسبب « تفانيه » و « تضحيته » ، (٣) علماً بأن راتيز هذا هو مثل مصطفى حسيني في أنه شخصية تخدم غرضاً محدداً وتمثل الارهابيين الصهاينة . وهكذا فان المقارنة تجري بين أفراد يهود يحملون عواطف بشرية (ولكن قلما يرتكبون أخطاء بشرية) وعرب لا يزيدون في أفضل الحالات عن أن يكونوا شخصيات كاريكاتيرية لا ماضي لها ولا مستقبل ولا حياة شخصية ولا عائلات .

وبالإضافة إلى ذلك ، هناك محاولة بارزة وواضحة لتجاهل جزء كبير من الشعب العربي وهو عرب المدينة . فالعادة في هذه الروايات هي أن يصور العرب أما كبدو أو كفلاحين دون أية محاولة لإفهام القارىء بطريقة أو بأخرى أن هؤلاء هم مجرد قطاع من العرب . ولا شك أنه من المفروض في صورة متفحصة للعرب أن تسبر حياة البدو والفلاحين ، ولكن اذا ما أريد لهذه الصورة أن تكون شاملة فانها يجب بالطبع أن تتناول جميع فئات الشعب العربي في مختلف أراضيه .

ان الأمور المذكورة أعلاه تشرح بعض الأساليب والأسباب التي تجعل من صورة العرب في الأعمال المدروسة صورة سلبية قاتمة . ولكن هناك جوانب هامة من تلك الصورة لا يمكن لهذه الأمور أن تفسرها . فمن الواضح تماماً أن هناك محاولة متعمدة لتشويه الشخصية العربية في معظم هذه الأعمال .

أحد هذه الجوانب هو الإبتعاد عن بعض المواقف الأمريكية المعتادة تجاه أمم العالم الثالث . يقول ساري جميل ناصر أن

> عطف الجمهور الأمريكي التقليدي على القوميين المحليين المناهضين للاستعمار البريطاني لم يشمل العرب قط . وبدلا من ذلك كان الصهاينة هم المستفيدون في الشرق الأوسط من اهتمام الامريكيين بالمضطهدين . (٤)

ويشير ادوار سيد إلى أن هذا الابتعاد هو صحيح بشكل خاص في حالة الفلسطينيين العرب .

> ستستمر العواطف التحررية في الولايات المتحدة – التي تسرع إلى تبني قضايا التحرر – في تجاوز العرب طالما بقي هناك صراع بين العرب والإسرائيليين على جلب الإنتباه لقضاياهم . ومن الطريف أنه يمكن للعرب أن يصبحوا أهدافاً مقبولة للإعجاب في سياق صراعات العالم الثالث ضد الإستعمار ، ولكن فقط حين لايكون لإسرائيل علاقة بالأمر . (٥) .

وما يكتبه هذان الكاتبان يتناول الموقف الذي نجده في وسائل الإعلام الأمريكية بشكل عام ، ولكن من الواضح من العرض الذي اشتملت عليه مقالة « صورة العرب » أن هذا الإبتعاد ينطبق تماماً على الروايات التي تجري دراستهـا هنـا .

وأحد الجوانب الأخرى التي تحتاج إلى تفسير هو الإبتعاد عن الكليشيهات المعهودة الخاصة بالعرب . ونستطيع هنا استخدام تعبير ميخائيل و . سليمان الذي يقول : « لقد حلت محل الكليشيه الرومانتيكية القديمة التي تصور العربي كساكن صحراء متجول صورة « المتآمر القاتم اللون ذي العينين المراوغتين أجبان » ، (٦) ومن جديد فان هذا القول الذي يطلقه سليمان على وسائل الإعلام الأمريكية والصورة التي ترسمها للعرب هو صحيح تمام الصحة بالنسبة لصورة العرب في هذه الروايات ، كما هو واضح في المقالة السابقة المذكورة آنفاً وخاصة فيما يتعلق بالحياة السياسية العربية وبالطاقة العسكرية لدى العرب .

ولكن لايتم الإبتعاد عن الكليشيهات القديمة بشكل كامل ، إذ يقوم هؤلاء الروائيون باللجوء اليها في بعض المواضع . فحين تتحدث شخصيات متشترعن الشذوذ الجنسي على أنه العامل الكامن من وراء السياسة البريطانية « المناصرة للعرب » في فلسطين ، فإن هذه الشخصيات تشير إلى الكليشيه الرومانتيكية القديمة الخاصة بالعرب . إذ يدور الحوار كما يلي :

يتابع الياف قائلا ، « ما كنت أقوله هو أنه لو
كنت أنت شاباً انكليزياً مملوءاً بالأفكار
الرومانتيكية ونزلت في ميناء حيفا ، فالى أين
يتجه تعاطفك . . . »
« تعاطف ، هراء ! » قال الطبري محتجاً . « مع
من تود أن تضطجع في السرير ؟
مع مصطفى بن علي من واحة "وأشجار النخيل
المتدلية ،،، أم مع مندل غنسبرغ [الذي يدير دكاناً
لبيع الملابس في شارع هرتزل]؟ »
(« الينبوع » ، ص ٩٧٦)

ويكون الطبري قد ربط بين مصطفى بن علي هذا وبين الجمال وعواصف الرمل في الصحراء ، وجعله يرتدي « ملاءة » سرير . ولكن مصطفى لا يتوافق في شخصيته هذه مع صورة العرب التي تعرضها هذه الروايات . (وفي الواقع لاتتفق صورة مندل غنسبرغ أيضاً مع صورة الصهاينة . فالصهيوني لا يصور كصاحب محل لبيع ملابس بل يصور كاري بن كنعان النشيط ، المكرس نفسه الأزرق العينين ، الملفوح بالشمس .) إن هذا اللجوء بين الحين والآخر إلى الصور المألوفة القديمة هو في حد ذاته جانب آخر من جوانب الصورة يحتاج إلى تفسير .

وكذلك التناقضات التي نجدها في الصورة . فالعربي هو حسب هذه الصورة إنسان فردي لا يخضع لنظام ولا يمكن تنظيمه وهو مليء بمشاعر الغيرة والتنافس حتى في حربه ضد الصهاينة . ومع ذلك فإن باستطاعة المفتي وملاك الأراضي أن يقوموا بسهولة باثارة « الرعاع » من الفلاحين ضد اليهود . ومن جهة أخرى يصور العرب كمتدينين متزمتين ومتعصبين ومع ذلك فليس لديهم أي وازع أخلاقي .

إن التفسير الوحيد لكل هذه الجوانب هو تحيز الكتاب الواضح للجانب الصهيوني . ان هؤلاء الكتاب لا يقومون بتقصي الصراع العربي – الصهيوني من وجهة نظر موضوعية يستنتجون بعده أن تأييدهم يجب أن يكون لليهود . بل هم ينطلقون من تحيز للصهاينة ثم يقومون بتفصيل صورة العرب وصورة الصهاينة وصورة الصراع بشكل عام بحيث تتناسب هذه الصورة مع ذلك التحيز المسبق . وهكذا فإن الهدف من رسم صورة الصهاينة بالشكل الذي

تعرض به هو اكتساب التعاطف والتأييد الموقف الصهيوني ، بينما الهدف من صورة العرب هو تفنيد وجهة النظر العربية . وهذا التحيز الصهيوني الواضح يفسر أيضاً الإغفالات والتشويهات التاريخية التي تخلل بها هذه الروايات .

وتحيز الروائيين هذا واضح في جوانب أخرى من الصورة وهو يفسر أيضاً هذه الجوانب . فبالرغم أنه لم تكن العرب أية علاقة باضطهاد اليهود في أوربا فان تصوير العربي بأنه متعاطف مع النازيين – وفي الواقع كنازي في طور التكوين – هو محاولة لتبرير معاقبة العرب بسبب آثام أوربا ولكن تعاطف القارئ مع العقيدة الصهيونية . وهذه الصورة للعربي كشبيه النازي تتلقى دعماً من تصوير الأقليات المختلفة في العالم العربي كضحايا للشراكة والاضطهاد . فهذا التصوير يربط بين هذه الأقليات والضحايا من اليهود الأوربيين من جهة ويثبت صورة العربي كضطهد . وتزداد حدة هذه الصورة حين تقدم هذه الأقليات كناصرة للصهيونية وفي بعض الحالات كمقاتلة إلى جانبها .

وهناك وسائل أخرى تتبعها هذه الروايات لكسب تأييد القارىء الغربي للجانب الصهيوني . فالتركيز على العلاقة بين العرب والروس وتصوير العرب « كعملاء » للروس يهدف إلى خلق فكرة لدى القارىء مفادها أن الصراع العربي – الصهيوني هو جزء من الحرب الباردة الدائرة بين القوى العظمى ويهدف أيضاً الى إثارة العواطف المعادية للشيوعية ضد العرب . ومن جهة أخرى فإن العواطف الأمريكية المؤيدة لحرية الديانات تثار أيضاً ضد العرب وذلك بواسطة تصويرهم بصورة المتزمتين والمتعصبين دينياً . ويقول ميخائيل و . سليمان في صدر التعليق على ميل وسائل الإخبار الأمريكية لتصوير العرب كمسلمين متعصبين بشكل يماثل ما وجدناه في الروايات قائلا في مقاله « وسائل الإعلام الأمريكية وصراع حزيران » :

> ليس الصراع بين العرب واليهود ولكنه بين العرب – – وبشكل خاص عرب فلسطين – والصهاينة الإسرائيليين ، وانه لمن السخرية أنه حين بدأت القومية العربية الدنيوية في الظهور في أواخر القرن التاسع عشر ، بدأت قومية يهودية مبنية على الدين والعرق في التبلور . وكانت النتيجة دولة إسرائيل (٧) .

وبالرغم من ذلك فان العرب هم الذين يصورون في هذه الروايات بصورة المتدينين المتعصبين ، وذلك ضمن صورة عامة للصراع تظهره بمظهر الصراع الديني . ففي « لو خسرت

إسرائيل الحرب » يتكلم عبد الناصر عن ازدهار جديد للإسلام (ص ١٦٥ و ١٦٧) . وفي « موسم الشك » ، يعيب مذيع « ديماغوجي » بالشعب العربي أن يكون متأهباً ضد « الكفرة » (ص ٢٥٠) . وفي « الخروج » يساق الفلاحون والبدو بسهولة إلى « حالة من الهيستيريا الدينية لأقل استفزاز » وذلك بواسطة الشيوخ وملاكي الأراضي (ص ٢٣٨) . وفي نفس الوقت ، تصور جميع الشخصيات الصهيونية بدون استثناء بصورة من يتخذ موقفاً سلبياً من الدين ، فهم يدركون ويتقبلون عظمة التراث الديني اليهودي ، ولكنهم في ذات الوقت دنيويون غير متدينين . ولكننا نعلم جميعاً أهمية الدور الذي يحتله الدين في الايديولوجية الصهيونية .

وكذلك تستثار عواطف القارىء الغربي لتأييد الصهاينة / الإسرائيليين عن طريق تصوير هؤلاء كشعب غربي . فجميع « منجزات » الصهاينة التي تدعيها هذه الروايات بشكل عام في اتباعهم للمثال الغربي . وهي بالإضافة إلى ذلك منجزات حققها اليهود الغربيون . (٩) أما اليهود الشرقيون فانهم — حسب تقديم هذه الروايات لهم — لا يختلفون كثيراً عن العرب « المتخلفين » . فاليهود في تركيا مثلا يرزحون تحت وطأة الجهل والاعتقاد بالخرافات بينما يتصرف اليهود العرب مثل بقية العرب ويرتدون نفس الزي (« الخروج » ، ص ٢٢٠ — ٢٢١) . وحين يذكر معلق مجلة تايم » « أن آري بن كنعان في رواية « الخروج » يتصف بجميع الصفات المسطحة التي يتحلى بها رجل الأمن في برنامج كاوبوي تلفزيوني (١٠) فانه (أي المعلق) يستعمل صورة مناسبة جداً ، فغالباً ما يستعمل كتاب الروايات المدروسة هنا مفردات التجربة الأمريكية في الحديث عن الصهيونية وتطورها . وهكذا يوصف المستوطنون الصهاينة الأوائل بأنهم « رواد » يواجهون « عداء غير عقلاني » من « السكان الأصليين البدائيين »—وهذا بالطبع يعني العرب— . والقصد بالطبع أنهم يشبهون « الرواد » الأمريكيين الأوائل الذين واجهوا « عداء غير عقلاني » من الهنود الحمر « البدائيين » .

والصيغة التي تتبعها هذه الروايات في تصوير علاقات الحب هي صيغة تؤكد طبيعة الصهاينة الإسرائيليين الغربية . فعادة أحد العاشقين هو من « الصابرا » والآخر إنسان غربي . لذا فان اتحادهما يرمز إلى الوحدة بين الصهيونية والغرب . وبالإضافة لذلك فان علاقتهما الغرامية هي علاقة غربية الطابع ؛ فهي علاقة حب متحرر لا يخضع لقيود الزواج (وهو بذلك يختلف عن حب العرب الذي يعرض بصورة سلعة تجارية) . وإننا نجد أن العلاقة بين آري وكيّي وبين دافيد وجوردانا في « الخروج » ، وبين بن وميريام في « كأس الغضب » ، وبين

غوتسمان (الذي يسمي نفسه الياف فيما بعد) وايلانا في « الينبوع » ، وبين ايفان وشولاميت في « احضروا أبنائي من بعيد » ، وبين مايك وراشيل في « وسط الأسود » ، وبين آدوم وايميلي في « برج بابل » ، وبين جوزيف وأنا في « كوكب الهوا » تمثل جميعها مثل هذا الاتحاد ، كما نجد أن جميع هؤلاء العشاق – لتأكيد الطبيعة الحرة لعواطفهم الصهيونية – الغربية – يمارسون الجنس قبل الزواج ، ومعظمهم لا يتزوجون على الإطلاق .

ولكن حتى إذا قبل القارىء الغربي فكرة « التفوق » الصهيوني / الإسرائيلي ، فلا بد له أن يلاحظ أن إقامة دولة « غربية » « متفوقة » في العالم العربي هو مثل إقامة مجتمعات الرجل الأبيض المسيطرة في روديسيا وجنوب أفريقيا ، أي أنها ضرب من الإمبريالية . فحجة التفوق هي بشكل واضح وصريح حجة امبريالية ، وحتى في إحدى هذه الروايات التي نبحثها هنا – وبالضبط رواية « الينبوع » – يتم رفض هذه الحجة من قبل المصور البريطاني على هذا الأساس . فحين يتحدث كلتين عن نظرية الوصاية التي توصل اليها يقول هذا المصور : « انها (أي تلك النظرية) تبدو كالإقرار الذرائعي للإمبرياليين » . ويوافق الياف قائلا : « إذا حكمت على اليهودي في إسرائيل من زاوية الوصاية فقط فانك تقترب من اتهامه بالإمبريالية »(ص ٩١٧). وكذلك يرفض جوهان غالتنغ هذه الحجة لنفس السبب ، وذلك في مقاله « نظرية الصراع والمشكلة الفلسطينية » :

> إن هذه الحجة تستشهد بدور اليهود كشعب ذي مهمة حضارية ، أحضر التأثير على الطبيعة التي يصعب سبر غورها « المجتمعات أقل تقدماً » . وتستند الشرعية على القدرة على جعل الصحراء تزدهر ، وليس على التعايش مع الصحراء لأجيال عديدة . وفي وجهة النظر هذه ما يشكل جوهر الملكية هو الاستخدام المنتج وليس السكن ، ومن لا يقوم باستخدام منتج يفقد حقوقه . ان هذه الحجة ترفض فوراً باعتبارها حجة استعمارية – ليس بسبب نكران القدرة اليهودية ولكن بسبب نكران الحق اليهودي في الاضطلاع بمهمة من هذا الطراز إلا بدعوة صريحة لا إكراه فيها من الشعب المعني . (١٢)

ولكن رفض هذه الحجة كمنطق استعماري لا يكفي ، فمن الضروري أن نشير إلى أن عرض هذه الحجة على القارىء الغربي يستند على عدد من المغالطات في المقارنة بين العرب والصهاينة .

ويكتب ميخائيل و. سليمان في معرض الإشارة على التركيز على « المنجزات » الإسرائيلية في المجلات الإخبارية الأمريكية :

> إن الإسرائيليين ليسوا أبعد من النقد فقط بل إن منجزاتهم كما يبدو أبعد من المقارنة . إن المرء يتساءل أحياناً كم من الصحفيين قام بزيارة فلسطين قبل أن يستولي الإسرائيليون عليها كي يستطيع التكلم بمثل هذه الدراية عن كيف قام الإسرائيليون « بجعل الصحراء تزدهر » . والإسرائيليون هم بالطبع متسامحون وكرماء مع العرب الذين عهد بهم « القدر » لعنايتهم . لقد قدمت مثل هذه الحجج لتبرير الاستيلاء الإسرائيلي المحتمل على بعض أو كل الأرض المحتلة في صيف ١٩٦٧ . إن هذه الحجج تبدو كحجج المستعمرين – أي حججاً من المفروض أنها قد رفضت من قبل التحرريين والمثقفين في الغرب منذ حوالي عشرين عاماً (١٣) .

وان المرء ليتساءل بالتأكيد كم من هؤلاء الروائيين قام بزيارة فلسطين قبل عام ١٩٤٨ ، إذا كان قد قام بزيارتها على الإطلاق .

إن هذا التساؤل يشير إلى المغالطات المحتملة في منطق التفوق ، ولكن هناك أدلة صريحة على هذه المغالطات . فبغض النظر عن مدى صحة المقارنات التي تستند عليها حجة التفوق ، فان المقارنة تجري عادة بين الصهاينة الذين كانوا عملياً يتمتعون بالاستقلال في ظل الانتداب البريطاني وبين عرب فلسطين الذين عانوا لقرون طويلة من الحكم الأجنبي . فهناك إذن حقيقة تخفيها هذه الروايات عن قارئها وهي أن عرب فلسطين الذين حرموا من الاستقلال السياسي لم تتح لهم الفرصة لإظهار مدى المنجزات التي يمكنهم تحقيقها .

وكذلك تخفى حقيقة أخرى عن هذا القارىء وهي أن المنجزات الصهيونية في فلسطين مهما كانت ليست نتاج جهد الصهاينة الموجودين في فلسطين وحدهم . فمنذ فترة الاستيطان اليهودي في فلسطين الأولى ، كانت جهود الصهاينة تمول إلى حد كبير عن طريق التبرعات الخارجية . ويكشف السناتور ج. و. فولبرايت مدى اعتماد إسرائيل على الأموال الأجنبية ، فهو يقول في مقالة نشرت في حزيران ١٩٧١ :

تعتمد إسرائيل اعتماداً كبيراً على الولايات المتحدة في كل من الأسلحة والعون الاقتصادي . ففي كانون الأول الماضي فقط خصص الكونغرس نصف بليون دولار من المساعدة العسكرية لإسرائيل . ومنذ عام ١٩٤٨ ، قدمت حكومة الولايات المتحدة ٤,١ بليون دولار كساعدة اقتصادية مباشرة لإسرائيل ، وهذا لا يشمل المساعدة العسكرية . ومنذ ١٩٤٨ قدم المواطنون الأمريكيون بشكل شخصي ٣ بلايين أخرى من الدولارات كتبرعات معفاة من الضرائب ، وهم يشترون بشكل منتظم ما تتراوح قيمته بين ثلاثمئة وأربعمئة مليون دولار سنوياً من السندات الإسرائيلية . وقد كان ضمن المساعدات العسكرية الأمريكية الضخمة التي ازدادت منذ حرب ١٩٦٧ – طائرات وصواريخ وأجهزة منذ حرب ١٩٦٧ – طائرات وصواريخ وأجهزة الكترونية أكثر تطوراً من تلك التي قدمت للبلاد التي نحن في تحالف معها في حلف الأطلسي وحلف جنوب شرقي آسيا (١٤) .

ورغم محاولة هذه الروايات إخفاء حقيقة الاعتماد على الموارد الأجنبية هذه عن قرائها فان هناك بعض الأدلة التي لم يكن بالإمكان تحاشيها في نفس الروايات (١٥) . وفي الواقع نجد أن مدى الأموال الأمريكية الخاصة التي يتبرع بها لإسرائيل والصهيونية هو موضوع قصة ماير ليفن القصيرة « بعد كل ما فعلته لإسرائيل » . لكن هذه الروايات تتجاهل مسألة الاعتماد الكبير على الدعم الخارجي حين تجري المقارنات التي تبني عليها حجة التفوق .

إن حجة التفوق تؤكد – بالإضافة إلى « منجزات » الإسرائيليين / الصهاينة – تمشي الصهيونية مع العصر الحديث و « تخلف » العرب . وكما جاء في مقال « صورة العرب » ، فان التعصب الديني الذي يعزى إلى العرب هو أحد مظاهر « التخلف » العربي . ولكن ما يعزف الروائيون عن قوله هو أن إسرائيل – كمؤسسة – هي الدولة التي يلعب الدين فيها دوراً أساسياً وهاماً . ليس فقط أن أحد تبريرات إنشاء دولة إسرائيل هو تبرير يرتكز على الدين ، ولكن – وكما ذكر في مقال « التبريرات الأخلاقية في " الخروج " وروايات أخرى » – إسرائيل

كما يذكر منشر تخضع لقوانين دينية تبدو لكليتين « ككتلة من العصور الوسطى » . وكذلك يذكر وست في « برج بابل » أن الصراع الديني هو أعنف الصراعات الداخلية في إسرائيل »، وأن الفئة الدينية المتزمتة لا تبدي أي استعداد لقبول أية صبغة دنيوية في السلطة أو القانون وبسبب هذه الفئة لا يوجد دستور في إسرائيل بينما تتألف القوانين الاجتماعية من مجموعة من الأشياء الشاذة ومن أعمال الغبن . ويتابع وست قائلا :

> ليس هناك زواج مدني في إسرائيل . فأنت مسيحي أو يهودي
> أو مسلم . ولكن إذا أردت أن تكون رجلا دنيوياً بسيطاً
> وأن تتزوج بشكل شرعي أو تطلق بشكل شرعي – أو حتى
> أن تدفن بشكل شرعي – خارج فئتك الدينية ، فعليك عندها
> أن تذهب إلى قبرص للقيام بذلك (١٦) . (ص ٤٠) .

إذن فن الضروري أن يعرف القارىء الغربي – حتى إذا كان من النوع الذي يقبل المنطق الاستعماري – أن حجة التفوق – حين تعرض بشكل صريح وحين تكون ضمنية – مبنية على أساس غير صحيح حين تتحدث عن « تقدم » الصهاينة و « تخلف » العرب .

وهي أيضاً مبنية على تصوير خاطىء للعلاقة بين العرب والصهاينة قبل ١٩٤٨ . فهذه الحجة تزعم أن طريق العرب الوحيد للخلاص هو في تعاونهم مع الصهاينة . ولكن هذه الروايات تفشل فشلا تاماً في ذكر أي دليل واحد – أكان واقعياً أم من مخيلة الروائيين أنفسهم – يؤيد هذا الزعم . وحتى بالنسبة لقرية أبو الهيشم التي يستخدمها يوريس للتدليل على مدى ما يمكن للصهاينة تقديمه للعرب ، فان كل « المساعدات » التي يزعمها يوريس هي مساعدات مشتراة ؛ دفع ثمنها كال ، مختار القرية ، بإعطاء قطعة كبيرة من الأرض للوكالة اليهودية ، أتبعها بقطعة أرض أخرى لإظهار « امتنانه » . وبالطبع كان بإمكان كال شراء مثل هذه الخدمات من جهات عديدة أخرى طالما أنه مستعد لدفع الثمن .

وبالطبع تتناقض هذه الفكرة تناقضاً تاماً مع واقع العلاقة العربية – الإسرائيلية قبل ١٩٤٨ فالكاتب الإسرائيلي روني ي. غابي يشير إلى أن الرغبة التي يعلن عنها الصهاينة للتعاون مع العرب كانت مجرد رغبة شكلية . وهو أيضاً يشير إلى أن شراء الصهاينة المتتابع للأراضي الفلسطينية سبب تشرد العديد من الفلاحين العرب ، لأن اليد العاملة الزراعية اليهودية كانت – رغم كونها أغلى – تعطى الأفضلية من قبل الصهاينة . ويذكر غابي أنه بالإضافة إلى ذلك كان اليهود يفضلون المنتجات اليهودية بغض النظر عن أسعارها ، وكذلك فإن المنشآت الصناعية

اليهودية كانت تستخدم اليد العاملة اليهودية فقط ، وقام الصهاينة أيضاً بانشاء مدارس لا تقبل غير اليهود في عداد تلاميذها . وهو يستنتج أن إحدى نتائج هذا الموقف كانت قيام جهازين اقتصاديين منفصلين في فلسطين (١٧) . وفي هذا الموقف الصهيوني الذي يكشفه كاتب إسرائيلي ما يكفي للدلالة على مدى سخف فكرة خلاص العرب بواسطة الصهاينة التي تعمل هذه الروايات على زرعها في عقول قرائها . ومن جهة أخرى فان هذه الفكرة – التي هي جزء من حجة التفوق – هي دليل على أن ما قام به الصهاينة فعلا هو إنشاء مجتمع الرجل الأبيض في فلسطين العربية .

وهكذا يتضح أن هذه الحجة – ومثلها في ذلك مثل التبريرات الأخلاقية – مبنية على المغالطة والتناقض والتشويه والتزييف وتجاهل الحقائق .

الهوامش

(١) مجلة « رسالة الشرق الأوسط الإخبارية » Middle East Newsletter المجلد ٢ ، العدد ٢ (شباط ١٩٦٨) ، ص ٥ .

(٢) مقدمة لكتاب « المواجهة العربية – الإسرائيلية في حزيران ١٩٦٧ : وجهة نظر عربية » الذي قام بجمع مقالاته ابراهيم أبو لغد .

« Forward,» The Arab-Israeli Confrontation of June 1967: An Arab Perspective, ed. Ibrahim Abu - Lughod (Evanston : Northwestern University Press, 1970), vii .

(٣) ارجع مثلا إلى الفصل الثاني عشر (ص ١٦٧ – ١٧٦) .

(٤) « صورة العرب في الحضارة الشعبية الأمريكية » ، أطروحة دكتوراه غير منشورة (جامعة ايلينوي ، ١٩٦٣) ، ص ٢٤ .

(٥) « تصوير العرب » The Arab Portrayed في « المواجهة العربية – الإسرائيلية في حزيران ١٩٦٧ » ، ص ٣ . ويعطي ادوارد سيد كمثال فيلم « معركة الجزائر » The Battle of Algiers الذي تقبل الجمهور في الولايات المتحدة موقفه المتعاطف مع الجزائريين العرب . ويعلق بقوله :

> بالنسبة لمعظم العرب ، يمكن بسهولة ترجمة الصراع الجزائري ضد المحتلين والمستوطنين الفرنسيين الذي يصوره الفيلم إلى الصراع العربي – الإسرائيلي – فنقاط التماثل أوضح

من أن ينفل عنها . ولكن في الولايات المتحدة يتم تجاهل هذه المضامين . (ص ٣ - ٤) .

ويمكن الاستشهاد بمثال آخر على صحة ما يورده أدوارد سيد وهو فيلم « الهروب من الزهرين » الذي أنتجته هوليوود (شركة بارامونت) والذي يصور بشكل متعاطف أيضاً صراع العرب في دولة بترولية عربية غير مسماة ضد الملكية الإستبدادية والنفوذ الأجنبي .

(٦) « وسائل الإعلام الأمريكية وصراع حزيران American Mass Media and the June Conflict في « المواجهة العربية الإسرائيلية في حزيران ١٩٦٧ » ص ١٤١ .

(٧) ص ١٥٣ .

(٩) آري بن كنعان مثلا هو من أصل روسي وايلان الياف ألماني وبن لانديولندي .

(١٠) عدد ٨ كانون الأول ١٩٥٨ ، ص ١١٠ .

(١١) من الواضح أن هذا الرفض ليس دليلا على الموضوعية ، وانما هو دليل على إدراك منتشر لعقم هذا المنطق وعدم صلاحيته لاقناع جميع القراء ، لذا فهو يقوم بعرض الحجة لكسب تأييد من يمكن له قبول هذه الحجة ، ثم يضطلها إلى حجج أخرى في محاولة لكسب المزيد من المؤيدين .

(١٢) « مجلة الدراسات الفلسطينية » ، المجلد ٢ ، العدد ١ (خريف ١٩٧٢) ، ص ٣٥ - ٣٦ .

« Conflict Theory and the Palestine Problem,» Journal of Palestine Studies

(١٣) (وسائل الأعلام الأميركية وصراع حزيران) ، ص ١٤٣ - ١٤٤ .

(١٤) « يمكن لسياسة الجديدة أن تحقق السلام » ، مجلة الشرق الأوسط العالمية ، المجلد ١ العدد ٣ (حزيران ١٩٧١) ، ص ٧ .

New Politice Could Bring Peace,» Middle East International.

(١٥) ارجع إلى « الخروج » مثلا ، ص ٨٧ و ٢٢٥ و ٢٢٨ و ٢٣٤ و ٢٣٧ و ٤٨٥ .

(١٦) لقراءة المزيد عن موضوع دور الدين في اسرائيل ، اقرأ مقال ب . شفي ، « الإساءة إلى الدين اليهودي » B. Shefi,«The Jewish Religion Abused» في « مجلة الشرق الأوسط العالمية » ، المجلد ١ ، العدد ٣ (حزيران ١٩٧١) ، ص ٧ .

(١٧) «دراسة سياسية للصراع العربي – اليهودي» ، (جنيف ، ١٩٥٩) ، ص ٢٥-٢٣ .

Rony Gabbay, A Political Study of the Arab - Jewish Conflict (Genève : Librarie E. Droz, 1959) .

بحث في طبيعة القتل

فايز مقدسي

هناك قتل على نوعين : أن يقتل شخص ما نفسه ، أو أن يقتل هذا الشخص ، شخصاً آخر . في الحالة الأولى ، ينضوي القتل تحت اسم « الإنتحار » ، وفي الحالة الثانية ، تحت اسم « الجريمة » .

ومن الطبيعي أن الطريقتين لا تنطويان على اختلاف جذري في النتائج فكلتا هما ، تؤدي إلى إنهاء حياة بشرية ، ويكمن اختلافها في أن قاتل نفسه يتخلى عن العالم ، بينما يرفض قاتل غيره ، ذلك .

أما تعدد النوعيات ، فهو من نصيب الدوافع التي تؤدي إلى القتل ، أو تكون سبباً من أسبابه ، فقد يحدث أن يقدم المرء على وضع حد لحياته ، نتيجة لشعوره العميق بالتفاهة الذاتية . وهي الحالة التي صورها (تولستوي) في « آنا كارنينا » معبراً بها عن وضع (فرونسكي) الذي يتعاظم إحساسه بالتفاهة الذاتية ويدفع به إلى الانتحار .

وإلى جانب الدافع السابق ، نجد أن للقتل أسبابه العاطفية أيضاً ، فقد حاول (فرلين) قتل (رامبو) في لحظة يأس . وفي « الأبله » لـ (دستويفسكي) لا يتردد (ارغوزين) في قتل المرأة التي يحبها ، عندما يعييه أمر الاحتفاظ بها بقوة الحب وحده . ويبدو واضحاً أن القتل هنا ليس سوى القوة المساعدة . ومن جملة الدوافع ، تفاقم الإحساس باليأس ، وتضخم الشعور بالوحدة ، وبعدم اكتراث العالم وصمته . وقد عبر (كافكا) عن هذا اليأس وتلك الوحدة حين قال : « لمن ألجأ في هذا الفراغ الكبير » أما (فان جوخ) فانه لم يتورع عن قتل نفسه للأسباب ذاتها ، شازحاً أزمته بأن « الشقاء لن ينتهي » (١) بعد حياة اتسمت بالعنف وبالانفعال الحاد ، ولم تخل مع ذلك من لحظات صفاء واستنارة ، كالتي يراها المرء بوضوح في لوحة « الليلة المتلألئة » .

إن يأس « فان جوخ » هو اليأس من القدرة على بناء عالم خال من الشقاء . فهذا العالم بالنسبة اليه « مخطط درامي غير ناجح » .

ويحقق القتل أحياناً ، غايات مرجوة ، فقد اعتقد الحلاج ، وهو القائل :

أقتلوني يا ثقاتي . . . أن في موتي حيـــاتي

ان قتله يعجل به إلى ملاقاة الله ، فاشتهى أن يقتل ، ويروى أنه سأل — وكان عيد النيروز — متى نوروز ؟ فلما صلب فيما بعد ، ابتسم وقال : (قد نوروزنا) (٢) كأنما قتله على الصليب حقق له كل آماله . أما رغبة الانتقام فقد كانت سبباً في دفع هاملت واوريستيس إلى القتل . وأما دافع أوديب فهو أكثر تنوعاً وغموضاً .

فاذا انتقل المرء ، إلى تقصي طبيعة الشعور أثناء القتل ، فانه سيصطدم بنوع من التعقيد لا يبدو حله سهلا . فهنا تتداخل الدوافع والنزعات ، وتشكل وحدة من الصراعات ، وتلوح ككلية مطلقة ، بحيث أن محاولة تنسيقها كل واحدة على حدة ، تبدو وكأنها مستحيلة ، فلقد تتداخل عدة مثيرات في ما يشكل الدافع المباشر ، لحظة القتل ، وتتضامن هذه المثيرات في تناسق غريب وغير مألوف ، لا يمكن من خلاله معرفة المثير الرئيسي من الثانوي ، وحتى إذا عرف فان فصله عن غيره يلوح مستحيلا ، فهذا الترابط المعقد ، ليس سوى ترابط الشخصية

(١) نجد عند (رامبو) الفكرة ذاتها : « إن حياتنا في النهاية ليست إلا شقاء لا نهاية له » .

(٢) بتصرف .

(٣) مسرحية « الكترا » لسوفوكل .

المعقد . فكيف يمكن للمرء أن يفصل العذاب عن المتعة ، والحزن عن اللذة ، والحب عن القسوة ، والقسوة عن الإحساس بالقوة . ومن ثم فان هذه الدوافع تتبادل ذواتها وعلاقاتها وتغدو غامضة إلى الأبد ، أضف إلى ذلك أن السلوك الخارجي ليس بالضرورة ، دلالة مطلقة على الوضع الداخلي والحقيقي للنفس . فان كل من يبكي ، ليس حزيناً ، وهذا هو في الأساس ، اعتراض (سارتر) الذكي على النظرية السلوكية ، والذي يزيد بدوره من تعقيد الدوافع ، كما أن (فرويد) لم يغفل عن ذكر هذا التعقيد فقد أشار إلى أن كل عاطفة تحمل في ذاتها نقيضها . والفكرة ذاتها ، لم تغب عن ذهن مؤلف « التاو – تي – كينج » (١) .

الصفحات التالية لن تحاول حل هذا – الكلي المعقد – إنها سوف تكتفي بأن تلح على الجانب الميتافيزيقي منه ، رغم أنه لا يمكن أن يكون نقياً ولا خالصاً .

فكرة الارتداد

تصوغ الجريمة – في نظر القاتل – شكلاً نموذجياً ، القوة المتمثلة في القدرة القصوى على الفعل ، كأن تدخل الضحية في السكون ، و كأن يعرقل القاتل مجرى الأمور ، فيخل بالنظام ، هادفاً من ذلك ، إلى تحدي المصير عن طريق تدخله في الصيرورة . ويقترب القتل في ذلك من الخلق ، حتى يغدو شيئاً واحداً . ان الهدف يبقى أبداً ، بناء الكينونة غير القابلة للتصدع . ويجد المرء أن الصيغة لا تكف عن تبني القتل .

كتب (دي ساد) يوماً يقول : « اني أمقت الطبيعة ، وأود لو أعاكس سيرها » وتشير جملة (دي ساد) هذه إلى طبيعة القاتل ، وتطرحها كقضية تمرد شمولي . ومن ثم فانها تحلل الدافع إلى القتل باعتباره دافعاً ميتافيزيقياً . وأكثر من ذلك ، فانها تقدم النموذج الثائر على الصيرورة ، مظهرة رغبته الكاملة ، في أن يتدخل في الصنع . ان الجملة السابقة ، تبرز الاحساس الضخم بـ « الأنا » الذي حاربه رجل (كيوذا) واصطلحته « الرواقية » على أسلوبها الأخلاقي ، والذي يتلبس كل جريمة ، ويرافق كل جانب متعة في الصنع . وقد سبق أن أشار (فرويد) إلى ذلك ، حين أكد في بحثه حول (دستويفسكي) « أن ثمة قابليتين يختص بها المجرم عادة ، هما ، الأنانية ، والرغبة في التدمير » أي الأنا والخلق .

---

(١) الوجود وعدم الوجود ينبع أحدهما من الآخر . (والتاوية مذهب ديني قديم ظهر في الصين وبشر بتعاليم غامضة ذات أساس صوفي) .

ان تصريح (دي ساد) واشارة (فرويد) يبرزان الأهمية القصوى لطموح الجنس البشري في أن يغدو جنساً إلهياً ، وهذا ما لاحظه (كامي) . وأيضاً فانها يلخصان تاريخ البشر . فكل حضارة ، ليست روحها سوى صورة لهذا الاستقطاب .

(جلجميش) كمثل لروح الحضارة القديمة ، يسجل في صفحات الملحمة المعروفة باسمه ، ما قد يكون أول احتجاج انساني على الموت ، وأول تمرد أيضاً ، « أألصق رأسي في باطن الأرض لأنام عبر كل السنين » . وقد لاحظ (كامي) أن المتمرد يتمرد « ضد وضعه كفان » (١) .

ويظهر التحليل الدقيق ، أن كل نقطة البدء في كل تجربة عظيمة ، هي نقطة الاحساس بالفناء ، وتشير التجربة الصوفية إلى ذلك بقولها : « التصوف ، رؤية الكون بعين النقص» والنقص المشار اليه ليس سوى الفناء ، ان القاتل يؤكد بقوة ، ان الحياة البشرية ينقصها أن تكون أبدية . ولا يكف عن الشعور بأنه مخلوق إلهي . أما (جلجميش) فيعرف جيداً أن الآلهة قد اصطفت الخلود لنفسها في بدء الخليقة . وإذ يعلن القاتل هذه المعرفة ، فانه يبدأ سيرته العويصة من أجل اصطفاء الخلود لنفسه . ويسجل القاتل احتجاجه في صيغة إنشائية أحياناً ، وأحياناً أخرى في صيغة وجودية ، ودعنا نتبع القاتل في كلتا الصيغتين .

القتل – كما يبدو هنا – فعل ضد الموت ، وحين يكون هذا الفعل من أجل إضفاء معنى على الحياة البشرية الخاوية التي وصفها (اليوت) بقوله : « أكل وشرب ، زبل وموت » . فان هذا القتل يؤدي إلى غموض في فهم طبيعة الجريمة . قد لا يتمكن القاتل من كشفه ، أو لعله لا يعبأ – ضمن اليأس – بكشفه ، ويستلزم الأمر تحليلا أدق لمعنى الانتحار .

في « اتباع الشيطان » لـ (دستويفسكي) ، يعرف (كريلوف) الانتحار بأنه التجربة التي تقود الإنسان باتجاه الألوهية . ويعني الانتحار لـ (كريلوف) ، الفعل الذي من خلاله يتجاوز المرء حاجز الخوف الذي يفصل بين الانسان وبين كونه إلهاً . يقول كريلوف من يقتل نفسه ليقتل الخوف يصبح في اللحظة ذاتها الهاً . ويعني الخوف ذلك القصور عن امتلاك القوة الذاتية في كل لحظة ، أي الضعف الأساسي في النفس البشرية . وحينما يعي كريلوف أزمة هذا القصور ، – وهو من ناحية أخرى تردد البشر أمام المجهول – فانه يؤكد على الانتحار

(١) البير كامي – الإنسان المتمرد .

(٢) الملمستاني .

باعتباره ضرباً من ممارسة القوة من جانب . وتجاوزاً للقصور من جانب آخر . بل ان قضية القوة – والتي تعني التدخل في حركة الكون والسيطرة على مصير الكائن – هي حجر الزاوية في تفكير كريلوف ، فهو يتحدث عن لحظات الامتياز في حياته ، تلك اللحظات التي تهب المرء سعادة وصفاء ، والتي تكون على جانب من العنف قد لا يتحمله الإنسان .

هذه الخبرة في غبطة الحياة وقوتها هي التي تدفع بكريلوف الى الإنتحار ، الخوف يعيق البشر عن امتلاك القوة ، فاذا تمرد المرء ضد الخوف ، فانه يحقق ذاته . والذي يمنع البشر عن الإنتحار هو العذاب ، أما كريلوف فانه يطمح إلى ان يؤكد ذاته بواسطة الجرأة ، أي بواسطة الإنتحار ، انه سيقذف بنفسه في اعماق الظلمات التي تحد من حريته وألوهيته . وهذه المغامرة ، تؤكد على رؤيا كريلوف للمعنى في قلب العدمية (١) ، وثمة مؤلف آخر غير دستويفسكي وغير البير كامي يشير إلى تلك العلاقة القوية بين الإنتحار وبين الإحساس بالأنا . فهرمان هيس يكتب قائلا « المنتحر لا يحتاج بالضرورة أن يكون على علاقة قوية مع الموت » . وتكشف ملاحظة هيس عن طبيعة حوافز الإنتحار ، بالتقائها الضوء على ذلك التعارض مابين الرؤيا والواقع ، الحلم واليقظة . يقول (فون خوبوت) في حديثه عن رمزية الأحلام « الروح تتكلم في الحلم بلغة مغايرة كل المغايرة للغتنا العادية » وتلك هي أسباب الإنتحار : أن المنتصر لايعود قادراً بعد لحظة الإشراق ، على فهم اللغة العادية ، انه بعد تنوع الحلم لن يقبل بجمود الواقع ، لذلك فهو يغاير بدخول غامض في قلب الأشياء على أمل الخلاص من ثنائية الحياة . انه وبكلمة واحدة يطمح إلى الوحدة ، التي هي وحدة ذاته ايضاً .

وحين يغامر المنتصر بـ (أناه) في الطبيعة كما يقول (هيس) فانه يشير بشكل رمزي إلى فكـرة السكون وفكرة الوحـدة ، باعتبـار ، الإنتحار – كمـا سبق – طموحاً إلى – الكلية – (٢) .

---

(١) من المجدي هنا الأشارة إلى ما يقوله البير كامي :

« إن أولئك الذين ارتكبوا الانتحار كانوا واثقين من معنى الحياة » .

(٢) من المناسب أن نلاحظ فكرة التوحد في فلسفة البانتو الأفريقية القديمة التي تعتبر أن الوجود قوة متدرجة من الطواطم والأسلاف إلى البشر والحيوانات والنبات والجماد ، وهذه القوى تتفاعل ويؤثر بعضها ببعضها الآخر ، وان تباينت قواها ، ثم تندرج جميعها في الله الذي هو الرؤيا الكلية للقوة .

يشعر البشر بشكل غامض ، ان الالوهية « سكونية » وان القدرة ما هي إلا ارتقاء الوعي إلى حالة من عدم التناقض ، أو بشكل آخر ، إلى وضع من الوحدة الشخصية ، حيث لاتعدد ولا صراع . هذه النظرة أكدتها على مدى زمني متفاوت ، وبشكل خاص ، البوذية — كنظام ديني — والفرويدية — كعلم نفس — والسريالية — كمذهب فني — ، كل واحدة منها على طريقتها .(١)

أما البوذية فقد بنت نظامها ضد (الأنا) باعتبار (الأنا) أصل الشقاء الإنساني ، فاذا قتل المرء احساسه بأناه ، فقد نجح في قتل رغباته واطفاء شهواته ، وهذه (الأنا) لاتفعل في نظر (بوذا) سوى أن تعيق تقدم النفس إلى « النيرفانا » التي هي حالة سكونية ، أو بالأحرى حالة الخلاص من الألم . أما النظام ضد (الأنا) فغايته تحرير الوعي من الهوى ، الذي هو أصل الحزن ، للوصول إلى اعمق سكينة في النفس ، حين تقطع العلاقة مع الأشياء ، لأن زوال هذه الأشياء يسبب الألم لمن يتعلق بها ، ولا يمكن تعريف (النيرفانا) تعريفاً دقيقاً وشاملا في الواقع . لكنها قد تكون تمرد (بوذا) ضد ثالوث « (الولادة والشيخوخة والموت) ». وقد تكون (النيرفانا) تلك الصفة الارتدادية في الوعي نحو جوهره الأول .

وتوصل (فرويد) إلى نتيجة مماثلة حين قام بتحليله الشامل الأهمية حول ما أسماه باجبار التكرار (٢) وكشف بذلك عن الصفة الارتدادية للغرائز أو ما يمكن التعبير عنه بالقصور الذاتي وهو رغبة الخلايا في العودة إلى حالها الأول . حال السكون وعدم الإنقسام ، وقد فسر (فرويد) الموت نتيجة لذلك بأنه رغبة كامنة في اعماق الكائن . ومن ناحية أخرى أشار (فرويد) إلى حالة عدم التعارض أو الكلية بتأكيده أنه لايمكن فصل (الأنا) عن (الهو) حيث (الأنا) جزء من (الهو) متلائم مع الخارج ، بينما (الهو) وحشي غير متلائم . غير أنهما سوية يشكلان وحدة العالم الداخلي .

أما (السريالية) فقد أكدت على وجود ما يسميه (اندريه بريتون) « النقطة العليا » وهي الفكرة التي استعارها (بريتون) من السحر والتي إذ يبلغها الوعي يبطل الشعور فيها بالتعارض بين المتناقضات كالحلم والواقع ، العقل والجنون . . . الخ . . والسريالية

---

(١) « التاو » هو أيضاً فكرة السكون ، فقوة « التاو » تعلو فوق كل الأضداد .

(٢) اجبار التكرار ، هو ميل الإنسان إلى تكرار خبراته المؤلمة ، ويتعارض هذا مع مبدأ اللذة — الليبدو — .

تستعيض عن لفظة السكون بلفظة الوحدة ، ففي النقطة العليا ، حيث لاصراع ، تتخلص الشخصية من انفصامها التاريخي ، وتشتتها المزمن ما بين كل ثنائية .

وقد عبر (نجنسكي) (١) عن شعور حاد بهذه الثنائية حين قال : « انني في وقت واحد ، إله وإنسان » ، ثم اشارت السريالية إلى نقطة هامة في حديثها حول بناء الشخصية الإنسانية ، حين أكدت على أن التوصل إلى الوحدة الشخصية ليس استنباط وضع ، بقدر ما هو تذكر وضع سابق ، وعندما طرح (بريتون) أسئلته الأساسية المتعلقة بالشخصية ، أصبح للوعي منذ ذاك صفة ارتدادية .

ويجد المرء ان الإنتحار ، باعتباره ، نوعا من تحقيق السكون بواسطة الموت ، يحمل الصفة الارتدادية ذاتها ، ولايخفى أيضاً جوانبه الميتافيزيقية ، لكونه من جانبه الاستعراضي ، يقبل التأويل بأن يكون ، رفضاً للقانون الكوني ، واحتجاجاً على المصير ، وتمرداً ضد الوضعية الانسانية ، أو ضد مايسميه (بريتون) بدقة « الشرط الانساني » ويعني به الموت !.

ان قضية الخلود ، قضية عويصة ، ولا يمكن للمرء نسيانها ، لأنه ابداً يتنفس ذلك الوعي الملعون للابدية » كما قال « لوتريامون » . لذلك فثمة شعور كلي يشمل الروح ، ويجعل احتياجها للخلود احتياجاً جارفاً ، وتضحي قضية القتل ، قضية الحاجة الى الألوهية ، اكثر مما هي قضية الرغبة في الألوهية ، وتطرح نفسها على الشكل التالي : طالما ان الجنس البشري لم يصبح جنساً الهياً ، فان حياة البشر لامعنى لها ولا ضرورة . انها تظل صورة اليوت : « ظلام . ظلام . ظلام . جميعهم يمضون في الظلام . »

لكن رجلا مثل (لوتريامون) ، يندفع امام ذلك الموقف الى اقصى حد في الاحتجاج ، فيعلن « انا اجهل ماهو الحب ، وماهي الصداقة ، ومن المقدر اني لن اقبل بها ابداً ، على الاقل من الجنس البشري » انه يرفض جنسه الفاني (٢) ويندفع فيعقد صداقة القوة الخالدة مع جنس حيواني يرتع في صحراء من حرية الغرائز ، ويرتسم فيه حس غامض للوحدة الشخصية ، انه جنس ماقبل التاريخ وقد تمثل في السمكة الانثى ، ومن ثم فانه يطمح الى تجاوز الشر والخير الى مافوقهما لكونهما قيما غير خالدة ، واكثر من ذلك ، فانه يتساءل : « ماالخير ! وما الشر ؟ ، هل هما نفس الشيء الذي بواسطته تشهد بغضب على أضعفنا ، أم هما رغبة الوصول

(١) فازلاف نجنسكي — راقص الباليه الروسي الشهير ، توفي عام ١٩٥٠ في مصحة للأمراض العقلية .

(٢) فيما بعد سيقول رامبو : « اني من جنس منحط عن كل أبدية » .

الى اللانهاية » اما بطله (مالدورور) فيتمتع بقتل البشر ، فهو ككل مهدم شمولي ، القتل بالنسبة اليه نوع من الاحساس بالقدرة . ان (لوتريامون) يعبر بدوره عن الصفة الارتدادية؛ غير ان تحذير (التاو) يظل قائماً « من يفرح بقتل البشر لن يجد ابداً مايبحث عنه » .

يعرف القتل ذاته بأنه ضد الرمز . فهو مباشر وهجومي ، ويقدم نفسه متلبساً نفسية التمرد التي هي وضعية توترية تجاه الخلود . وتجد ان قضية الخلق تفترض دائماً الاضطراب . وقد أشار (بريتون) الى ذلك بشكل غامض حين قال : « الجمال اما ان يكون تشنجياً واما ان لايكون » ولم يفت ذلك التجربة الصوفية فقالت باشارة أقوى واشد وقعاً على لسان (الطمستاني) : «التصوف اضطراب فاذا وقع سكون فلا تصوف» ومن جانب آخر نقع على هذا الوصف للشاعر عند (افلاطون) « الشاعر كائن خفيف مجنح ومقدس وهو عاجز عن التأليف مالم تدركه الحماسة وتخرجه عن طوره وتفقده العقل » .

وترى القتل من جانب آخر ، يشن هجومه على بلاغة اللغة الموضوعية غير التشنجية ، لكونها غير قادرة على احتواء الطموح وتصعيده ، ولكونها عاجزة عن الإندماج نحو الحدود القصوى . ان القتل إذ يؤكد على القوة ، تراه يستلهم ابداً اللغة السحرية ، أي لغة الاضطراب ، والتي تؤكد بدورها على القوة ، والتي تحتوي قوة الأشياء وتصون ذخائر الذاكرة ، ويربط القتل نفسه بالسحر ، نظراً لكون السحر عرضاً للقوى الخارقة ، وظلا لقدرة غابرة ، يحسها المرء في لحظات الاستنارة النادرة ، ويشير (لوتريامون) إلى هـذه القوى ، ويعرفها بأنها « الشرارة الألهية التي فينا ، والتي نادراً ما تظهر » ولا يتوانى (بريتون) عن التأكيد على انه — في المعرفة — انما يتعلم جزءاً يسيراً مما نسي (١) ، ونلاحظ أن القتل كفعل يقبل من الرمز فقط ، ما يشير إلى تلك القوةالغابرة ، والمعرفة المنسية ، أما في ما عدا ذلك فانه يستهلك كلّ الصيغ ليعلن عن ذاته مباشرة ، لأن الرموز ليست سوى التعويض الممنوح للقاتل لقاء — القيمة الضائعة — وقبوله بالرموز ، يعني ان جريمته ، قد جردت من محتواها الأساسي . فهو ، كما نعلم ، قد هدف منذ جملة (دي ساد)

(١) يقول افلاطون ان الفكر لا يخترع حقائق بل يتذكرها . .

ويؤكد فرويد أن الحدث الذي مر في الخبرة لا ينسى نسياناً مطلقاً . ومن ناحية أخرى يقول علم النفس « جشتالت » ما معناه : كل عمل يهدف إلى أن ينجز ، فإذا أنجز تلاشى من مجال الأهمية في الوعي ونسي أمره أما حين يصطدم بعائق يؤخر أو يعطل إنجازه فان الميل إلى إنجازه يظل قائماً .

الى الوصول إلى القوة عن طريق القرة، وهو يعلم أيضاً كونه يائساً، لاستعماله فعلايائساً كالقتل، ومع ذلك فانه لا يتوانى عن الاحتجاج على الصيرورة التي سوف تتم ، والتي تدفعه إلى التدخل وتغير المصير بواسطة الجريمة ، ثم يقهقه في وجه القدر وقد شعر للحظة انه قد تحرر ، فالمرء يقتل ، وهذا على مستوى ميتافيزيقي ، لأنه ليس إلهاً ، ومن ثم فالرد على الجريمة الإلهية ، أي موت البشر . انه منهج (دي ساد) كما رآه (كامي) .

فاذا قام النظام الإجتماعي بمهاجمة القاتل ، ومعرفاً القتل بأنه عملية لا معقولية – وهي الصفة التي تهاجم من خلالها الرواية السوداء – فان القاتل سوف يرد التهمة بذكاء ، معرفاً الوضع على الشكل التالي :

– ان المجتمع ، حرصاً على ذاته ، يصوغ قانوناً يتضمن القتل باعتباره رادعاً ولكونه عقوبة ، وهذا القانون ليس إلا اقراراً ضمنياً بمعقولية القتل ، فالقتل يضحي هنا ، محافظة على النظام ، وقد صيغ بأشد الألفاظ منطقية ، ثم يتساءل القاتل : كيف يمكن وضع القتل في حالتين من التعاكس ، المعقول واللامعقول ، بهذا الشكل . وكيف يمكن للقتل ان يكون معقولا ومنطقياً اذا أقرته مصلحة النظام ، وغير معقول إذا اقتضاه الهوى . ويتراجع النظام أمام هذا الإعتراض القوي ، ويسلم مقاليد أموره إلى المحقق ليتولى مهمة الدفاع عن مصالحه فيما بعد .

ومع ذلك فان القاتل لن يعير أهمية كبرى لقضية اضفاء صفة المعقولية على هواه ، انه يندفع إلى ما هو أبعد من المحقق فيتبنى الرواية السوداء ، باعتبارها تحتوي أحلامه وهواجسه وهو إذ يفعل ذلك فبدافع من رد الفعل ، ضد آلية المحقق وجموده .

محدودية القتل

لايمتد القتل ، باعتباره وسيلة مباشرة ، إلى أبعد من حده الطبيعي .

أي انه يعجز دائماً عن تجاوزه ضحيته ، إلى خلقها من جديد . ولا يغيب هذا الاخفاق عن ذهن القاتل ، فهو يعي بشكل صارم تلك العقبة العويصة . ويدرك تماماً انه لايحقق من جريمته سوى متعة الإحساس بالقوة والحرية للحظات معدودة كما يحدث في لحظات الإشراق . وبأس القاتل هذا ، هو ذاته بأس (راما كريشنا)) أمام تمثال الأم المقدسة .

مع ذلك ، تجد القاتل مستمراً ، عبر الزمان ، في ارتكاب القتل. ويعقّد استمراره فهم الجريمة. انه يشبه رجلا يصمّد يأسه في طريق لا مجدية . لكن التوسع في الاستعراض قد يلقي ضوءاً على بعض الجوانب المظلمة .

تستند الجريمة ، عند (دستويفسكي) ، إلى تأمل فكري عميق ، ذلك ان المرء يبدأ فيدخل في التأملات ما يسميه (دستويفسكي) « عنصره الخيالي القاتل » صائغاً اياها من جديد ، صياغة تجعلها تبني علاقة فوق العادية بين القاتل وبين الضحية (١) ، صانعاً بذلك استقطاباً تاريخياً ، ممارساً طقساً من الطقوس السحرية . أي ان القتل يغدو كالسحر ، عرضاً لقوة العلاقات الخارقة وتأملا في جوهرها . محاولا بذلك ، صنع ذريعة فكرية تقيه من الإحساس بالخذلان ، الذريعة هذه هي محاولة تقديم الجريمة باعتبارها لحظة استنارة . غير ان الجريمة ما ان تم حتى تحبط بطبيعة تكوينها ، كافة محاولات القاتل . لأن قوة السحر يمكن ان تصعد إلى مالانهاية من حيث انه قابل للتأويل ، أما تأويل الجريمة فغير مجد ، انها ابداً تصطدم بضحيـــة .

ان عجز القاتل عن تجاوز ضحيته ، هو عجزه عن قهر الموت بواسطة الموت . وماكان صمت الأشياء من قبل ، اضحى الآن صمت الضحية ، فالجريمة ابداً محدودة بذاتها .

ويكتشف القاتل تباعاً ، ان القتل لم يغير الوضعية ، بل اسهم إلى حد ما في تنفيذ العدالة غير المنطقية . انه ويا للغرابة ، يجد نفسه يلعب به بعبث لايطاق . ومن جانب آخر يتصاعد فيه هاجسه السابق عن امتياز البشر . فلايكف عن رؤيا الإنسان كما رآه (هيس) « ليس حيواناً نصف عاقل ، بل ابن للآلهة مخصص للخلود » وهذا المخصص للخلود يعي في لحظات نادرة قوته الضائعة فيهتف بوحشية مطلقة مردداً صرخة (رامبو) « معي وحدي مفتاح هذه الجنة المتوحشة » ويدفعه هذا الإحساس إلى الرفض ، « اجلست الجمال يوماً على ركبتي ووجدته مراً ولعنته » وتراه منسجماً مع ذاته « وجدت فوضى روحي شيئاً مقدساً » فهو اذا كان يقف ضد الحياة فلأنها لا تطابق نماذج الرؤيا . « روائع غير منظورة ومسرات تتجاوز حدود الحس » .

ومع ذلك فقضية الخلود ليست واحدة بالنسبة إلى الجميع . فالأبدية لاتشكل لرجل « كبرناردشو » سوى الضجر ، والناس عنده يموتون من المعقولية ، وهو يستطيع بذلك الرد على كافة القتلة .

(١) مذكرات من أعماق الأرض – دستويفسكي – .

ومن ناحية أخرى ، يرى المرء أن الراهب في العقيدة الجينيه « GAiNSiM » يكرس وجوده كله لتحقيق انتحار مثالي ، منظم ، ومدروس، ليصل بذلك إلى (النجاة) التي هي بمثابة « النيرفانا عند البوذيين » . وتشكل هذه الاستهانة بالموت احساساً بالحرية العميقة لدى (الجيني) .

وكل نظام ، انما يبني نفسه ليتوصل إلى السيطرة على الإرادة . كنظام « اليوجا » مثلا . وقد قام رجل بمفرده هو (نجنسكي) ببناء نظامه الخاص به عن طريق الرقص . وكأنما كان الرقص بالنسبة لـ (نجنسكي) نظاماً روحياً ترتقي فيه طاقاته الداخلية على طريق الكفاح الذاتي للوصول إلى السيطرة على الجسد ، حيث كان (نجنسكي) يشعر بصورة مستمرة بأنه الله في جسد . ولربما أمده الرقص بحالات من الحرية الداخلية كتلك التي يعيشها الشعراء والمتصوفـــة .

ولعل الرقص كان يعني لـ (نجنسكي) ما تعنيه الرياضيات الروحية لأي ناسك هندوسي .

الانشاء والجريمة

في نصوص الإنشاء الخلاق يكتشف المرء روح الجريمة .

جاء في بيان الحركة المستقبلية « ان العمل الفني ليس سوى رمز لقدرة هائلة على العدوان » ولا حظ (رامبو) ان « هناك تدمير ضروري » وبالبصيرة ذاتها كتب (دي‌ساد) يقول « كل جريمة لم تحقق في الواقع ، قد كتبت » .

تلك هي آفاق الصياغة الخلاقة ، انها رؤيا الجريمة في وحدة الاسلوب العضوية . فالهدم ليس سوى ذلك التقدم الروحي في اعماق النماذج المجهولة . كتب (رامبو) « ابتكار المجهول يقتضي صيغاً جديدة » وقال (كروتشة) « الشاعر أو المصور الذي لا يملك الاسلوب ، لا يملك شيئاً ، لأنه لا يملك ذاته » .

اذن ضمن الاسلوب ، ضمن قوة العبارة ، تضحي الجريمة رؤيا ذاتية للشكل غير المرئي بعد . وفي الإنشاء الخلاق تغدو خطة الهدم خطة البناء ، ويصير الأفول انبثاقاً .

وببساطة يستطيع المرء ملاحظة ذلك في نماذج من الإنشاء الخلاقة :

كتب (رامبو) « يبست نفسي في هواء الجريمة » ونادى « ايها السحر ، ايها البؤس ، ايتها الكراهية ، لك وحدك ابحث كنزي » واعترف ببرودة « ليس لي حس اخلاقي ، لا أفهم القوانين » وبعد ذلك قدم أوراق كراسه المنتمي للهلاك إلى ابليسه العزيز .

(مالدورور) بطل « لوتريامون » ألقى نفسه في مهنة الشر بالقدام ، ثم عقد اتفاقاً مع العهر لكي يزرع الفوضى في العائلات . وكان من ابسط الأفعال السريالية بالنسبة إلى « بريتون» « النزول إلى الشارع بمسدس واطلاق النار كيفما اتفق على الجماهير » .

شيطان جوته يعلن « انا الروح التي تنفي » وفاوست يقول : « لم يبق لي إلا أن ارتمي في احضان السحر » . نوفاليس يرى « ان منظر الطبيعة تحتضر ببطء يكاد يكون امتع واغنى من منظرها تستيقظ وتزدهر اما « لورد بيرون» فيتمنى « لو استطيع أن الغي كلياً الجنس البشري » ثم يضيف بقوة « لم أعد أشعر بحب في نفسي نحو شيء من الأرض » .

وفي رواية (ارتسيباشيف) يلخص « سانين » خبراته في كلمتين :

« ما أحمق البشر »

وبالنسبة إلى همنواي فالناس يموتون عنده كالسوائم .

أما (دستويفسكي) فيختم نشيد هذه الجوقة بقوله على لسان « ستافروغين » (ذي الاستعداد العجيب للجريمة) :

أكره جميع ما على الأرض وأكره في الدرجة الأولى نفسي ، إذن . . .

فليعم الخراب !!...

° ° °

وثمة أوقات تأتي ، يشعر المرء خلالها بأن الأمور تحاصره وتدفع به إلى تعقيدات تتصف بالغموض واللامبالاة . ويرى نفسه محاطاً ببرودة القوانين والعالم والأشخاص . فيبدأ في بذل الجهود المخلصة لانقاذ ذاته من جانب ، ولإدراك طبيعة التعقيدات من جانب آخر . ويستنفد في محاولاته كافة الوسائل ، كما يحدث في روايات (كافكا) ومن المحتمل في بعض الأحيان أن تزداد كثافة التعقيدات لدرجة انها تسلب انسانية الكائن ، كما حدث مع (سامسا)

في رواية « التحول » لـ (كافكا) . غير أن المحاولات كلها تبوء بالفشل . وقد يحدث فيموت المرء « مثل كلب » ، بعد أن تكون القضايا قد ارتفعت – خلال الصفحات – إلى المستوى الميتـــافيزيقي .

بعد ذلك ، تأخذ الأمور صفة الإدراك الشديد . وشدة الإدراك ، مرض ، كما يقول (دستويفسكي) . فاذا رفض المرء ، نتيجة لشدةالإدراك ، أن تجري عليه الصيرورة كما على الآخرين (١) فان هذا الرفض يقوده إلى المعاداة والى التطرف . وهذا الوضع قد قاد (مالدورور) إلى معاداة الجنس البشري .

ومن ثم يجد المرء ذاته ، خارجاً على العرف ، متنكراً للقيم . ويجد نفسه مسوقاً على طريق الوحدة ، ليضحى ذئباً . في تقريره للتمرد ، يلغي اتفاقاً تاريخياً عفوياً ، عقده كفرد مع الجماعة ، يتضمن الانتماء مقابل تنازله عن حرية أهوائه . لأن الانتماء الاجتماعي على كافة أشكاله ، يمنح الذئب ، نوعاً من الاطمئنان ويخفف من حدة شعوره بالوحدة ، وهذا بالتالي يخفف من سوداويته . لكن المتمرد يتذكر دائماً أنه « مخلوق مخصص للخلود » . وعادة يكون المتمرد شديد الحساسية تجاه قضية الخلود ، وعندما لا تتيح له قدراته الداخلية فرصة إفراغ يأسه في صيغ إنشائية عالية التوتر ، فانه يقدم على قتل نفسه أو على قتل كائن آخر ، كما حدث مع (جاك فاشيه) .

فالرفض الذي يتبناه المرء ضد سريان القوانين عليه ، يعود إذن إلى شعوره في بعض الأحيان بفيض من القوة والحرية الداخلية كما حدث مع (راما كريشنا) بعد محاولته قتل نفسه . هذا الرفض يمثل أيضاً جوهر احتجاج (كير كجارد) على (هيجل) أي تأكيد الحقيقة الذاتية الفردية .

وقد يحدث أحياناً نوع من التبادل كأن يضيق المرء ذرعاً بالقوانين الوجودية فيتمرد ضد القوانين الاجتماعية ، كونها تلوح له نموذجاً عن سفالتها .

إن نفسية القاتل ، نفسية ذات مستوى توتري . وتدل تأملاته على الذكاء الحاد . غير أنه ليس بمنجى من الإحساس بالضيق ، نتيجة لشعوره بأن الحرية البرجوازية المعطاة له ليست سوى ظل شاحب لحرية أخرى ترتع في أعماقه أحياناً . وتلوح مثل « نار في الرأس » كما قال

(١) يقول البيركامي : في كل إنسان غريزة عميقة ليست هي غريزة الهدم ولا هي غريزة البناء ، لكنها الرغبة في ألا يشبه شيئاً أبداً .

(نجنسكي) ومن ثم فني سبيل اصطفاء هذه الحرية إلى الأبد ، لا يتورع القاتل عن الجريمة . وتجد أن الجريمة والعقاب لـ (دستويفسكي) ، تعالج موضوعاً مشابهاً .

ويبدأ (راسكولنكوف) بطل الرواية ، بأن يوجه إلى نفسه السؤال الأكثر أهمية من غيره : « أتحسب نفسك من الآلهة » ؟ . ثم يتساءل فيما إذا كان عليه أن يقتنع بالواقع ، خانقاً بذلك كل شعور بالتمرد ، وفيما إذا كان عليه أن يتخلى عن حقه في الحياة والحب ، أو أن ينتحر . وتقوده تأملاته إلى فكرة ملهمة : « على الإنسان ، حين لا يجد من يذهب اليه ، أن يكون قادراً على اتخاذ اتجاه معين » وهذا الاتجاه المعين ، بالنسبة إلى (راسكولنكوف) لن يكون سوى الجريمة ، مع ذلك فانه لا يعتبر قتل المرابية العجوز ، جريمة . انه بمثابة انقاذ حياة الألوف من الدمار . ثم يلوح أن (راسكولنكوف) تسيطر عليه فكرة الجريمة المثالية التي تقود المرء الى القوة . أي إلى التأكيد الذاتي ، فهو ذئب متوحد أيضاً (وكان يتحاشى – عادة – أن يخالط الناس) وهو عندما أقدم على قتل العجوز لم يستهدفها هي ككائن ، بقدر ما استهدف الوجود الذي يحقد عليه والذي تجسده له تلك المرابية . وبقتلها إنما حاول إزاحة وضع ، واستبداله بوضع جديد . إنه يهدف إلى تحرير الآخرين من ربقة العجوز . ويلاحظ أن (راسكولنكوف) يطرح الجريمة كبديل للثورة . غير أنه كما يحدث دائماً ، لا تؤدي الجريمة الغاية المرجوة منها . (فراسكولنكوف) يضطر إلى قتل الأخت البريئة لضحيته وهكذا تنهار دفعة واحدة ، مثالية جريمته . وها هو ذا قد أضحى الآن كغيره من القتلة .

فاذا ابتدأ في شرح دوافعه ، فانه يستمر في التأكيد على قضية الشعور بالقوة (١) . فهو يقول لـ (سونيا) : « لقد كنت أريد أن أصبح نابوليونا ، ولهذا الأمر قتلت » وأن (عملا كهذا لا تنقصه العظمة) ثم يضيف أن هدفه من القتل كان الجرأة على صنع مالا يصنع ، إنه كان ينتظر من جريمته أن تحقق له – تأكيداً ذاتياً – فهو قد « قتل من أجل نفسه ونفسه فقط » وأيضاً فلأنه « يبغي معرفة فيما إذا كان قملة كبقية الناس أم انه كائن إنساني ، وهل هو قادر على اختراق الجدار أم لا . وهل له – أخيراً – الحق في القتل ؟ .

والسؤال الأخير ذو أهمية فائقة ، ويكاد يكون محور القضية . ولو طرح هذا السؤال على رجل كـ (دي ساد) لأجاب بـ – نعم – .

(١) يقول نيتشه : « الخير هو كل ما يزيد شعور الإنسان بالقوة » وعلى هذا يضحي القتل خيراً .

أما بالنسبة إلى (راسكولنكوف) فالقضية أكثر تعقيداً . فهناك أولا ذلك الإحساس في أعماقه بأن ثمة قوى أخرى دفعته إلى القتل (الشيطان قد قتل العجوز وليس أنا) ومن ثم فهو قد قتل لكي يضحي (نابوليوناً) وأيضاً فلكي ينقذ حياة الألوف من الدمار . وتراه ينهار أخيراً تحت ضغط التمزقات النفسية ، مدركاً أن القتل لم يعفه من كونه قلة كالآخرين. فيجثو أمام « سونيا » – وهي عاهرة – وحين تستغرب فعلته يخبرها أنه إنما يركع أمام آلام البشرية مجسدة فيها . وعلى هذا الشكل يصعد (راسكولنكوف) القتل إلى مستوى الثورة . غير أن المعضلة واحدة سواء في الثورة أو في الجريمة . إنها لا تحلان مشكلة الموت ، بل تكتفيان بتعميقها .

أما الفشل في اجتياز الحدود ، فهو مضن .

وقد كتب (دستويفسكي) عن (راسكولنكوف) يقول :

« إن ضميره لم يكن يؤنبه أو يجعله يشعر بأنه ارتكب خطيئة مميتة . كان يفزعه فقط أن (مشروعه) قد أخفق ، وأنه حين اعترف بالجريمة كان تافهاً جباناً لم يقو على مقاومة سخافات الناس الذين يقفون في منتصف الطريق عاجزين عن إكمال الشوط إلى النهاية » .

وتتضمن أحلامه الإحساس ذاته : « حيث حلم بأن العالم محكوم عليه باحتمال كارثة لم يسبق لها مثيل » .

إن الهاجس الوحيد الذي يعذب (راسكولنكوف) هو هاجس الفشل .

فاذا انتهى المرء من استعراض وجهة نظر القاتل ، عليه أن يميل إلى الجانب الآخر ، ليستعرض وجهة النظر الأخرى . أي وجهة نظر المحقق .

المحقق

ويميل المحقق إلى كون الجريمة موضوعية ، أي ذات أسباب معقولة يؤخذ بها . ويمقته أن تكون الجريمة ذات هوى . لكن الجريمة ترفض الموضوعية ، وتصرح بأنها تريد نفسها حرة ، لأنه يلعب بها أيضاً . وهي سوف ترد على العبث بعبث مماثل . وبالتالي فهي تعتبر نفسها شمولية ، لأنها تتم على صعيد وجودي وذاتي ، حيث أن صفاتها لا تحدد . وتزيد الجريمة فتطالب المحققين – بسعة الصدر – من أجل تفهم قضايا عويصة مثل ، اليأس ، والمحدودية ، والخلود ، والحرية . . . الخ .

غير أن المحققين الذين خذلوا (ميرسول) (١) ولم يأخذوا بعين الاعتبار كون الشمس جانباً في الجريمة ، سيخذلون أيضاً كافة اخوته . ولهم بالطبع أسبابهم الوجيهة . فالبلاغة الرسمية تحول بين المحقق وبين التفهم العادل لمأساة القاتل : ومن ثم فأي شيء يمكن أن تعنيه الشمس بالنسبة للمحقق . وترد الجريمة على ذلك بأنها تحدث من أجل عدم القبول بوضع مهين ، وتطالب بفهمها على مستوى الثورة . غير أن المحققين يخذلونها ، ويصدرون الحكم لغير صالحها .

وتقدم الجريمة دفاعها ، مثبتة أن قلب القاتل قلب يحب ، ألم يكتب الفوضوي الشاب (سانتي) إلى أمه قائلا : « لقد قتلت بنفس القلب الذي أحببتك به يا أمي ، قتلت لأنني لم أجد في العالم أي أمل » .

ولكن ومن جديد ، لن يأخذ المحقق بهذا التبرير كذريعة ، إنه على العكس من ذلك ، سوف يضيف في بلاغته الرسمية . . . لا يكتفي القاتل بالقتل بل يتمادى إلى أبعد من ذلك .. الخ . بينما نجد القاتل يؤكد دائماً ، أن القتل حل ، حين تأخذ الأزمة بخناق المرء . ولقد قال أحد أشخاص (دستويفسكي) « لكي نحل قضية الفقر ، علينا أن نقتل جميع الفقراء » .

وفي مثل هذه الجملة يتمثل اليأس البشري في أبعد حدوده . ويلوح الحب البشري في صورته العدمية . وعند هذا المستوى يبرز الدافع الأساسي للجريمة . فقد حدث القتل لأن اليأس الذي تحمله القاتل ، كان أكثر مما يمكن احتماله .

ويتمتع القاتل بصفات عالية . فهو ذو قدرة على التنبؤ ، تمنحه إياها ، شفافيته الداخلية . وقد كان الأمير (ميشكين) بطل « الأبله » لـ (دستويفسكي) يبدو بريئاً ، ساذجاً . غير انه يحدس منذ البدء كافة الحوادث . فتراه يرتعش لمرأى السكين التي يحملها (رغوزين) وكأنه يرى بعين الغيب مقتل (آنا ستازيا) .

أما يأس القاتل فيجب أخذه بعين الاعتبار ، انه بالضرورة يأس البشر المخصصين للخلود . والجريمة تبقى أبداً احدى إشكالات الخيال . فعندما يتجاوز المرء ذاته في الأسلوب بقوة الخيال ، فانه يكتشف أكثر سر اللغة باعتبارها القوة الخالقة . وما سر الارتقاء سوى ما قد يكون كامناً في قوة الأسلوب لذلك تجد اللغة لا تنفصل عن السحر حيث يشكلان أبداً في الأسلوب ، قوة الكلام ، بواسطة هذه القوة يمكن استعادة القوة المجهولة .

---

(١) الغريب — البيركامي .

أما الجريمة فقد أثبتت ، عدم قدرتها .

والقاتل قد يكون عصبياً . ذلك أنه يصطدم أبداً بالعقلية التحليلية لدى المحقق ، والتي تعتمد التدرج المنطقي لبناء الحدث . وبواسطة المنطق ذاته تنصب الفخ لتحقيق العدالة . أما جرائم المحقق فانها تظل فوق الشبهات .

وأكثر من ذلك فلربما سرد المحقق على القاتل ، تاريخاً لا يعرفه القاتل أو لعله غير آبه له كـ (ميرسول) – مثلا – فينفيه أو يؤكده بشيء من عدم المبالاة . ويجد نفسه بعيداً عن الأشياء .

عندئذ يعتقد المحقق أنه امتلك الأدلة . وفي اللحظة ذاتها يحس القاتل أن جريمته لم تكن عبثاً ، وانه من الواجب أن يقتل ثانية . ثم يشعر بالخوار ، لأن المحقق سيكون قد نفذ بشكل علني ، جريمته المنطقية التي تعتمد المبدأ وتستند إلى عقيدة .

الانسان في الغد

پيير لاپين ترجمة: حافظ الجمالي

من الصعب على العربي أن يفكر لحظة واحدة أن مشكلة الصهيونية ليست أكبر مشاكله . وعندما يتعمق في التفكير ، يبدو له أنها قد تكون من أولى مشاكل القرن العشرين . ألم تكد أن تؤدي خلال حرب تشرين إلى حرب عالمية ؟ ألم توضع القوى النووية في حالة التأهب ؟ ألم يشعر العالم كله بالارتياح من جراء ذلك ؟ أولا تضمر هذه الصهيونية في ذاتها كل صور الصراع العالمي ، وما ينشأ عنها من كوارث قد تقضي على الإنسانية؟

ولعل من الصعب كذلك ألا يفكر الفيتنامي بأن مشكلة فيتنام ، ليست من كبريات المشاكل ، وأنها تنطوي ، في ذاتها ، على كل المخاطر. ومثل ذلك يمكن أن يقال عن تفكير أحرار الشيلي بعد انقلاب ١١ أيلول عام ١٩٧٣ ، أو عن تفكير شان كاي شك بالنسبة إلى فورموزا ، أو عن تفكير أحرار إسبانيا فيما يتصل بخلافة فرانكو .

ومع ذلك ، فإن هذه المشاكل على ضخامتها الذاتية أو الموضوعيـــة لا تنسينا أن هنالك ما هو أكبر منها ؛ فازدياد سكان العالم ، زيادة هائلة ، وسكناهم في المدن الضخمة ، وأزمة الطاقة ، ومخاطر الطاقة النووية ، والبون الشاسع بين تزايد الناس على الأرض ، وبين تزايد المواد الغذائية ، كل ذلك يبدو وكأنه ليس مشكلة هذا الشعب أو ذاك ، ولكنه مشكلة الحضارة كلها ، أو مشكلة الإنسان نفسه في هذا العصر .

لكن هذه المشكلة رهيبة الإبعاد . إنها تهدد الوجود الإنساني كله : ولئن كان ليفي برول يفرق ما بين عقلية البدائيين اللامنطقية ، وعقلية شعوب أوروبا المتقدمة المعتمدة على المنطق ، فيقيننا أن عقليتنا المنطقية هذه لا تزال تبدو بدائية جداً ، إذا نحن قابلناها بصورة التفكير التي تستطيع حل مشكلة الإنسان المعاصر .

وبياناً لهذه المشكلة ، ورسماً لأبعادها المختلفة ، وإيضاحاً لمختلف وجوهها ، نقدم هذا المقال لكاتبه السيد بيير لابين PIERRE LAPINE الذي نشر في العدد الخاص بعام ١٩٧٤ من الأنسيكلوبيديا أونيفرساليس ENCYCLOPELDIA UNIVERSALIS

٭ ٭ ٭

إن المحرك الأول للإنسان ، منذ وجد الإنسان ، هو محاولته المستمرة أو سعيه المستمر في أن يعيش بصورة أفضل : أي أن يؤمن لنفسه الغذاء ، ويضمن لها البقاء في محيط معاد ، بحكم العوامل الطبيعية أو بحكم الصراع على البقاء ، ذلك الصراع الذي يضمن انتصار الكائن الأكثر قدرة على التلاؤم، على ما يقول داروين . وهكذا نشأت بالتدريج كل الحضارات، بالإعتماد على تكنولوجية ماتني تزداد اكتمالاً ونجعاً . وكان هدفها جميعاً أن تستمد من الأرض أو من البحيرات والبحار ، مصادر التغذية الضرورية ، وتنمية ثرواتها والدفاع عن ذلك القسم من الأرض العائد لها ، وتوسيع حدوده بقدر الإمكان . ولم تتغير هذه البواعث ، منذ العصر الحجري ، حتى كبريات الحروب العالمية الحديثة . ولكن المعطيات الأساسية لمشكلة الإنسان قد تغيرت اليوم تغيراً عميقاً بسبب التطور المتسارع الذي يطرأ على الكرة الأرضية . إذ لقد تغيرت شروط حياة الإنسان خلال السنين المئة الأخيرة ، أكثر مما تطورت خلال آلاف السنين التي سبقتها . وكان هذا التطور العظيم نتيجة مباشرة لمكتسبات الإنسان خلال هذا القرن ، وهي مكتسبات كبرى ، أهمها ضمان الصحة ، والاستيلاء على مصادر الطاقة .

أما ضمان الصحة فقد كان من آثاره تزايد عدد سكان الأرض . وأما التحكم في الطاقة ، فإن من نتائجه المباشرة تزايد إنتاج الخيرات المادية ، واستثمار الثروات الطبيعية ، وتغير الشروط الجغرافية . ولكن الأمرين معاً يجدان تعبيرهما السياسي في إرادة التفوق : لدى هذا الشعب أو ذاك .

ولكن يحق لنا التساؤل : كم سيتأثر الإنسان بهذا كله ، منذ الآن ، وحتى المئتي سنة القادمة ، أي خلال مستقبل قريب ؟

تزايد السكان :

وعلى الرغم من تحسن الشروط الصحية خلال العصور ، فإن سكان المعمورة لم يتزايدوا إلا ببطء حتى أوائل هذا القرن . ذلك أن النسبة المرتفعة للوفيات (فحتى عام ١٨٢٠ لم يكن يبلغ عمر الخامسة من بين عشرة مواليد ، إلا ستة فقط) ، وهجمات الأوبئة الكاسحة ، والتغذية الضعيفة التي كانت تزداد خطورة من حين لآخر بالمجاعات ، كل ذلك مما كان يضعف من آثار نسبة المواليد المرتفعة ، وينقص من العمر المتوسط للشعب ، ويحد من تزايده . ولنشر إلى أن فرنسا في عهد نابليون الأول ، كانت أكثر شعوب أوروبا سكاناً ، على الرغم من أن هؤلاء لم يكونوا أكثر من ٢١ مليوناً .

وفي القرن التاسع عشر ، استطاع الأوروبيون ، بالاعتماد على الفكر الفلسفي الموروث عن القرن الثامن عشر ، الإنتهاء من الجدل التقليدي الذي كان ، منذ القرون الوسطى ، يشل حركة الطب ، ودراسة الفيزيولوجيا أي دراسة وظائف الأعضاء ، بعقل جديد ، ودراسة الأمراض التي تعتري هذه الوظائف . وأدى اكتشاف الأسباب إلى البحث عن العلاج والأدوية ؛ وجاءت مكتشفات باستور حول الجراثيم ، فأدت إلى مكافحة الأمراض التعفنية ، وحالت دون العدوى بالاعتماد على وسائل الوقاية والتطعيم ، كما أدت باستعمال المطهرات ، إلى نمو الجراحة نمواً كبيراً ، وغيرت أساليب مداواة أمراض كانت تعتبر مستعصية . وبذلك كله زاد سكان المعمورة بسرعة كبيرة ، بتأثير زيادة المواليد ، وتضاؤل نسبة الوفيات بين الأطفال : وهكذا قفز هؤلاء من مليار إلى ثلاثة مليارات ونصف (عام ٧٣) .

ويمكن القول ، بصورة عامة ، ان البلاد النامية تحتفظ بأكبر نسبة للمواليد ، وتتضاءل فيها نسبة وفيات الأطفال ، على الرغم من أن هذه أكبر مثيلتها في البلاد المتقدمة التي نزلت بها إلى أصغر حد ممكن ، ولو أنها ، من ناحية أخرى ، تعرف أصغر نسبة للمواليد . وينشأ عن هذين العاملين أن نمو السكان في الشعوب النامية أسرع بأربع مرات أو خمس ، منها في الشعوب المتقدمة ، التي يظل عدد سكانها تقريباً في حالة ركود .

وأصغر نسبة نمو السكان في أوروبا ، نجدها في ألمانيا الغربية : إذ هي ١٫٣ ٪ . أما في فرنسا فإن هذه النسبة تبلغ ٦٫١ ٪ مما يجعل هذه الدولة في المرتبة الثانية بين البلاد الأوروبية. ولكن حتى لو كانت هذه النسبة ٥٪ ، لتضاعف سكان فرنسا ١٢ مرة خلال ٥٠٠ سنة و ١٤٨ مرة خلال ألف عام .

أما على المستوى العالمي ، فإن الصورة مختلفة تماماً : ذلك أن تزايد السكان ، نتيجة لتضاؤل الوفيات ، يتم بنسبة أسية ، أي كما يزيد مال وضع في المصرف بفائدة مركبة قدرها ٥٪ ، إذ يتضاعف خلال ١٤ عاماً . ولما كانت نسبة تزايد السكان في الأرض كلها هي ٢٪ ، فإن هؤلاء ينبغي أن يتضاعفوا في غضون خمس وثلاثين سنة . وهذا يعني أنهم سيصبحون ٧ مليارات آخر هذا القرن ، وسيكونون ١٤ ملياراً عام ٢٠٤٣ .

ومن الواضح أنه لايمكن الاستمرار في معدل هذا التزايد ، وأن عليه ، في لحظة أو أخرى ، أن ينعطف ليبلغ نوعاً من الركود ، تأميناً للتوازن بين عدد السكان وبين موارد الغذاء المتاحة لهم . والواقع أن الاحتفاظ بنسبة النمو الحاضرة ، سيجعل سكان البرازيل ،

خلال قرن واحد ، ثلاثة مليارات ونصف المليار »(أي ما يعادل سكان الأرض ، اليوم ، قاطبة) ، ومن سكان المغرب ملياراً ونصف المليار ، وسكان الهند ٢٥ ملياراً . ولكن مهما تزد الموارد الغذائية في هذه البلاد ، فإن التوزن بينها وبين عدد سكانها سيصبح مستحيلا .

ولكن التباطؤ ثم التوقف ثم التوقف في نمو السكان ، وهو أمر لا مفر منه على المدى البعيد ، ليس بالأمر القريب منا الآن . وأكثر من ذلك أنه يتم بفروق كبيرة تبعاً للقارات. ذلك أن كل التنبؤات المتصلة بزيادة السكان في البلاد ذات النمو السكاني البطيء كانت غير مطابقة للواقع ، وكانت دونه بكثير . وهكذا فقد اشارت الإحصاءات عام ١٩٣٨ إلى أن الولايات المتحدة لن تبلغ ال ١٥٤ مليوناً إلا حول عام ١٩٨٠ . وفي عام ١٩٤٧ ، قدم هذا الموعد إلى عام ١٩٧٠ : ولكن رقم المئتي مليون كان قد أصبح حقيقة واقعة عام ١٩٦٩ : والأمر كذلك في بريطانيا التي كانوا يتنبؤون لها بعدد ال ٥٥ مليوناً في عام ١٩٩٨ ولكنها كانت قد تجاوزت هذا الرقم قبل خمس وعشرين سنة من هذا الموعد . ولنتنبه الآن إلى أن كل الأفراد الذين سيبلغون في آخر هذا القرن عمر السابعة والعشرين أو أكثر ، قد ولدوا الآن (عام ٧٣) . وعلى ذلك فإن سكان الأرض سيكونون ٧ مليارات في العام ٢٠٠٠ وسيكون ٥٨ ٪ منهم في عمر دون العشرين .

ومن العبث الاعتقاد ، فان مستوى الحياة سيبلغ خلال خمسين سنة ، لدى كل الناس ، مالا يبلغه اليوم إلا خمس سكان الأرض ممن نلاحظ لديهم أقل نسب المواليد المعروفة .

وبالمقابل ، فإن زيادة نسبة البنات اللواتي سيبلغن سن النضج بنسبة تزيد على ٣٦ ٪ ، مما يقتضي إضعاف عدد المواليد بنسبة ٤٠ ٪ ، حتى لايصبح نسلهن ٧ مليارات في العام ٢٠٠٠ وهكذا فإن مجرد تزايد عدد النساء البالغات في اليابان الحريصة أكبر الحرص على الحد من مواليدها ، جعل هذا البلد يحتفظ بنسبة تزايد قدرها ١,١ ٪ . وينطبق هذا على سكان المعمورة قاطبة ، ولكن هؤلاء موزعون بشكل غير متعادل ، كما أن نسبة تزايدهم ، تختلف اختلافاً كبيراً من منطقة لأخرى ، أما متوسطها العام فهو ١,٨٨٪ كحد أدنى و ٢,٨٥ كحد أعلى في أمريكا اللاتينية ، على حين أن الحد الأدنى في أوروبا هو ٠,٨٠ .

ولا بد لهذا الفارق من أن يكبر ؛ ذلك أن علينا أن نأخذ بعين الإعتبار ثلاثة نماذج من الشعوب : تلك التي تملك أكبر عدد من السكان (كالصين والهند والسوفييت ، والولايات المتحدة) وهذه التي تشمل العالم الثالث (كالبرازيل والمكسيك وغواتيمالا ، والمغرب ،

والفيلبين) وهي تملك أكبر نسب التزايد السكاني . وأخيراً جملة البلاد التي تملك عدداً متوسطاً من السكان يتزايدون بنسب ضئيلة (كفرنسا وبريطانيا ، واليابان ، وألمانيا) .

ولقد عرضت فرضيات مختلفة حول هذه المجموعات الثلاث ، تبعاً لموعد حدوث بعض الانخفاض في نسب المواليد لديها ، وأهمية هذا الإنخفاض . ولكن مهما تكن الفرضية المقبولة ، فإنها جميعاً تشير إلى تضاؤل متزايد للوزن الديموغرافي للبلاد القليلة المواليد ، وتعاظم متزايد لوزن البلاد الكثيرة المواليد ، وإلى نمو الفرق الذي لابد أن يكبر ، ما بين البلاد التي تشتمل على أضخم الكتل البشرية حالياً ، بسبب تطورها الديموغرافي المتباين . إن الولايات المتحدة ترغب في عدم زيادة سكانها على ٢٥٠ مليوناً عام ٢٠٠٨ . ولكن الصين تفكر بمضاعفة الـ ٧٥٠ مليوناً ، بكل هدوء واطمئنان .

ولو أن الشعوب التي سيزيد وزنها الديموغرافي في المستقبل ، فضلا عن ضخامة عدد سكانها حالياً (كالصين ، وأندونيسيا ، والبرازيل ، مثلا) تستطيع في الوقت نفسه أن توظف الأموال الضرورية لتطورها الاقتصادي ، إذن لتعاظم وزنها السياسي في عالم الغد . ولكن شعوب أوروبا الغربية لا تستطيع الاحتفاظ بمركز مشرف في المستقبل إلا بالاعتماد على تكنولوجيا متقدمة جداً ، وعلى وحدة سياسية ، تتجاوز الفرقة الحالية .

هرم الشعوب

ولما كانت نسبة الوفيات آخذة بالتضاؤل ما بين عمر الصفر والخمسين عاماً لا (وفعلا فقد هبطت من ٢٥٠ ٪ إلى مالا يزيد عن ٢٠ ٪ في أوروبا) ، فإن الأجل المرتقب لكل مولود جديد قد ارتفع من ٣٥ سنة إلى أكثر من ٧٠ سنة ، خلال قرن واحد فقط (بعدد من النساء يزيد على عدد الرجال ، بحكم ارتفاع نسبة الوفيات بين هؤلاء) :ويقدر في أوروبا أن هذا الأجل هو ٦٨ سنة للرجال و٧٤ للنساء . ولما كان تضاؤل نسبة الوفيات وتضاؤل نسبة المواليد أمرين مقترنين لدى شعوب أوروبا ، فان النتيجة المحتومة هي ازدياد هرمها .

أما في البلاد الفتية ، السريعة التزايد ، فان نسبة من هم دون الخامسة عشرة من العمر تزيد على الـ ٣٠ ٪ ، مما لايترك مجالا لأكثر من ٥ — ٧ ٪ من الأفراد الذين تزيد أعمارهم عن الخامسة والستين . يقابل ذلك في البلاد القليلة المواليد ، عدد متزايد من الشيوخ في الخامسة والستين وما فوق : ففي بلجيكا من هؤلاء ١٣,٢٠ ٪ وهم ١٥و٤٦ في ألمانيا الديموقراطية ،

و ١٢،٠٥ في فرنسا لـ مقابل ٨،٢ عام ١٩٠٠) وما بين ٤،٧٥ – ٦،٢٠ في بلاد أوروبا الأخرى .

والواقع أن عدد المسنين (٦٥ سنة وما فوق) قد ازداد بنسبة ٢٤ مليوناً بين عامي ٦٥ – ٧٠ وسيصبحون ٢٧٠ مليوناً عام ٨٥ . وسيكون عددهم بنسة ٢٤ ٪ مقابل ١١٪ فقط ، بالنسبة لمجموع سكان الأرض . وبالمقابل ستحقق البلاد النامية التي تحسن شروطها الصحية تزايداً سكانياً بنسبة ٢٧،٨ ٪ يقابله تزايد في عدد المسنين بنسبة ٣٨،٢ ٪ .

إن تآزر هذين العاملين ، أي تضاؤل نسبة المواليد ، وزيادة الأجل المرتقب ، سيؤدي بالضرورة إلى تزايد عدد المسنين . وبالتالي سيتزايد عدد اللامنتجين باستمرار بين سكان الأرض .

وهنالك طريقة أخرى في تقدير الأثر المتآزر لنسبة المواليد (القوية أو الضئيلة) ولهرم الشعوب (أي تزايد الأجل المرتقب) في تطور شعب ما ، تقوم على إنشاء نسبة التعويض ، أي عدد الأفراد المتراوحة أعمارهم بين ١٠ – ٢٤ سنة ، والذين سيدخلون مرحلة الإنتاج ، والمشاركة في الحياة الفعلية للشعب . بالنسبة إلى كل مئة من الأفراد المتراوحة أعمارهم ما بين خمسين عاماً وما فوق ، أي هؤلاء الذين ينهون حياتهم المنتجة . وكان يقدر أن هذه النسبة في فرنسا عام ١٨٧١ ، هي نسبة ١٨١ فتياً إلى ١٠٠ مسن . وهبطت إلى ١١٥ عام ٨٨١ و ١٠١ عام ٩٢١ و٨٤ عام ٩٣١ . ولكنها في العام ١٩٦١ ارتفعت إلى ٩١ بحكم تزايد المواليد بعد الحرب . وكانت كذلك ٩١ في إيطاليا و٨١ في بريطانيا و٦٧ في ألمانيا الغربية . وبالمقابل فانها ٣١٥ في المكسيك و ٤٠٠ في البرازيل . وهذا ما يبرز التطورات التي ستطرأ على الشعوب القديمة في القرن القادم ، هذه الشعوب المتزايدة في الانطواء على نفسها .

ولما كان الانقطاع عن الفعالية المأجورة لاتشتمل بالجملة إلا على موارد متواصفة وغير كافية في عمر تزداد فيه الحاجة إلى العناية الطبية ، كما تزداد أجور السكن وأسعار المواد الغذائية ، فان العبء الذي يقع على أكتاف العاملين من جراء ذلك ، يتزايد أيضاً . فاذا نحن أضفنا الى المسنين طبقة الصغار (حتى الخامسة عشرة) الذين يستهلكون دون انتاج مقابل، فإنه يتضح ان العبء الذي تتحمله طبقة العاملين ستمضي كذلك متزايدة . حتى إنها تبلغ الآن ٤،٦٠ ٪ من الشعب في فرنسا مقابل ٦١،٨ في هولندا ، و ٦٣،٧ في ألمانيا الديموقراطية و ٦٠،٢ في روسيا و ٥٨،٨ في النرويج و ٥٥،٢ في الدانمارك .

غير أن مما هو جدير بالذكر أن كل هذه الشعوب تعيش أكثريتها في المدن ، ولم يعد الكهول مندمجين في أسرهم كما هي الحال في الشعوب ذات البنية الزراعية . وهكذا فان كل

مايبذل من جهد لتأمين الشيخوخة ، لايعوض عن طبيعة هؤلاء المسنين الذين أقصوا عن أعمالهم في المجتمع ، كما استبعدوا من الحياة العائلية لذويهم وأقرب الناس اليهم .

ولنلاحظ ان عدد النساء غالب في هذه الاعمار المتقدمة بحكم غلبة الموت لدى الرجال : والواقع أن ثلاثة أرباع النساء اللواتي هن في عمر السبعين أرامل أو عازبات ، وأنهن بعد عمر الخامسة والسبعين يشكلن ٣ ٪ من مجموع الشعب .

وعلى ذلك فان مشكلة الشعب الكبير السن ، ومشكلة صحته وموارده ، كل ذلك سيزيد الأعباء أكثر فأكثر على الأجيال الجديدة .

سكن المدن :

كان الناس ، في أكثريتهم ، وفي كل بلاد العالم ، ملتصقين بالأرض قبل نشوء الحضارة الصناعية ، وذلك من أجل إنتاج كمية كافية للغذاء . وفي القرن الثامن عشر كان كل فلاح يغذي بعمله ما يكفي ٢,٥ رجلا . ولكنه يغذي الآن ٢٠ في فرنسا و ٧٣ في الولايات المتحدة . ولكن عندما ارتفع المحصول الزراعي ، وتحررت بذلك أيد عاملة كثيرة واحتاجت المعامل إلى عدد أكبر فأكبر من العمال ، وأصبحت المدينة كثيرة المغريات ، فقد أصبح واضحاً أن سكان المدن يتزايدون باستمرار تبعاً لدرجة حضارة كل شعب .

وكان ستاندال لايعرف إلا ثلاث مدن كبيرة هي لوندره وباريس ونابولي . أما في عام ١٩٦٠ فقد أحصي ما يعادل ١١٠ مدن في كل منها أكثر من مليون نسمة ، ويقدر عدد سكانها بـ ٢٤٧ مليوناً . ولكن سكان المدن في السنوات العشر التالية زادوا بنسبة ٣,٦ ٪ سنوياً ، على حين أن سكان المعمورة بمجموعهم لم يزيدوا إلا بمعدل ١,٨٨ ٪ . وهكذا أصبحت المدن التي يربو سكانها على المليون في عام ١٩٧٠ ، ١٤٨ مدينة ، يسكنها ٢٨٠ مليوناً أي بزيادة ٢,٣٥ ٪ سنوياً بالنسبة لهذا النوع من السكان . وبين هذه المدن ٢٧ مدينة فيها أكثر من ثلاثة ملايين ساكن .

ويجب ألا ننسى أن تعريف المدينة تعريف متغير . فهناك من ينظر إلى المدينة ، وضواحيها ، ويسمى ذلك كله مدينة باريس ، أو مدينة دمشق ، وهناك من يقتصرها على حدودها الخاصة . فإذا أخذنا بالتعريف الثاني وجدنا أن في نيويورك في عام ١٩٧٢ ما يقرب من ٧,٨٩٥,٠٠٠ نسمة من أصل ١٦,٠٣٧,٣٩٥ نسمة في المنطقة ، وأن في بنوس إيرس ٤,٦٤٤,٠٠٠ من أصل ٩,٣٥٣,٠٠٠ في المنطقة . وفي باريس ٢,٤٦١,٠٠٠

من أصل ٨,١٩٧,٠٠٠ في منطقة باريس(وسيكون في هذه عام ١٩٨٥ ، ١١,٥٠٠,٠٠٠ مقابل ٢,٥٠٠,٠٠٠ في باريس . ولكن أكبر المناطق المحيطة بالمدن . هي منطقة شانغاي وطوكيو ، التي زاد سكان كل منها على العشرين مليوناً .

وعلى ذلك فان حادثة سكن المدن ، حادثة متزايدة ، ولا عودة عنها . وإن سكان الريف آخذون بالتناقص أكثر فأكثر . ونلاحظ أن في بلجيكا ٨٦,٨ ٪ من الشعب يعيشون في المدن ، وفي استراليا ٨٥,٥ ٪ وكثيرة هي البلاد التي تجاوزت نسبة المدنيين فيها الـ ٨٠ ٪ كالسويد وأورغواي (ويبدو أن نصف السكان في سورية يعيشون في المدن ، والنصف الآخر في الريف مقابل نسبة ٣٠ للأوائل و ٧٠ ٪ للثواني عام ١٩٤٥) وتنيجة ذلك بالنسبة البلاد جميعها هي تكاثف السكان في جزء صغير من الأرض الوطنية .

وفي الولايات المتحدة الآن ٢٠٧ ملايين نسمة ، والكثافة في الكيلو متر هي ٢٣ ، وهي كثافة ضعيفة ، ولكن ٧٠ ٪ من السكان يعيشون في ٢٪ من الأرض الوطنية ، حيث تبلغ الكثافة ٧٣٦, نسمة في الكم٢ .أي ضعف الكثافة في بلجيكا . وهنالك في أمريكا ما يسمى بالمدن الطولانية وهي ثلاث : واحدة في الشرق تمضي من نيويورك إلى بوسطن . والثانية في الوسط وتمضي من شيكاغو إلى ديترويت ، ، والثالثة تقع على المحيط الهادىء ، وتمضي من سان فرنسيسكو إلى لوس أنجلوس . وتضم هذه ٤٥ ٪ من مجموع شعب الولايات المتحدة .

أما اليابان (وفيها ١٠٤ ملايين نسمة) حيث يشغل مجموع السكان ١٥ ٪ فقط من الأرض ، فإن الكثافة النظرية هي ٢٨٠ في الكم٢ مقابل ٩٠ في فرنسا ؛ ولكن إذا نحن نظرنا إلى الـ ٥٪ من الأرض التي يعيش فيها ٨٦٪ من الشعب وجدنا أن هذه الكثافة ترتفع إلى ٥٠٠٠ (وللمقارنة نذكر أن الكثافة في منطقة باريس هي ٧٧٠ . أما في باريس نفسها فالكثافة تصبح ٢٤,٦٠٠ في الكم٢) .

ولما كانت حركة عمران المدن ماضية إلى الأمام ، فإنه يمكن التنبؤ بصورة عامة بأن ما بين الـ ٨٥ — ٨٨٪ من مجموع سكان الأرض ستكون سكان مدن ، وستحتل ما بين الـ ١٠ — ١٥٪ من الأرض الوحشية وأن الـ ١٢ — ١٥٪ من الريفيين سيتوزعون بصورة غير متعادلة على الـ ٨٥ — ٩٠ ٪ من الأرض الريفية .

ولكن طبيعة الأرض وتضاريسها ، لن يكون هنالك سكان إلا حيث تتقبل الأرض الأعمال الزراعية ، أو الاستثمار الصناعي ، أما بقية الأرض التي قد تكون ٧٠٪ من مجموع الأرض فستكون إما أحراجاً أو مناطق صيد واصطياف أو صحراء .

وستكون المناطق الجبلية النجيلية بحقولها الزراعية ، الشديدة الانحدار القاسية الطقس ، مقصورة على النزهات والصيد والرياضات الشتوية .

إلا أن بنية المدينة الحالية سيعاد التفكير فيها . ذلك أن صورتها الحالية لا إنسانية ومؤذية . وستنشأ ، مقابل هذه المدن العملاقة ، مدن متوسطة الحجم ، تضيق المسافة بين سكن الإنسان ومكان عمله ، وتتيح تنظيم أوقات الفراغ ، وتيسر إقامة الأسرة في منطقة سكنية تحتفظ بطابعها الخاص ، وتتمتع ببعض الاستقلال الإداري .

إن الإغراق في عمران المدن وسكناها لا يؤدي إلى ازدياد الضغوط الاقتصادية والاجتماعية فحسب ؛ بل إنه يكيف الفرد ويغير سلوكه . فالحياة المدنية تزيد من تعلق الناس بعضهم ببعض (بالمعنى غير العاطفي) ، وتخضعهم لبنى سياسية أو اجتماعية . وعلى حين أن سكان الريف يتميزون بالثبات والاستقرار ، فان سكان المدن — يخضعون لتقلبات مفاجئة في أقامتهم — إنحاء الصلات العاطفية بينهم. أما الرأي العام السياسي فيصبح الشاغل الرئيسي للحكومات التي يغريها عندئذ أن توجه الإعلام بالاعتماد على وسائل التثقيف الشعبي التي تملك زمامها . وهكذا فان الحرية ، برغم كل الظواهر ، تصبح محدودة ؛ كما يحل الانقياد الاجتماعي محل حرية الاختيار .

ويلاحظ أن أكثرية الناس في الحضارة الصناعية ، تتجه قليلا قليلا ، ولكن بالتأكيد ، نحو حضارة الديدان ؛ ولا تبقى إلا مجموعات قليلة من الأفراد ، منتقاة بعناية ، ومجردة من الاتجاهات السياسية ، يتاح لها الوصول إلى عالم البحث ، حيث تقوم زمر صغيرة ، مجهزة بوسائل مادية عظيمة بتمرين مواهبها في اتجاهات مبرمجة بدقة .

أما التنافس التكنولوجي فيميل إلى تكثيف الاعتمادات على بعض محاور البحث ، ومن بينها تلك التي تتصل بالصحة : ففي عام ١٩٧٢ أنفقت شركة HoEchst ، ١٦٤٫٦ ملايين مارك على البحث المتصل بالأدوية . وكذلك تفعل الشركات المماثلة الأخرى (مثل Merck و Pfizer، و Ciba وGeiGy) . يشجعها في ذلك تعاظم سوق الأدوية . والواقع أن الاستهلاك في هذا الميدان يكبر باستمرار ؛ ففي فرنسا سيقفز رقم هذا الاستهلاك من ٦٫٨٪ من ميزانية الأسر عام ١٩٦٥ إلى ١١٪ عام ١٩٧٥ . ويزداد هذا العبء الاجتماعي في كل بلاد العالم ، كما أن ثمن الصحة يزداد بأكثر مما يزداد الناتج القومي . وهذا القسم المخصص للصحة والعون الاجتماعي من الموازنة العامة ، سيزداد باستمرار وسيرغم الناس في الجيل القادم على اختيارات قاسية : بين بناء الثكنات أو بناء المشافي ، وبين صناعة القنابل الهيدروجنية أو قنابل الكوبالت ضد السرطان وبين الصعود إلى القمر ، أو تأمين حياة سليمة للكهول ،

وبين بناء طائرات أسرع أو إنشاء قلوب اصطناعية ، ودراسة أسرار علم الحياة أو دراسة خصائص أعالي الجو .

ومن الواضح أن حدة هذه المشاكل لا يمكن أن تؤدي إلا إلى تزايد الرقابة على الاقتصاد ولما كان الاتفاق على الصحة من الأمور الأساسية ، فإنه سيرغم الدول على مراقبة الإنفاق الوطني العام ، في مختلف صوره .

بل إن بعض البلدان المتقدمة ، كبريطانيا ، مثلا ، قد وصلت ، بفضل استبيان تمكن معاملته بالـ Ordinateur (الناظم) إلى رسم التاريخ الصحي لكل مريض على حدة ، وتحديد الفارق بينه وبين الصورة النموذجية للمرض نفسه على المستوى الجمعي . وسيؤدي هذا الاتجاه الإحصائي ، عاجلا أو آجلا ، إلى إنشاء إعلامية Impormatique ليس موضوعها وصف أعراض المرض وتشخيصه فحسب ، بل كذلك وضع العلاج الطبي في أطر (وسائط) يوازن فيها بين المريض وبين العوامل الاقتصادية والاجتماعية . وسنصل بالضرورة من جراء ذلك إلى الاستغناء عن الالتزام الآلي بطرق المعالجة الباهظة التكاليف (فلقد بلغت كلفة إقامة اليوم الواحد في المشافي المتخصصة مبلغ ٦٢٢،٦٩ فرنك ، كما حددتها مصلحة الإسعاف ، ولكنها في الواقع تمكن فعلياً ١٠٪ زيادة على هذا المبلغ) . بحيث تقتصر على المرضى القابلين للشفاء والذين يستفيد المجتمع من شفائهم .

الإنسان وعلم البنية الأرضية :

إن الإبقاء على بنية بيئوية ما ، يستند إلى التوازن بين مختلف الأنواع الحيوانية والنباتية التي تعيش فيها ، وتساهم في إنشاء صورة ما للوسط الجغرافي والمناخي . ذلك أن حذف أو تكاثر أي نوع من الأنواع بصورة مبالغة لا بد وأن يحدثا أثراً ما في الوسط الايكولوجي الذي يفقد توازنه .

ولا يشذ النوع البشري ، من وجهة النظر هذه ، عن باقي الأنواع الحيوانية ، وقد أدى تكاثره إلى نتائج جارحة بالنسبة إلى الوسط الايكولوجي ، ولم يعد بالإمكان إصلاحها .

ومن أبرز هذه النتائج تخريب الأرض الخصبة والغطاء النباتي ، بسبب الاستثمار العنيف ، اللامعقول ، للأرض . بل إن اقتلاع أشجار الغابات ، سواء أكان ذلك لتوسيع الأرض الزراعية أم للاستفادة من الخشب في البناء أو التدفئة ، قد أدى إلى خراب الأرض ، وتعريضها

لتقلبات المناخ وتوسيع حدود الصحراء . وهكذا فان حرائق الغابات قد عرت قسماً كبيراً من الأرض الأفريقية . ثم إن استعمال الأخشاب للوقود في صناعة النحاس جعلت من اسبانيا بلداً حاراً قليل الأمطار . وكذلك الزراعة العنيفة في أمريكا ، فانها أحالت أرض الداكوتا إلى صحراء ، وفي كل عام نجد الصحراء تمتد ، ولا سيما في المناطق التي قطعت منها الأشجار ، مما لا مجال معه لإعادة استثارها . وفي أفريقيا ، يلاحظ أن مناطق السهول ستضيع من دائرة الاستثار إلى الأبد ، وكذلك الأراضي التي اقتلعت أشجار غاباتها ، فإنها ستزداد مساحة عاماً بعد عام في كل من أفريقيا وآسيا وأمريكا .

إن هذا التطور يؤدي إلى خسائر لا يمكن ترميمها ، وإلى تغير في الطقس ، وتضييق في عملية التمثل الكلوروفيلي (وبالتالي في إنتاج الأكسجين) . ولكن الأخطر من ذلك أنه يؤدي إلى هجرة السكان من المناطق التي أصبحت قاحلة ، فلا مجال للحياة فيها . وبهذا تزداد الكثافة البشرية في المناطق التي ما زالت خصبة ، وتتضاءل في المناطق الجرداء . ولئن استمر الإنسان في الحياة ، في هذه الشروط ، فان أنواعاً حيوانية كثيرة تنقرض بحكم تحول الغابات إلى صحارى . ويقدر الخبراء أن الأرض تفقد في كل عام ما يقرب من ٢٠٠ نوع ، وليست الوحوش وحدها هي التي تنقرض بل ينقرض منها مجموعة من ذوات الثدي غير الداجنة . وقريباً لا يبقى منها إلا بعض النماذج في حدائق الحيوانات . والأمر كذلك بالنسبة إلى كثير من الفقريات العليا ، ولو بدرجة أبطأ . ومن المقدر أنه منذ الآن حتى مئتي سنة ستنقرض الحيوانات المتوحشة ، إلا من الحوض الأمازوني أو من بعض السهوب القليلة .

وسنشهدمثل هذه المآسي من جراء الاستثار العنيف للبحار : فالحيتان لم تعد تعيش إلا بحماية قانونية قلما ترعى . والطون الذي كان يملأ المتوسط منذ الأزمنة القديمة ، لن يعمر أكثر من ١٥ – ٢٠ سنة ، ويستعمل الروس واليابانيون طرائق عنيفة في الصيد البحري ، إذ تستعمل آلات تجذب الماء بعنف ومعه الأسماك ، أو تستعمل شبكات صيد دوارة قطرها عدة عشرات من الكيلومترات مما يسرع حركة فراغ البحار من أحيائها . ولم يعد السمك يتكاثر إلا على المنطقة الضيقة من الهضبة القارية الغارقة في البحر. كما أن إبادة مسار الأسماك بقوارب الصيد الجبابة على أعماق كبيرة تتزايد كل يوم . إن هذه حلقة مفرغة ! إذ تقل الأسماك فتبتكر أساليب أشد عنفاً لمزيد من الإبادة .

ويبقى أن نضيف إلى عوامل الإبادة هذه بطريق الاستثار العنيف ، خسائر أخرى تعزى إلى التلوث المتزايد في شواطيء البحار ، والمسؤول عن تضاؤل القشريات ، أو هجرة

الأنواع الشديدة الحساسية . وهكذا فان الصومون يهجر الأنهار الملوثة ، كما يهجر السردين الجانب الشرقي من البحر المتوسط ، الذي لم تعد ملوحته تطاق بسبب قلة مياه النيل الذي تنصب فيه .

ومها تكن الجهود المبذولة لحماية الطبيعة كبيرة ، فإن الأراضي المتزايدة التي تستخدم للزراعة ، تقضي أكثر فأكثر على الأنواع الحيوانية ، والنباتية ، ولا تبقى منها إلا الأنواع التي نحسب أنها مفيدة في حسن تلاؤمها وانتاجها .

الموارد الطبيعية :

إن مجتمعنا الاستهلاكي يؤدي إلى تبديد موارد الأرض ، عندما يستبعد من الدورة الطبيعة جزءاً من الثروات المستغلة بأكثر مما ينبغي . فلقد كان الإنسان هو ، وكل ما يغشه بالاعتياد على المواد المتوافرة بين يديه ، يعود إلى التراب – هذا التراب الذي يتكون منه غرين الأرض المغذية . إن جزءاً متزايداً من النفايات يتبدد اليوم ولا يعود إلى الدورة الطبيعية ، أو إلى الاستعمال الصناعي . فالكروم مثلاً ، والزئبق وحتى الرصاص ، مواد متوزعة بكمية محدودة في الكرة الأرضية . وقد نفدت بعض المناجم . ويزداد استهلاك الألمنيوم كل يوم . ولا يعود إلينا منه إلا جزء ضئيل ، بالنظر إلى قلة كلفته لدى الإنتاج . أما احتياطي النحاس فليس بالشيء الذي لا ينفد ، وإنتاج الذهب لا يكفي لسد حاجات النقد . ولهذا يجب التخطيط في أسرع مدة ممكنة في إنتاج واستهلاك الموارد الطبيعية ، ولا سيما الموارد المستخرجة من المناجم ، بالإضافة إلى تخطيط آخر يرد علينا المعادن الأكثر نفعاً أو الأعظم ندرة .

ولكن أعظم الموارد الطبيعية ، هو الماء والأكسجين اللذان لا تمكن الحياة بدونهما . ومن هذه الناحية يبدو المستقبل حافلاً بالمآسي .

مشكلة الماء :

إن الماء أحد العناصر الأساسية في المادة الحية ؛ بنسبة ٧٠٪ لدى الحيوانات و ٩٥٪ في النباتات .

والماء موزع بصورة غير متعادلة في مختلف مناطق الأرض ، وهنالك ثلاثة مصادر له هي : البحار ، والقارات ، والجو ، وتشمل البحار على ٩٧٫٣٪ من كل الماء الموجود ، وأما الباقي فهو موزع بين المصدرين الآخرين . وتسعة أعشار هذا الباقي (أي الـ ٢٫٧٪) مجمد في البحار القطبية بالثلاجات (ولو أنه انصهر لارتفع سطح البحار ٦٠ متراً ، ولأغرق أربعة

أحماس الأراضي المعروفة اليوم) . أما ماء القارات فينشأ عن هبوط الأمطار ، ثم يعود إلى البحر من فوق أو من تحت . وهنالك كمية ما من هذا الماء منحلة أو مندمجة في الصخور، وعلى كل حال فإنه بعيد عنا . فلا يبقى إلا ماء الجو الذي يمثل واحداً بالألف من مجموع حجم الماء على الأرض ، والذي يقدم لنا كمية الماء الضرورية للدورة الحيوية فوق سطح القارات . إنها دورة تنشأ عما يتبخر من ماء البحار ، ليصبح غيوماً ، ثم ليعود مطراً ينساب إلى الأرض أنهاراً أو يستقر في بعض الخزانات الطبيعية ، وكل هذا الماء لا يزيد على ١٫٨٪ من مجموع ماء الكرة الأرضية . وعلى ذلك فإن كل ما على الأرض من حياة يتعلق بالمطر الذي ليس في وسعنا أن نتحكم فيه .

غير أن الحاجة إلى الماء في مجتمعنا المتمدن تزداد بصورة مذهلة . ولئن كان الإنسان يعيش ويطهي طعامه بثلاثة لترات من الماء في اليوم ، فإننا نحتاج إلى أربعين لتراً في صناعة علبة محفوظات الخضار ، و ١٠٠ لتر لصناعة كيلو من الورق و ٣٥٠٠ لتر لإنتاج طن من الاسمنت وأربعمائة ألف لتر لانتاج طن من الفولاذ المصفح ، وخمسمائة ألف لتر لإنتاج طن الأنسجة . إن الماء مادة أساسية في الصناعة ، واستهلاكها هنا يتجاوز استهلاك الكائنات الحية تجاوزاً كبيراً جداً . ولكن الصناعة تسترد أكثر هذا الماء وتعيد استعماله ، ولكن ذلك يؤدي إلى تلوث كبير في الوسط الطبي . إن أكبر الأنهار في المناطق الصناعية لم تعد إلا مجاري مكشوفة . وهكذا فإن ما أصاب نهر الرين من التلوث يحدث خطراً كبيراً على التوازن المائي في هولندا ، ويمتد أذاه إلى حوالي الستمائة كيلو متر في بحر الشمال .

ويؤدي بنا هذا كله إلى الفصل بين ماء الشرب والماء كمادة أولية . فالماء الذي يدخل في غذاء الإنسان والحيوانات (دون أن ننسى زراعة البقول) ينبغي أن تنشأ عن الينابيع المستبعدة عن كل أذى ، أو عن الأنهار غير الملوثة ، وأن يصل مباشرة إلى المستهلك . أما الماء كمادة أولية فيجب ألا يطرح في الأنهار إلا بعد التصفية . ووسائل ذلك معروفة ، ولا يحتاج تطبيقها إلا إلى التمويل الذي ينبغي أن يتم حوله اتفاقات دولية . وكذلك تحلية ماء البحر الذي تقوم بها بعض الدول المجاورة لشواطىء المحيطات، كبعض الدول العربية ، وكاليفورنيا وغيرها ، فإنها تصبح ضرورية بالرغم من كلفتها العالية ، بالنظر إلى تزايد الحاجات الصناعية . ويمكن أن تتم هذه التحلية باستعمال الحريرات الزائدة لدى إنتاج الطاقة الذرية ، في المعامل القائمة في مناطق الشواطىء .

استهلاك الأكسجين :

إن استهلاك الأكسجين يمضي موازياً للتصنيع .ولئن كان إنتاج الطاقة المائية أو النووية لا يستدعي استهلاك الأكسجين ، فليس الأمر كذلك في الطاقة الحرارية وبخاصة إنتاج الفحوم الهيدرجينية . فتخزين البنزين، C4H يحتاج إلى خمسة عشر جزيئاً من الأكسجين ليكون بالاحتراق ستة جزيئات من غاز الفحم وثلاثة جزيئات من الماء . فالسيارات والمعامل والتدفئة الفردية ، كل ذلك مما يستهلك كية ضخمة من الأكسجين . وتستهلك طائرة البووينغ ٧٠٧ ، الواحدة ما بين باريس ونيويورك ٣٦ طناً من الأكسجين ، وهذا رقم تتجاوزه الطائرات الحـــديثة .

ولكن التمثل اليخضوري الذي يبث غاز الكربون ،ينبغي أن يعيد التوازن الأكسجيني ، مبدئياً ، شريطة ألا يعرقله القضاء على النبات ، أو التلوث في البحار : إن الطن الواحد من البترول المنتشر على سطح الماء يحتاج على البحر على مسافة ١٢ ألف هكتار من الماء . ولكن سطح الماء هو الذي يقدم للجو أربعة أخماس أكسجينه .

وإذا تركنا جانباً هذه النفايات السامة لاحتراق الفحوم الهيدرجينية (كأكسيد الكربون، والرصاص ، ومشتقات الآزوت) قلنا إن محيطنا الجوي مهدد جدياً في المدن حيث تتم الاحتراقات بأكبر كية ممكنة . فإذا تتابع الاستهلاك بالنسق الحالي ، فاننا سنبلغ النقطة الحرجة خلال قرنين .

ولكن تركيب الجو القريب من الأرض ليس بالأمر الوحيد الذي يلعب دوراً أساسياً في توفير الشروط الضرورية والمتوافقة لظهور الحياة على الأرض واستمرارها . بل إن النور الذي تقدمه لنا الشمس يشتمل في القسم اللامنظور من طيفه ، أشعة فوق البنفسجية يحدث قسم منها (أي ذاك الذي تتراوح أطواله ما بين ٢٩٠٠ — ٣٢٠٠ أنغستروم) تبعاً لكمية ما يستقبل منها ، آثاراً مؤذية غير متلائمة مع حياة الخلايا العضوية . ألا أنه يلاحظ أن هذه الإشعاعات الضارة (التي تعلل انعدام كل حياة على سطح القمر المحروم من الجو) يعترضها الأوزون الجوي ويستبقيها بعيدة . ويتكون هذا الغاز بتفاعل ضوئي كيماوي قابل للانعكاس ، يكتنف ثلاثة جزيئات من الأكسجين ؛ ويقوم توازنه على عدد من العناصر النادرة الموجودة على مقربة من التفاعل . ويتم هذا الأخير في الطبقات العليا من الجو . فينساح الأوزون كله في

هذه المناطق من السكاك (١) على ارتفاع يتراوح بين الـ ٢٠ والـ ٣٠ كم . من الأرض . فإذا أعيد الأوزون إلى الأرض في الضغط العالي . لم يكون إلا طبقة من ثلاثة ملم . أما في المناطق العليا فإنه يوقف الأشعة البنفسجية التي تؤذي البروتينات النووية — وهي عناصر محركة للحياة ودعائم للوراثة التكوينية ، إيقافاً تاماً .

ومن أهم عوامل التوازن في وجود الأوزون في الجو بالنسبة الضرورية ، ما يسمى بأكسيد الآزوت . ولكن هذا الغاز العظيم الثبوت ، والناشئ من الاستقلاب الجرثومي ، يرتفع إلى السكاك ويبقى فيه . وهناك يؤثر في التفاعل المذكور آنفاً ، باتجاه الأكسجين ويوازن الأوزون المتركب كيماوياً بضوء الشمس ؛ وكلما زاد أوكسيد الآزوت ، نقص الأوزون .

غير أن أوكسيد الآزوت ينتشر بكميات كبيرة من محركات الطائرات . وقد حسب الخبراء أن خمسمائة طائرة من التي سرعتها فوق سرعة الصوت ، إذا هي طارت سبع ساعات في أعالي الجو ، قد تضاعف كمية أوكسيد الآزوت الموجودة في سكاك الكرة الأرضية ؛ وعلى ذلك فإن كل طائرة سكاكية تمزق بعض الشيء ، ذلك الحجاب الأوزوني الذي يقينا من شر الأشعة البنفسجية . ورأى كل من لاتارجيه Latarget وشافندرا Chavandra أن نقصاً قيمته ٥٪ من كمية الأوزون ، يزيد بنسبة ١٠٪ ، ذينك الحادثين الخطيرين المتخذين كرائز في حسابات العالمين ، وهما الاستحالات الجرثومية والسرطان الجلدي لدى الرجل الأبيض . وهذا يعني أن إصابات هذين المرضين عندئذ تمثل ٨٥٠٠ حالة في أمريكا و ١٨٠٠ حالة في فرنسا . لكن لهذا التأثير الذي يقع على الجنات (المورثات) وعلى الاستحالات الجرثومية نتائج أعظم خطورة ، وذيولا لا يمكن التنبؤ بها ، بالنسبة لكل الحياة الأرضية وكل هذا محسوب على أساس نقص الأوزون بنسبة ٥٪ . فلا يمكن إذن التقليل من قيمة هذا الخطر ، على الرغم من أننا ما نزال نجهل العلاقة العددية الدقيقة التي تصل بين نسبة تركيز أوكسيد الآزوت وبين كمية الأوزون .

ماذا سيأكلون :

إن الانسان الضخم ، بأعداد كبيرة ، وعلى اتساق وصور متشابهة من شأنه أن يرد البضائع إلى صور محدودة لا مجال للمستهلك أن يختار غيرها . ولئن بدا هذا ،

(١) السكاك كلمة تقابل الكلمة الفرنسية Stratosphére .

كحقيقة واضحة في عالم الصناعة ، فانه في طريقه إلى أن يصبح كذلك في عالم الزراعة . فغذاء الإنسان ، المعين كما وكيفا ، لا بد وأن يتخذ صورة المنتجات الصناعية ، كما هي الحال في أكثر أغذية الأطفال : ولهذا التنسيق الأخير أثر واضح يضمن للأطفال نمواً أسرع وقامة أطول (لمنذ احتل الأمريكيون اليابان في نهاية الحرب الثانية ، وأدخلوا عادات جديدة في تغذية الأطفال ، غير عادات اليابانيين القديمة ، كسب هؤلاء ستة سم في متوسط الطول) . وسيكون هذا الغذاء المنسق أقل طعماً وجودة من طعام البيت (ولكن من الذي سيتسع وقته لطهي الطعام) إلا أنه سيكون محسوباً في محتوياته تبعاً لحاجة الراشد ، وسيعوض بسهولة تحضيره عن تماثل صوره ، وقلة نكهته ، مما لا يلمحه الناس الذين ربوا منذ طفولته عليه . فالعادة هي التي تتحكم هنا في الاختيار .

ومنذ الآن ، تضيق أمام الإنسان صور الاختيار ، بحكم ضرورات الانتاج . ولقد ردت الأنواع البقرية في فرنسا إلى ستة أنواع بعد أن كانت ثمانية وعشرين ، ولم تعد أمريكا تنتج إلا نوعين من التفاح ، وفكر كندا في أن تجعل أصناف أجبانها ثلاثة فقط . وكذلك تفضل أنواع القمح والأرز ذات الإنتاج العالمي ، وعندما تكثر الأفواه التي ينبغي إطعامها ، وتضيق الأراضي التي تمكن زراعتها فلا بد للعالم من سياسة إنتاج للأغذية ، تدار كما كانت تدار سياسة الشعوب المتحاربة ، أي أن علينا أن ننظم شؤون الزراعة والتوزيع تنظيماً عقلانياً لكي نجابه الأعداد المتزايدة من الناس ، وتجنب المجاعات . وقد تقلل من استهلاك اللحم لحساب البروتينات النباتية الأرخص سعراً ، والأكثر إنتاجاً . وبدلا من قطعة « الستيك » من لحم البقر ، يمكن أن نستهلك « الستيك »مصنوعاً من الصويا .

وبالمقابل فإن التربية المنهجة والمبرمجة للأسماك والقشريات ستنمو نمواً كبيراً ، بسبب القيمة الغذائية الغنية بالبروتينات . وربما تحولت بعض البحار الجانبية كالبلطيق مثلا إلى بحيرة لمثل هذه التربية لكي تكون بداية لسلسلة هائلة من مصادر الإنتاج الغذائي .

مستقبل الطاقة :

تقوم حضارة العصر الحاضر كلها على إنتاج الطاقة واستثمارها . عندما كان الإنسان لا يملك من الطاقة إلا التي في يديه ، أو في قوة الحيوان ، أو في استثمار الهواء ، أو مجاري الماء ، يشغل بها أدواته ، فإن النمو الصناعي كان محدوداً . غير أن ظهور الماكنة البخارية في

القرن التاسع عشر ، ثم الكهرباء بعدها ، قد أدى إلى تغيير المعطيات القديمة ، وأنشأ مصادر للطاقة يتضاعف استهلاكها مرة كل عشرة أعوام تقريباً .

وكان يبدو أن مصادر الطاقة هذه غير محدودة . ولكن هل بالإمكان أن يتصاعد الاستهلاك باستمرار ، وأن تظل هذه المصادر قادرة على الوفاء بحاجاته ؟ إنه ليبدو بأنها لا تستطيع ذلك ، لأنها ، بالتعريف ، محدودة . فلقد تضاءل الفحم الحجري ، وأصبح مادة أولية أكثر مما هو من المحروقات .

أما احتياطي البترول الغاز الطبيعي ، فينبغي أن يسد حاجة العالم حتى نهاية القرنين التاليين . ويعود استثمارهما العنيف إلى الحاجة إلى وسائل النقل السريعة ، كالطائرة والسيارة . أما استعمالها لانتاج الكهرباء من الطاقة الحرارية فأمر مؤسف نشأ عن عدم كفاية القوى المائية القابلة للاستخدام .

وليس من ريب أن الطاقة الذرية ، وهي الوحيدة التي تنشأ بصورة مباشرة ، أو غير مباشرة عن الطاقة الشمسية ، تبدو وكأنها حل المستقبل . لكن الطاقة الناشئة عن الانشطار الذري ، على الصورة المستعملة حالياً ، والتي تمد مصادر الطاقة التقليدية بعون لا يستهان به ، تظل محدودة ، بحكم ضآلة المواد الشاطرة (كالأورانيوم والثوريوم) هذا فضلا عن مخاطر التلوث الهائلة الناشئة عنها . فإذا استطاع العلماء درء هذه المخاطر ، والتحكم بالقوة الذرية ، وأعدنا في الأرض دورة بيث Bethe الشمسية ، فإننا سنملك كل الطاقة الضرورية لحياة الناس على الأرض ، حتى تنقضي الأرض .

وحتى إذا كان التحكم في الطاقة الذرية ما يزال في حيز الفرضيات ، فإن الأمل بانتاج الطاقة ، في المدى القريب ، الذي هو مدى حياتنا نفسها ، يبدو مشجعاً على الرغم من التشاؤم الذي يصدر عن بعض العلماء أحياناً . ونعني بهذه الطاقة ، صورتها الكهربائية التي ستتلاءم أحسن التلاؤم مع حاجاتنا المختلفة . ولا شك أن توزيع هذه الطاقة سيحل محل كل توزيع آخر ، لا سيما إذا أمكننا استخدامها في وسائل النقل الفردية ، أي السيارات الصغيرة ، على ما هي الحال الآن ، في استعمالها لوسائل النقل الجمعية ، كالقطارات أو الباصات.
ولكن مهما يكن حل مشكلة الطاقة في المستقبل ، وهو حل يبدو ملحاً أكثر فأكثر بحكم نفاذ مصادر الطاقة الأخرى فان عليه أن يشتمل على حل لتوزيع هذه الطاقة بين مختلف القارات والشعوب .

ولنلاحظ أن اختلاف الشعوب في مستوى النمو الصناعي ، يجعل الشعوب المتخلفة أو المحرومة من المواد الأولية خارج حلبة المزاحمة الصناعية . فالولايات المتحدة التي تمثل ٦٪ من سكان الأرض ، تستهلك ٢٧٪ من المواد الأولية وأكثر من ٣٠٪ من الطاقة التي ينتجها العالم كله ، ولكن حتى إذا نحن ضاعفنا إنتاج الطاقة مرتين أو ثلاثاً ، فان عدم التوازن سيظل ماضياً في التزايد ، إلا إذا اتفق على نظام المحاصصة الذي يعطي العالم الثالث من الاستفادة من مصادر الثروة . ولئن كانت بعض البلاد المتخلفة ، تملك أحياناً احتياطياً كبيراً من الطاقة ، كالبترول أو الأورانيوم ، وتستطيع بالتالي استخدامه لنموها الذاتي ، فان بلاداً أخرى مرهقة بعدد سكانها ، وفقيرة جداً ، لا تستطيع أن تعتمد على شيء آخر غير التعاون المشترك بين الشعوب ، هذا إذا استطاع التطور السياسي أن يجعل مثل هذا التعاون ممكناً .

وأخيراً ، فلقد تبين لنا أن سكان الأرض سيتزايدون خلال قرن أو قرنين ، أو سيستمرون في التزايد . وسيكون بالإمكان تموينهم بالطاقة ، وتغذيتهم ، ورعاية صحتهم ، ومدافعة الأمراض التي يتعرضون لها ، وتطويل الأجل المرتقب حتى عمر الثمانين أو أكثر . ولكن هذا كله لن يتيسر ، إلا إذا استطاعت الإنسانية التحكم في الأخطار التي أنشأتها ، ولا سيما تلوث المحيط .

تلوث المحيط :

يعيش الإنسان أكثر فأكثر في محيط ملوث : فالهواء ملوث بالمواد السامة الناشئة عن الاحتراقات المختلفة ، والأرض ملوثة بمجموعة ضخمة من قاتلات الحشرات (كال د. د. ت والباراثيون والهكساكلور ، والليندان والديلدرين والأندرين . . الخ) . والماء الذي لا يتلقى ٩٢٪ من قاتلة الحشرات ، المنتشرة على الأرض و ٩٨٪ من المنظفات ، فحسب ، ولكنه يتلقى كذلك كل المنتجات السامة الناشئة عن الصناعة . وقد أشارت منظمة الصحة العالمية عام ١٩٧٠ إلى أن ١٣٠ مليوناً من الناس في المدن ، لا يتمتعون بغير الماء الملوث وأن ٥٠٠ مليون مصابون بأمراض ناشئة عن فساد الماء .

واليابان ، البلد المعرض للتلوث ، بصورة خاصة ، من حيث أنه مصنع بدرجة عالية ، والشعب هناك مجتمع بقوة في بعض أنحاء البلاد ، يعرف مرض ميناماتا Minamata الناشيء عن الزئبق ، ومرض كانيمي Kanumi الناشيء عن تمديد كلورور الديفينيل ، ومرض تويوما Toyama الناشيء عن الكادميوم Codmium . والأخبث من هذه كلها ، من

حيث أنها لا تسبب أمراضاً عيادية ، هي المياه المشتملة على منتجات مولدة للسرطان ، أو مسرطنة ، تختزنها الأسماك والرخويات التي تعيش في المياه العذبة أو المالحة . وهذا شأن اليابان وشأن عدة بلاد مصنعة جداً ، كبلجيكا والرور ، وبريطانيا والشاطىء الشرقي من الولايات المتحدة . ولقد وصل الأمر هناك إلى النقطة الحرجة ، فإذا لم تتخذ تدابير حازمة سريعة ، ازداد الوضع سوءاً . ولا يمكن منطقياً أن نحاول إطالة الأجل المرتقب للناس ، وأن نتسامح مع التلوث في الوقت نفسه .

وهكذا فإن النضال ضد التلوث ، يصبح مشكلة كبرى . فإذا تم اتفاق دولي حول هذا الموضوع ، ضمن المستقبل لنا مصانع نظيفة ، وأعفاراً مطهرة ، ومدناً بلا أبخرة ، وسيارات غير ملوثة ، فإذا لم يتم ذلك ، فان الإنسانية ستدفع ثمناً أعلى فأعلى للتلوث .

ومن الواضح أن ضخامة المشاكل التي تنتظر الإنسانية غداً ، (ككثافة السكان ، وزيادة السكن في المدن ، وشدة إنفاق الطاقة ، وإنتاج الأغذية) تنفي كل تجاهل أو تغافل أو تأجيل . وعلى الرغم من كل المظاهر ، ومن كل التقدم المادي المتزايد ، فان نوعية الحياة الإنسانية تفسد بسرعة . وفي مثل هذا النسق من التطور ، يمكن القول : إن النوع البشري مهدد أكبر التهديد .

ولكن لكل هذه المشاكل التي أنشأها الإنسان نفسه ، حلولا هي في مستوى عقله الخلاق . ولئن كانت الفنون الصناعية منذرة بإبادة الجنس البشري ، فان هذه الفنون نفسها قادرة على إنقاذه ، ومهما يكن الثمن الذي سندفعه لعملية الإنقاذ ، فانه قليل تجاه ما يتهددنا من الأخطار . وقد آن أوان العمل .

ولكن ما من حل ممكن إلا إذا اشترك فيه العالم كله . وعلى كبار المسؤولين في هذا العالم أن يقرروا السبل التي ينبغي السير فيها ، والطرائق التي ينبغي استخدامها ، بصورة مشتركة لتحقيق عالم متوازن ، لا يؤمن بقاء النوع فحسب . بل يضمن كذلك حياة أفضل وأعلى .

فاذا لم يحدث ذلك ، ولم يحمل الكبار مسؤوليتهم ، فلنقرأ على الدنيا السلام ، والفاتحة .

قراءة جديدة في
مسرح بريخت

علي عقلة عرسان

لم يقتصر التجديد الذي أتى به برتولد بريخت على طريقة التأليف المسرحي ، وتغيير أسلوب بناء المسرحية ومعالجة مضامين جديدة فيها ، وإنما شمل ذلك كل مقومات العرض المسرحي وأسلوبه ، بل وأسلوب الأداء التمثيلي ، وحمل طموحاً إلى تغيير أسلوب المشاهدة وجهد في سبيل تغيير ذلك الأسلوب . . وهذا كله ألف نظرية جديدة هي نظرية المسرح الملحمي التي ارتبطت باسم بريخت وبرزت كنظرية متكاملة في القرن العشرين . .

---

* تنشر « المعرفة » هذا المقال وهي تعرف مسبقاً انه يثير مسائل بالغة الحساسية ، ويقدم آراء جديدة في بريخت تستحق المناقشة . وتنشر معه دراسة عن مسرحية بريخت « حياة غاليلة » ، رغبة في أن تضع أمام القارىء الرأي والرأي الآخر .

وبريخت صاحب هذه النظرية لا يمت بكبير صلة إلى برتولد بريخت الذي ولد في بافاريا عام ١٨٩٨ وشارك في الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٧ وكان يهدف إلى أن يتخرج كمختص في الطب والعلوم الطبيعية .

إن بريخت صاحب المسرح الملحمي هو الذي وله ولادة جديدة عام ١٩٢٧ أو هكذا أعلن في إنتاجه الذي أتى بعد هذه المرحلة . وعن هذا الشخص الجديد نريد أن نتحدث اليوم ولكن بصورة قد لا ترضي المتحمسين حماماً خالصاً لصاحب المسرح الملحمي والتغريب . . وإن كانت ترضيني كجهد متواضع في سبيل الوصول إلى الحقيقة التي أحبها وسعى اليها وتمسك بها بريخت الجوهر الإنساني الذي لم ولن يذبل .

« لقد استهل بريخت حياته كثائر وجودي ، غارق إلى حد غير عادي في الجريمة ، وإشباع الغرائز إشباعاً أعمى ، وفي الانحلال . ولم يصبح ثورياً اجتماعياً إلا بعد أن سلك كل السبل العمياء في عدميته الأولى» لقد كان(١) يسير على طريقة بطله جارجا في مسرحية غابة المدن ، وبعد أن وصل بطله إلى الوحدة ، والعزلة ، فالانتحار . ذهب هو – وقد واجه كآبة نفسه ، وافلاس عقله عن إيجاد أفكار جديدة وتفسير الحياة والوجود يتلاءم والواقع الذي يحسه ويراه – أقول ذهب عام ١٩٢٧ إلى كلية العمال الماركسيين في برلين وقد اقتنع بالفعل أن سبيله إلى الخروج من اليأس الوجودي هو سبيل الشيوعية ، الأيديولوجي . ولقد صدق مارتين اسلين حين قال : ان الشيوعية أذابت كابوس السخف الذي كان يجثم على صدر بريخت ، وأزالت شعور الاضطهاد الذي كان يجعله يرى أن هناك قوى كبيرة مجهولة تتحكم في الحياة .» وولد بريخت جديد . . ولكن هل زال إلى الأبد ذلك الوجودي العابث ، والرومانسي الكئيب ، والبوهيمي الماكر الذي يسعى وراء اللذة ؟! هل زال نهائياً من كيان بريخت صاحب نظرية المسرح الملحمي ، وصاحب الخط الفكري الواضح . . خط الحزب الشيوعي ؟! ذلك ما سوف نراه . .

لقد منحت الطبقة العاملة الألمانية لبرتولد بريخت قضية يتبناها ويدافع عنها ، وقدمت له المادية التاريخية منهج عمل وعقلا الكترونياً من نوع خاص – إن صح التعبير – يعود اليه لاستشارته كلما دعت الحاجة . وتستطيع الشيوعية أن تقدم له الشهرة والمجد وسرعة الانتشار .. واندفع بريخت في حماس كبير يكتب مسرحيات تؤكد الأفكار الماركسية وتدعو لها . . وفي

(١) روبرت بروستاين – المسرح الثوري ص ٢٠٦ .

الوقت نفسه يبحث عن طريقة في الفن تتلاءم مع النظرة الجديدة للعالم التي تريدها الشيوعية . . طريقة تثير الدهشة بدلا من المتعة ، وتعلم وتوجه بدلا من أن تسلي ، طريقة عملية تحدث تغييراً جذرياً وجوهرياً في الفن يتلاءم مع الفكر الماركسي ، فنبذ – وهذا أمر طبيعي – تعاليم وأساليب وقيم المجتمع البورجوازي وبدأ عملية معارضة أساسية ورئيسية للمسرح كما تعارف عليه العالم منذ أرسطو حتى يومه ذاك فرفض المسرح الدرامي وجاء بالمسرح الملحمي الذي قال انه جديد يلائم النظرية الجديدة ويستمد وجوده منها وينقض كل ماقاله أرسطو ويخرج عليه. ولكن كيف ؟!

يقول أرسطو في فن الشعر عن الملحمة : ينبغي أيضاً أن يكون لها من الأنواع مثلما في المأساة فينبغي أن تكون بسيطة ، أو مركبة ، أو أخلاقية أو انفعالية . وينبغي كذلك أن تكون الأجزاء واحدة ، فيما خلا النشيد (الموسيقى) والمنظر المسرحي ، إذ يجب فيها أن يوجد تحولات وتصرفات وفواجع ، وأيضاً سمو في الأفكار والمقولة (أي اللغة) وكل هذه الأمور كان هوميروس أول من استخدمها ، واستخدمها على أكمل صورة . . . وفي مقابل هذا تختلف الملحمة عن المأساة في طول التأليف وفي الوزن . . . وينبغي أن نستعين في المآسي بالأمور العجيبة . أما في الملحمة فيمكن أن نذهب في هذا إلى حد الأمور غير المعقولة التي يصدر عنها، خصوصاً العجب . . . والأمر العجيب يدعو إلى الإمتاع وآية ذلك أن الناس جميعاً ، حينما يحكون حكاية ، يضيفون من عندهم ابتغاء الإمتاع . » فن الشعر ص ٦٩ .

أما بريخت فقد رفض في أواخر الثلاثينات وفي الأربعينات موضوع المتعة وأصر على أن هدف الفن المسرحي هو التعليم وراح يفصل مسرحيات إما لشعارات وإما لتوصيل معلومات واجتهد في ذلك في القصة وأسلوب توصيلها وأدواتها وفي طريقة عرضها فكانت مسرحيات مثل الاستثناء والقاعدة – الاجراءات المتخذة – الهوراسيون والكوراسيون – الذي يقول نعم والذي يقول لا . . وغير ذلك من المسرحيات . . .

وكان في سعيه يجهد في تحقيق المقولة الرئيسية التي يعتبرها أساساً في المسرح الملحمي وهي : « أن يناشد عقل المتفرج أكثر من مشاعره . فبدلاً من المشاركة في تجربة ، لا بد من أن يحكم الواحد قبضته على الأشياء . وفي الوقت نفسه ، من الخطأ تماماً أن نحاول أن ننكر العاطفة على مثل هذا النوع من المسرح . » (١)

(١) مجلة المعرفة العدد ٢٦ ص ٧٢ .

ومن أجل الوصول إلى مخاطبة عقل المتفرج وإيقاظه لجأ بريخت إلى التغريب الذي يهدف إلى تحقيق عدم التوحد بين المتفرج والمثل بحيث لا يعيش المتفرج مع الممثل الدور الذي يمثله ويستغرق في انفعالاته وينسى تشغيل عقله في محاكمة ما يجري أمامه من حوادث وما يعرض عليه من أمور . . ولكي يحفظ بريخت لمتفرجه على وضعية المراقب أو المحاكم أو القاضي لجأ إلى وسائل التغريب المختلفة . .

والتغريب في مسرح بريخت يتم بثلاثة أنواع من الوسائل :

– تفتيت متعمد في البنية الفنية للنص المسرحي ، بحيث يتم عرض الحوادث بأسلوب بانورامي إلى حد ما على عكس ما يجري في المسرح عادة من بنية فنية يمليها منطق الضرورة أو منطق الاحتمال وتحقق واقعاً فنياً بحيث نجد أن كل حدث ما عدا الحدث الأول في المأساة مبني على سابقه ممهد للحدث اللاحق في بنية متنامية تصل إلى الذروة وتؤدي إلى الحل . إن بريخت يقدم حوادث عارضة أحياناً ، ويجعل الشخوص تروي ما ستقوم بتحقيقه كفعل على المسرح أو تشعر المتفرج بأنها ستقوم بفعل لا يمت للممثل بصلة وإنما هو فعل الشخصية التي يمثلها . . ويضع بريخت ملاحظات في النص أو يضيفها أثناء الإخراج تؤدي الى فصل التواصل الإنفعالي كلما حدث بين الممثل والمتفرج بحيث يبقى المتفرج باستمرار خارج دائرة الإيهام بأن ما يجري هو واقع فني ، وبعيداً عن المشاركة الإنفعالية وبعيداً عن التوحد مع البطل .

– أما الوسيلة الثانية لتحقيق هدف التغريب فهي اللجوء إلى استخدام المؤثرات الضوئية والموسيقية استخداماً يتعارض مع خلق جو من الانسجام التراكبي بين ما يجري على المسرح وبين المؤثر بحيث يغدو المؤثر عامل فصل لا عامل إيهام . . وأحياناً يسخر المؤثر كعامل تفسير يسهم في التبصير بما يجري . وكذلك الأمر بالنسبة للديكور المسرحي والأدوات المستعملة سواء في أسلوب رسم الديكور أو في وضع الأدوات واستعمال الأقنعة ووضع ماكياج غير واقعي . . الخ .

– أما الوسيلة الثالثة فهي وسيلة تنصب على أسلوب الأداء التمثيلي .. وهو أمر ركز عليه بريخت كثيراً فطلب من الممثل ألا يعيش الشخصية التي يؤديها بحيث لا نقول مثلا ان الممثل انسجم في دوره وعاشه وأداه بانفعال وأشعرنا أنه الشخصية التي يمثلها وليس الممثل فلان .

إن بريخت يريد من الممثل ألا يعيش دوره بحيث لا يحقق إيهام المتفرج بأنه الشخصية وبالتالي يجعل المتفرج يراقبه ويراقب الأحداث ولا يعيشها . .

هذه جملة وسائل التغريب وهناك تفصيلات عديدة لأساليب ممارستها وتحقيقها. ونظرية المسرح الملحمي وأساليب التغريب منسجمة مع الفكر الماركسي ومع المادية التاريخية من وجهة

نظر بريخت بحيث يتجه الفن إلى العقل ويعطي الناس دروساً ويلقنهم المبادىء بوضوح لا يقبل اللبس ويهدف باستمرار إلى تعليمهم ورفع شعارات المراحل أمامهم . . . . . ولتحقيق هذا كله سعى بريخت إلى تفصيل نظريته أو تجميعها . . أو احيائها . . وإنني هنا لا استعمل هذه الكلمات اعتباطاً . . لأن وسائل التغريب وما قاله بريخت عن مسرح ملحمي جديد أمر قديم جداً . . — على الأقل في شكله العام — ان بريخت نفسه يقول في الأورغانون الصغير : « كان المسرح الكلاسيكي أو مسرح العصور الوسطى يضفي على شخصياته نوعاً من الغرابة بأن يجعلها ترتدي أقنعة انسانية أو حيوانية ، كما تستخدم المسارح الآسيوية حتى اليوم وسائل تغريب تعتمد على الموسيقى والتمثيل الصامت ، كانت هذه الوسائل دون شك حاجزاً يمنع من التوحّد مع شخصيات المسرحية ومع ذلك فإن هذا التكنيك مدين بقدر من طبيعته لقوة الايحاء التنويمي أكبر لا أقل من تلك الوسائل التي يتحقق بها التوحد . ولكن الأهداف الأجتماعية لتلك الوسائل كانت مختلفة تماماً عن أهداف وسائلنا » ومن الطبيعي أن تختلف الأهداف الاجتماعية لإستخدام الوسائل أو للعرض المسرحي نفسه بين تلك العصور وعصرنا وبين ذلك الإنسان وانساننا . . ولكن الوسيلة نفسها لم تختلف والغاية نفسها من الاستعمال لم تختلف . . فأين جدة التغريب ؟ !

أما جملة الحركات البسيطة التي يقوم بها الممثل في مسرح بريخت لكي يقنع بأنه يمثل فيقابلها جملة كثيرة من الحركات وأساليب الأداء عند الممثل اليوناني كانت كلها تصرخ بأننا نمثل على المسرح . . . وعلى رأس هذه الوسائل أساليب الأداء من خلال بوق القناع فقد كانت أقرب إلى الصراخ بالكلام لإيصال الكلام لآلاف المتفرجين . أما القناع فكان يحجب بالفعل كل أثر لتغضن عضلات الوجه وكل تعبير لها ، ويحجب تأثير العينين خاصة . . وكان الممثل يقوم بالعديد من الحركات الممدودة التي تخرجه بمجرد ادائها عن الحركة الواقعية وتجعله يرسم في الفضاء حركات لا تمت للحركة العادية بصلة وبالتالي تجعل الحركة تنطق بأنه يمثل . . وهي حركات تذكرنا بها الآلية المضحكة لحركات الفردشال ممثل مسرح البرلنير انسامبل عندما كان يؤدي دور أرتوروووي (مع الفارق في هذه هدف الحركة . .) صحيح ان الممثل اليوناني كان يمثل وكل مايؤديه كان هدفه التوصيل ولكن ما كان يقوم به في جملته يبقى في مجال مفهوم التغريب الذي يتكلم عنه بريخت ويتبناه. اداء مبالغ فيه— عاطفة غير ملسجمة مع الكلمات والمواقف — عضلات مسترخية جامدة أصبحت قناعاً — قبقاب طويل يعطي للممثل طولا لا يتناسب مع طول الانسان العادي . . . إلى آخر ذلك من الوسائل

(١) مجلة المسرح العدد ٢١ .

بالإضافة إلى ما وضع من وسائل تغريب في بنية المسرحية نفسها من تدخل الراوي ، ووقوف الجوقه لتغني معلقة على الحدث أو لتفسره أو لتتمنى على الشخوص أن تقوم بكذا وكذا من الأفعال والتصرفات . . وأحياناً يضع رئيس الجوقة نفسه في مكان البطل ويقول : لو كنت مكانك لتصرفت كذا . . ولفعلت كذا . . والجوقة عندما تفعل هذا تقوم فعلا بعملية فصل التواصل إلى حد ما وتترك المتفرج ليرتاح ويفكر ويعلق وتخرجه من الاستمرارية المتصلة لتواكب الأحداث المسرحية . ولكن الأحداث المبنية على أساس مسرحي سليم يتوفر فيه تركيز احداث محددة حول شخوص محددة نابعة من بعضها مؤدية إلى غرض محدد – أي الأفعال الأرسطية إن صحت التسمية – وتحققة المتعة . . نعم المتعة التي رفضها بريخت في الثلاثينات ثم عاد ليعتذر ويعود إلى احضانها واقصد بالمتعة (التسلية والفائدة والترفية والخبرة في اسلوب فني جمالي محبوب يرسخ قيماً ايجابية وفاضلة في نفس الإنسان ويفتح أمامه أفقاً أفضل فيرتاح عقله ويبتهج قلبه ويوضع على مشارف رؤيا جديدة للواقع . . للوجود .) المتعة التي عاد بريخت ليقول عنها في الأورغانون ولكن عام ١٩٤٨ « لنتخل إذن عن نيتنا في هجر عالم المتعة ولنعامل المسرح كمكان للهو . . ولكن لنبحث في أي نوع من المتعة نعتبره مقبولا »(١). هذا ما قاله بريخت بعد أن حول المسرح إلى مدرسة ترفع شعارات الماركسية.. ولكنه قال ذلك عام ١٩٤٨ وأرجو أن تلاحظ التاريخ لأن في عودة إلى هذا الأمر ترتبط ببرتولد ابن الحرب العالمية الأولى . وذهب بريخت في طريق العودة إلى المتعة إلى حد مبالغ فيه حين قال في الأورغانون أيضاً : (لابد أن يظل المسرح شيئاً كمالياً كلية رغم ان هذا يعني انه ذلك الشيء الكمالي الذي نعيش من أجله ، ولا شيء يتطلب تبريراً أقل من اللذات . » .

ولكن بريخت بقي – بعد عودته إلى الإيمان بحق المتفرج بالمتعة – على إيمانه بأن هذه المتعة يجب أن تحقق للمتفرج بأسلوب التغريب من خلال المسرح الملحمي الذي « يطلق المشاعر أو ومضات الإدراك أو الدوافع الممكنة بداخل مجال الإطار التاريخي الخاص بالعلاقات البشرية التي تدور فيها الأحداث ويشجع الأفكار والمشاعر التي تساعد على تغيير المجال نفسه » كما يقول بريخت ولهذا يرفض الجو الفني الذي يسود في صالات العرض المسرحية العادية ويقول : « لايمكن أن نقبل المسرح الذي نراه الآن كما هو . . فلندخل احدى الدور المسرحية لنلاحظ الأثر الذي تتركه على النظارة ... حين ننظر حولنا نجد أجساماً لا حراك فيها ، متصلبة في أوضاع غريبة ، ويبدو انهم يجهدون في توتير عضلاتهم اللهم إلا حين تكون هذه

(١) الأورغانون الصغير – مجلة المسرح عدد ٢١ ص ٣٥ ترجمة فاروق عبد الوهاب .

العضلات مترهلة ومجهدة ، وهم لايتفاهمون أو يتصلون أحدهم بالآخر إلا فيما ندر ، والعلاقة القائمة بينهم ، أشبه ما تكون بتلك التي تقوم بين مجموعة من النيام الذين يحلمون في قلق ، لأنهم ، كما هوشائع عمن تصيبهم أحلام مزعجة أو كوابيس ينامون على ظهورهم ، حقيقة ان عيونهم مفتوحة ولكنهم لا يرون بل يحملقون ، كما أنهم يصغون ولا يسمعون ، وهم ينظرون إلى خشبة المسرح كما لوكانوا في غيبوبة ، وهو تعبير استعرناه من العصور الوسطى أيام الساحرات والقساوسة ، فالرؤية والسمع أنواع من النشاط يمكن أن تكون ممتعة ولكن هؤلاء الناس فيما يبدو قد نفضوا أيديهم عن النشاط ، حيث يبدو انهم استسلموا لمشاعر غامضة لكنها عميقة ، يزداد عمقها كلما ازداد أداء الممثلين جودة ، ولذلك ولأننا لانوافق على هذا الموقف ، نحب أن يسوء أداء الممثلين قدر الإمكان . » وهذا الذي يضحي بريخت من أجله بجودة التمثيل هدف نبيل ولكن ألا يمكن ان نصل اليه مع الحفاظ على جودة التمثيل وبطريقة أخرى . . ؟ ! أظن انه من حق الإنسان الذي تحترم له الماركسية قبل غيرها أن يفكر ويعمل عقله ويراقب بحالة من اليقظة الكاملة العقل ليتخذ موقفاً ، من حقه ان يستعمل عقله.وأريد أن استعمل حقي الذي تمنحني اياه الماركسية قبل غيرها في أن أعارض نظرية بريخت في الأداء التمثيلي وأهداف وسائل التقريب الشكلية وهذا لايعني اختلافاً حول غاية الفن المسرحي ودوره في المجتمع وفي الإسهام ببنية الفرد عن طريق تقديم المتعة الفنية له بالمفهوم الشامل للمتعة .

ان الشيء الجوهري للخلاف يكمن في اسلوب الوصول واسلوب التأثير لتحقيق الغاية التي هي ترك أكبر قدر ممكن من قوة التغيير وارادة التغيير ، داخل المتفرج ، ليقوم باستبدال الواقع السيء بواقع أفضل وليكشف الأخطاء التي كادت أن تصبح طبيعية لكثرة الاعتياد عليها . فكيف نصل إلى الإنسان ونغرس فيه أفكارنا ونجعله يرى من الزاوية التي نرى منها وننقل له صورة عن انفعالاتنا بالواقع . . ونضع في روحه واعماق عقله المعنى الجديد الذي نراه في العالم وعلاقات الأشكال والأشياء والمخلوقات في الطبيعة ككل . .

وهنا وكزنا على هدف الملحمة التي تتناول كلية الوجود

هل يكون ذلك عن طريق البنية الفنية للعمل المسرحي / بنية الحوادث واسلوب المعالجة والحوار والفكر الذي تبنى عليه المواقف بين الشخوص وأهداف الشخوص الفرعية وعلاقاتها التي تؤدي في النهاية إلى تحقيق الهدف العام للمسرحية / أم بوسائل مضافة وتقنية تستغل المؤثرات الضوئية والصوتية والحركة واسلوب أداء الممثل ... الخ .أي عن طريق خلخلة

الانسجام الدرامي ضمن إطار العمل المسرحي وفي مكان أدائه وعناصره ككل بما فيها الجمهور ... ليبقى المتفرج في درجة من اليقظة تمكنه من أن يكون في وضعية المراقب . .أو الذي سيدعى « للادلاء بصوته » كما يقول بريخت ، لا المنسجم مع ما يقدَّم له ؟ !

إذا توفرت هناك معايشة من قبل الممثل للشخصية المرسومة بأهداف وغايات اجتماعية واضحة وقادرة على تجسيد أفكارها بحيث تغدو واضحة الغايات واضحة البنية أمكن للممثل أن يضيف إلى هذه الشخصية التي خلقها المؤلف قوة إبداعية تتجلى في تجسيدها بالمعنى الشامل الكلمة . وهذا سيحقق غيبوبة كما أسماها بريخت من قبل الممثل في الشخصية تنتقل إلى غيبوبة من قبل المشاهد في العرض المسرحي . . وإذا تحقق ذلك أي تم التوحد الذي يخشاه بريخت فإن المتفرج سوف يتابع الحدث العام لأنه في العادة انما يعايش استمرارية الحدث وتصاعده ، ونمو القصة – التي اعترف بريخت بأن أرسطو محق عندما اعتبرها جوهر الدراما واعتمدها بريخت أيضاً . (١) أقول ان المتفرج يرافق تطور ونمو حوادث ، وعلاقات شخوص ،

---

(١) من المفيد أن نتذكر هنا نص أرسطو الذي يبين رأيه في هذا المجال . يقول ارسطو : « وإذن ففي المأساة بالضرورة ستة أجزاء تتركب منها وتجعلها هي ما هي ، وهي : الخرافة ، والأخلاق ، والمقولة ، والفكر ، والمنظر المسرحي ، والنشيد . وأهم هذه الأجزاء تركيب الأفعال ، لأن المأساة لا تحاكي الناس ، بل تحاكي الفعل والحياة ، والسعادة والشقاوة هما من نتائج الفعل ، وغاية الحياة كيفية عمل لا كيفية وجود ، والناس هم ما هم بسبب أخلاقهم ولكنهم يكونون سعداء أو غير سعداء بسبب أفعالهم . واذن فالأشخاص لا يفعلون ابتغاء محاكاة الأخلاق ، بل يتصفون بهذا الخلق أو ذاك نتيجة أفعالهم ، ولهذا فان الأفعال والخرافة هما الغاية في المأساة ، والغاية في كل شيء أهم ما فيه ؛ وفضلا عن هذا ، فلا توجد مأساة بغير فعل ، ولكن توجد مآس بغير أخلاق (أو عادات) ؛ إذ المآسي التي الفها معظم الشعراء المحدثين خالية من الأخلاق . . .

ولو برع المرء في تأليف أقوال تكشف عن الأخلاق وتمتاز بفخامة العبارة وجلالة الفكرة ، لما بلغ المراد من المأساة ، إنما يبلغه حقاً بمأساة أدنى عبارة وفكرة ولكنها ذات خرافة وتركيب أفعال . أضف إلى هذا أن مصدر اللذة الحقيقي لنفس المشاهد للمأساة إنما هو في أجزاء الخرافة ، أعني في التحولات والتصرفات . . . فالخرافة إذن مبدأ المأساة وروحها ، ويتلوها في المرتبة الثانية الأخلاق » .

أرسطو – فن الشعر ص ٢٠ – ٢١ . ترجمة د. عبد الرحمن بدوي .

ويهتم بذلك أكثر من اهتمامه بشخصية وحيدة يتصور نفسه مكانها انه قد يقف إلى جانب كل الشخصيات المظلومة أو المحبوبة في العرض ويشكل قناعات ويتخذ مواقف ضد شخصيات أو ضد مواقف وتصرفات للشخصيات التي يحبها فينقد أخطاءها ويتعرف على تلك الأخطاء لأنه في موقف الناظر من عل والذي يكتشف أوراق اللعب لكل الشخوص . هكذا يتصرف المتفرج بكل بساطة ، وهو في سكونه على مقعده في صالة العرض ، ووضعه الذي اسماه بريخت بوضع الغيبوبة ، متحرك عنيف الحركة من الداخل تمور نفسه وهو في ذلك الوضع، بالحركة وهو على أعنف ما يكون من يقظة وتتبع . .إنه باختصار يتحرك في سكونه وهو حاضر البديهة ، ولا يعيش غيبوبة وانما هو مستغرق كل الإستغراق في متعة المتابعة والمعايشة ، ويستعمل كل ملكاته . . فحين يضحك ينتقد أو يعترض ، وحين يصفق يؤيد ويعجب . ويعلن في كل حال عن وقوفه مع أو ضد . . وهكذا يمارس قدراته وتنمو ملكاته ويحاكم ويقرر من خلال المتابعة ... بعد أن يشغل عقله . ولكن استثار الانفعالات والطاقات الذي تحققه المعايشة / أو الغيبوبة / كما يسميها بريخت ستجعل المؤلف ينفذ -- بأفكاره وقيمه ومعانيه ومواقفه الرئيسية إلى عمق قناعات المتفرج الإنسان وتفعل كل تلك الأفكار والمعاني والقيم في نفسه من الداخل دون أن تجد متاريساً من المقاومة أو بواباً يسألها إلى أين ويسمح أو لا يسمح لها بالدخول . . أما إذا استثرنا ذلك البواب بجملة متناقضات نضعها وهي تقتتل على بابه وتنوي الدخول فإننا ندفعه إلى الوقوف ضدنا أولا ونطلب منه أن يراقب في آن معاً كبة من المتناقضات المتصارعة والتي تزدحم عندبابه للدخول إلى حماه ... وقد لايتمكن من عملية الضبط . أو قد يغلق بابه الذي فتحه لنا طائعاً راضياً وينصرف عنا برماً بنا .

إن الانصاف يتجلى في أن يكون الكاتب عارفاً لما يريد مؤمناً بقدرته على تحقيق رؤية تملك قوة الوضوح وقوة الواقع وقوة المنطق والفكر الذي تتبناه ونريد من الناس أن يتبنوه أيضاً ، ولها رصيد من الايمان والقناعة في نفسه ، رضيها لذاته ثم ارتضاها للناس وللانسانية . وهو يقوم بايجاد السبل لغرس هذه الرؤية في أعماق الكتلة الحية القادرة على منح الحياة ، من عقل الإنسان وقلبه ، والتي تسيطر على فعاليته وتوجهها . . ويسخر الكاتب في سبيل تحقيق ذلك كل ما يحتاج اليه من حجج الإقناع ووسائل التوصيل . . ويحقق لبذرته القدرة الذاتية على الانتاش . . بحيث يضمن انها ستنمو فعلا إذا وضعت في وسط يساعدها على النمو . . وبعدها يهيء ذلك الوسط . . انها عملية تلقيح مضمونه النتائج ... أو عملية . . غزو للاستيلاء على موقع وتغيير ما فيه بما يضمن اكتساب فاعلية الموقع المحتل لتنصب كقوة رديفة فاعلة في تيار القوة الغازية .

ان عملية المحايدة في السرد التوضيحي تغاير روح الإقناع . . ومادمت آمنت بفكرة وارتضيتها الناس فعلي أن أجد أقصر السبل واضمنها لإيصالها للناس . . واقناعهم بها . وادعاء الموضوعية في السرد أو السعي لبعثرة الواقع الفني حول محور يخدم فكرة ويخدم هدفاً فأمر يناقض — في حدود معرفتي — لمنطق الفكر الذي يتبناه بريخت .

فالشيوعية مثلا تعرض وجهة نظرها وتدافع عنها وتدحض بالحجة وبالعنف — ان أقتضى الأمر — خصمها وتركز جهودها لتحقيق الأنتصار فكراً وعملا بأية وسيلة ، وهي لا تطرح وجهات النظر بشكل محايد وتدع للآخرين أن يختاروا غيرها .. وانما على العكس تحاول ان تقنع الآخرين بوجهة نظرها بكل الوسائل . . لتجعلهم يسيرون في تيارها أو على الأقل لتعزلهم وتطوقهم وتمنعهم من أن يكونوا في الصف المعادي أذا لم تقدر على كسبهم إلى صفوفها .

وأي الطرق أسهل الوصول الى نفس الجمهور وتحريضه على القيام بما نريد أن يقوم به .. ولاقناعه بوجهة نظرنا من الاستفادة من كل مقومات العمل الفني للتأثير عليه وغرس ما تريد في أعماقه — فكراً ومشاعر . . . أن المتفرج المراقب والقاضي المحايد ، والحكم . . الذي يتحدث عنه بريخت والذي يتكون في جمهور مسرحه كما حدده هو من طبقة العمال فلا أظن انه يستطيع أن يتابع بسرور المحاكمات والتناقضات التي تطرحها المادية الجدلية والمادية التاريخية بعد يوم عمل مجهد . . والأفضل من ذلك لمن يريد أن يتعلم المبادىء الماركسية ويدافع عنها ويكسب لها الأنصار عن طريق المحاضرة أن يلتحق كما فعل بريخت نفسه بمدرسة العمال الماركسيين ببرلين. وهذا مادعى بامبرجاسكوين إلى القول : من المفارقات الكبرى المتعلقة بمسرح بريخت انه بدلا من أن يلهم كما كان قصده جمهور الطبقة العاملة البسيطة لتفكر في غير انفعال عاطفي حرك وأثار جمهوراً عالميأمن العقلانيين»(١) فالنزاد هناك أشهى وأدسم ومادمنا قداخترنا الأصلح وارتضيناه لأنفسنا فلا بد أن نرتضيه للناس؟! وإذا ارتضيناه الناس وعرفنا انهم بحاجة إلى أن نقنعهم أو نبصرهم بما وصلنا اليه من قناعات فيحق لنا أن نغزوا ذواتهم من الداخل — وهذا عملنا كفنانين وهم سيرتاحون لذلك — ونحتل ساحات شعورهم ونمسك بزمام قلوبهم وعقولهم عن أقصر الطرق ؟ ! وأقصرها كما أرى أن ندخل القلوب دون استئذان ونستقر فيها ونحرك العقل من منابع الشعور ومكامن العواطف . .

(١) الدراما في القرن العشرين ص ١٤٩ بامبرجاسكوين . ترجمة محمد فتحي .

ونقل له المتعة والقيمة الجمالية والفكرية مستغلين كل ساحة شعوره إلى جانبنا، جاعلينه يعتقد أنه هو الذي اكتشف فكرتنا وآمن بها ونشر كه في الابداع دون الحاجة إلى اتهامه بالغفلة أو اعلانه بأننا سنهاجمه . والاداء التمثيلي المتقن الجيد – والمنظر الأخاذ . . كل ذلك وسائل توصل بها الحقيقة اليه . . وهي وسائل تمهيد لا وسائل تخدير . . وسائل تساعد على التوصيل لا وسائل تساعد على التضليل والخداع . . ولفظ الإيهام الفني قد يوحي شكلياً بالخدعة ولكنه وسيلة نبيلة لغاية نبيلة لا بأس من استخدامها بشرف .

وهنا لابد من التأكيد على أن هناك الكثير من النصوص ومن الكتاب استخدموا هذه الوسائل لتحقيق اهداف وغايات غير نبيلة . . أو استخدموها وهم لا يملكون شيئاً نبيلا ينقلونه إلى الناس عن طريقه وبريخت ليس منهم وهذا هو ما أغثاه وجعله يثور ويبحث عن وسيلة غير تلك الوسيلة . . وبنظري ان الشر لايكمن في الايهام ولكن في اولئك الذين يسيئون استعماله واستغلاله .

لقد أراد بريخت بإرادة جبارة ونية صالحة أن يغير المجتمع ، ورأى شقاء الناس ، وكان كما يقول هربرت اهرنج « يحمل فظائع هذا العصر في اعصابه ، في دمه ، ويشعر شعوراً جسدياً بما في زمانه من فوضى وعفن وفساد . » ولقد حقق في أعمال فنية كتبها في الخمسينات مستوى فنياً رائعاً لا يستطيع حتى ألد أعدائه أن ينكره عليه في مسرحيات من مثل : الأم شجاعة – دائرة الطباشير القوقازية – الروح الطيب في ستسوان – وغاليلو غاليلي . .

وفي هذه النقطة نقطة الأداء التمثيلي أرى ان اسلوب بريخت لا يخدم أفكاره وأهدافه وحتى نصوصه اعتقد انها ستنال نجاحاً أكبر وتؤدي غرضه بشكل أفضل لو قدمت باسلوب الأداء التمثيلي الذي يضمن المعايشة ويبعد وسائل التغريب ويجعل المتفرج يعيش الحدث والموقف ويستمتع ويستمر في المتعة من خلال التأثير على انفعالاته وتوحده مع الممثل . . لأن أهداف بريخت وأفكاره في نسيجه الأدبي . . في بنية عمله الفني . . في العقل الذي نظم المواقف والشخوص والحوار على هذا النحو أو ذاك وليس في شكليات الأداء .

وبعد هذه النقطة أسمح لنفسي بالعودة قليلا إلى بريخت الصغير ابن الحرب العالمية الأولى الذي لا أعتقد أنه انتهى . . فقد كان يثير حواراً ويقوم ببعض الثورات الداخلية الصغيرة . . ويريد أن يتمرد ويشق طريقه كشاعر وكانسان له قوة الطبيعة ويرغب عن النظام والإلتزام والأحزاب . .

وفي الحقيقة كان لهذا الشاب ذي الثلاثين سنة تأثير إيجابي في بعض الأحيان على بريخت قبل أن يقوم بثورة عارمة . . فهو الذي حفظ للمسرحيات التعليمية ولبعض مسرحيات الدعاوة السياسية التي كتبها بريخت روحاً شعرياً وحماها من السقوط . . وهو أيضاً الذي جعل كاتباً مثل روبرت بروستاين يقول :

« من بين جميع كتاب المسرح العصريين العظام ، نجد أن برتولد بريخت هو أشدهم ابهاماً فهو صريح وخفي معاً ، وهو بسيط ومعقد معاً » وجعله يرى أن بريخت « في أشد حالاته الإجتماعية والسياسية يظل في جوهره شاعراً أخلاقياً ودينياً ، وهو في هجماته التي لاتنقطع على افتقار النصرانية إلى الترابط والتناسب يبدو على وجه العموم مارقاً أكثر مما يبدوغير مؤمن »(١)وظل بريخت الصغير يتململ ويضيق بالنظام ويضفي بعض الأنانية على تصرفات بريخت صاحب النظرية لدرجة أنه شكك في صدق ولائه للشيوعية . . فهو الذي جعله يتجه – في الحرب العالمية الثانية وبعد أن أحرق النازيون مؤلفاته – إلى الدانمرك ثم إلى فنلندا وبعدها إلى أميركا . . لينجو بنفسه ويكتب . . بدلا من أن يذهب إلى الإتحاد السوفييتي مثلا فيخوض النضال إلى جانب رفاقه في العقيدة ، وهو الذي جعله يفكر بروح المتشكك كما يقول أريك بنتلي :

« إذا ثبت أن ادعاءات الماركسية صحيحة ، حينئذ لا تكون الماركسية فلسفة زماننا فحسب ، بل انها أيضاً تهيء فهماً علمياً أكبر للأزمان السابقة كلها . وعن طريق هذه المعرفة يكون بريخت أول درامي كبير في التاريخ فهم التاريخ ، وأول درامي كبير استطاع أن يضيف إلى العبقرية الفردية معرفة أكيدة مشهورة بالإنسان وبمجتمعه . »(٢) ويضيف بنتلي قائلا : إنني أعبر عن هذا بقوة ، لا لإسخر من بريخت ، بل لأعترف بأن كل من يقبل بريخت على قيمته الظاهرية له أن يعلم أن لدى بريخت ما يعطيه أكثر من أي درامي في التاريخ وعندما ألقت بين أصدقاء بريخت وتابعيه ، شعرت أن هذا بالضبط هو ما يعتقدونه ، وكان بريخت يروق له أن يتصور أن العكس أيضاً صحيح ؛ فقد قال مرة : إذا لم تنتصر الشيوعية السوفييتية فإن كتاباته لا مستقبل لها . . » .(٢)

وبريخت الصغير ذلك البوهيمي الألماني الرومانسي العابث والوجودي الكئيب هو الذي اكتسب دهاء ومكراً بالتجربة وكان يتصف ببعض الصفات الثعلبية . . هو الذي أكد على سبيل المثال للجنة النشاط غير الأمريكي بأنه لم يكن ذا صلة قط بالشيوعية وقبل أن يستقر نهائياً في برلين الشرقية اطمأن إلى أن جواز سفره نمسوي وأن له حساباً ببنك سويسري . » وهو الذي جعل

١ – روبرت بروستاين – المسرح الثوري . ترجمة عبد الحليم البشلاوي .
٢ – اريك بنتلي – الحياة في الدراما . ترجمة جبرا ابرهيم جبرا .

غاليله يضحي بسعادة ابنته في سبيل حياته هو واستمراره في العيش والعمل وجعله يتنكر لضمير العالم ليحافظ على حياته حتى يكتب إلى النهاية مؤلفه .

وبريخت الصغير هو الذي وقف ليقول للمرحوم اولبريشت عندما ثار العمال في برلين عام ١٥٣ ما معناه : « إذا لم تعجبك الأمور فاذهب وابحث عن شعب آخر » .

ولكن هل تمت المصالحة بين الاثنين على اتجاه ؟! هذا ما يمكن أن تقوله لنا المخطوطات التي لم تنشر بعد والملاحظات والمذكرات التي تركها بريخت في برلين . .

وفي الختام ماذا نقول عن برتولد الشاب وصاحب النظرية : أنقول ما قاله محبه بنتلي في معرض التلميح حيث قال : « وهنا يذكر المرء ان بإمكان بعض الكتاب الرديئين جداً أن يصبحوا بارزين عن طريق الانضمام إلى الحركات السياسية القوية » ؟ ! !

قد يكون في هذا بعض القسوة التي لا أرضاها . ولكن ما أراه أن برتولد بريخت ظلم من أتباعه ومريديه أكثر مما ظلم من المنصفين والمحايدين والذين ينظرون اليه كشاعر مسرحي يخطىء ويصيب وكإنسان يأتي الخطأ والصواب .

فالذين يحبون بريخت أو يتحمسون له بدافع التحمس الماركسية أو الشيوعية دفاعاً وكيفما اتفق على طريقة أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . . أقول أن هؤلاء — ومن بينهم بعض المنسحقين الذين يبحثون عن نظرية أو مدرسة أو رأي يشدون حبالهم اليه — أحاطوا هذا الرجل بهالة صنع جزء كبير منها من الألغاز والأحابيل والتصورات الخرافية جعلت من الرجل لغزاً يكاد يستعصي على الفهم . . ويحتاج إلى كد الذهن ليفهم . . وهم بهذا ضيقوا عليه وأشهروا حراب أعدائه . . ومنحوه ما ليس من حقه .

إن بريخت شاعر مسرحي كتب للناس جميعاً وليفهمه الناس جميعاً . . وبهذا الهدف يجب أن نقدم على تقديم أعماله وفهمها . وهكذا يجب أن نتعامل معه وإذا استعصى على ذلك نطوعه لهذا النوع من التعامل ليكون مقبولا ومفهوماً ومفيداً الناس ويصبح عالمياً وإنسانياً حقاً .

إنه شاعر مسرحي يمكن أن تؤدى أعماله بكل الأساليب والطرق الفنية التي يراها ويقتنع بها مقدموه . على ألا يتقيدوا بأسلوب خاص ومدرسةيقدمحسبهامسرحه.منهنا يأتي غناه .. ومن هنا نستطيع أن نحفظ له تجدده ، ونحافظ على استمرار صلاحه على العصوردون تحجر أوجمود. ومن الإنصاف له أن نطبق عليه الرأي الذي قاله هو عن مسرحيات شكسبير في محاورات المسنكاوف « لولا هذا الانتهاك لما عاشت المسرحيات . » .

حياة غاليله

عبده عبود

في مسرحية « حياة غاليليه » التي كتبها برشت في مهجره الدانمركي في عام ١٩٣٨ ، يعالج برشت موضوعاً مألوفاً ومعروفاً لدى كل واحد منا : إنه موضوع التطور الهائل الذي عرفته العلوم الطبيعية في العصر الحديث ، وما رافق هذا التطور من مشكلات وما كانت له من نتائج بالنسبة لعلماء الطبيعة أنفسهم وللمجتمع ككل . فن منا لم يدخل في نقاش حاد مع أهله وأقاربه حول كروية الأرض وصعود الإنسان إلى القمر ونظرية الارتقاء والتطور ؟ بل إن النقاش حول هذه المسائل ما زال محتدماً حتى اليوم في كل بيت من بيوتنا ومدرسة من مدارسنا وجامعاتنا . فالاكتشافات الهائلة التي توصلت اليها العلوم الطبيعية أجبرت الناس على ترك الكثير من تصوراتهم ومعتقداتهم القديمة حول أنفسهم وحول العالم ، بعد أن نشأ تعارض كبير بين هذه المكتشفات العلمية وبين جملة من التصورات القديمة . هذا من ناحية . ومن ناحية ثانية فقد هزتنا جميعاً ومن الأعماق أنباء إلقاء القنبلة الذرية على المدينتين اليابانيتين هيروشيما وناغازاكي في نهاية الحرب العالمية الثانية ، وما زالت البشرية تعيش حتى اليوم – وفي

المستقبل المرئي – خطر حرب نووية قد تفني الجنس البشري أو جزءاً منه على الأقل . وصنع القنبلة الذرية وغيرها من الأسلحة الفتاكة لم يكن ممكناً لولا التطور الهائل الذي شهدته العلوم الطبيعية ، بل ان القنبلة الذرية هي واحدة من تطبيقات هذه العلوم . ومن هنا بدت – وبشكل مخيف – إمكانية غير متوقعة لاستعمال العلم : استخدامه كوسيلة لتدمير الجنس البشري بدلا من إسعاده وتيسير حياته وزيادة سيطرته على الطبيعة . إن السحر يكاد ينقلب على الساحر . . وهذا هو الشطر الآخر من موضوع المسرحية .

قام برشت بمعالجة هذه المشكلة الهامة من مشكلات البشرية الحديثة من خلال صياغته حياة عالم الطبيعة الإيطالي المعروف غاليليو غاليليه مسرحياً ، ذلك العالم الذي أثبت من خلال المنظار (أي بالدليل الحسي) في مطلع القرن السابع عشر صحة النظرية التي توصل اليها قبله العالم الرياضي كوبرنيكوس (كبرنيق) حول النظام الشمسي ودوران كافة الكواكب حول الشمس تلك . النظرية التي أودت بصاحبها إلى الإحراق حياً على يد السلطة الكنسية ومحاكم التفتيش الرهيبة في روما القرن السادس عشر .

لم يكن اختيار برتولت برشت قصة حياة عالم الفلك غاليليه من قبل الصدفة . فحول هذا العالم وصراعه مع السلطة الكنسية آنذاك حاك الشعب أسطورة وغنى أناشيد شعبية . إن قصة حياة غاليليه وبطولته في مقاومة السلطة السوداء ضاربة الجذور في وجدان الجماهير . كذلك لم يكن الصراع بين العلم الذي يشهد تقدماً مستمراً وبين سلطة تمثل القديم وتحاول يائسة وقف مسيرة التقدم حتى ولو أدى بها الأمر إلى إحراق العلماء أحياء – كما جرى لكوبرنيكوس وجوردانو برونو – ؛ لم يكن هذا الصراع في يوم من الأيام واضحاً كما كان في تلك المرحلة التاريخية . غير ان برشت ، الذي درس أسطورة غاليليه كما درس مؤلفاته وحياته الحقيقية وقام بدراسات في العلوم الطبيعية ولا سيما علم الذرة . لم يكن همه عرض الأسطورة كما نشأت تاريخياً – لم يكن هدفه كتابة مسرحية تاريخية وثائقية – بقدر ما كان يهدف إلى عرض معضلات العلم والمجتمع في المرحلة الراهنة وعلى ضوء تحويل العلم إلى وسيلة للدمار الشامل على يد نظام إقتصادي سياسي معين . وقيام برشت بالانطلاق من الأسطورة القديمة وتطويرها أمر طبيعي ومعروف يفعله كل الأدباء الكبار ؛ إنهم لا يقيدون أنفسهم بالأصل التاريخي إلا بقدر ما يخدم ذلك أغراضهم . هكذا فعل جوته في مسرحيته الشعرية الخالدة « فاوست » وجورج برنارد شو في مسرحية « جان دارك » وصلاح عبد الصبور في « الحلاج » . إن المسرح التاريخي كان دائماً محاولة لمعالجة قضايا الحاضر في ثياب الماضي .

غاليلية البطل

في شخصية عالم الطبيعة غاليليه حقق برشت نظرته إلى البطل كفرد يلعب دوراً بارزاً في التاريخ . فخلافاً لنظريات معينة تحاول تفسير التاريخ على أنه من صنع أشخاص عظماء لا يرقى إليهم الطرف ، منزهون عن النزوات الموجودة في بقية بني البشر . لا يهمهم شيء سوى تأدية رسالتهم التاريخية ، نظر برشت إلى الفرد مها كان « كفرقة من الظروف الاجتماعية ». ونظر إلى العظماء كأناس لا يختلفون كثيراً عن غيرهم من البشر ؛ كلهم يأكلون ويشربون ويحبون الحياة الرغيدة : « حتى نابليون الكبير . . كان يأكل » (من قصيدة : عظماء هذه الأرض) . لذلك صاغ برشت « بطله » غاليليه كإنسان بكل ما في الإنسان من تعداد لجوانب وتناقضات ونقاط ضعف وجوانب قوة ؛ فغاليليه عالم طبيعة يصب كل اهتمامه ويركز كل جهده على البحث العلمي ، ولكن غاليليه ليس عالم طبيعة فحسب ، بل هو مثل ذلك إنسان يحب الحياة بما فيها من مسرات . فهو يحب النبيذ المعتق والحم الطازج ويهوى أشعار هوراس . « هذا الرجل يعرف من المسرات أكثر مما يعرفها أي رجل آخر التقيت به في حياتي . إن له تفكيراً حسياً ، لا يستطيع أن يرفض كأساً من النبيذ المعتق كما لا يستطيع أن يرفض فكرة جيدة . » (ص ١٥٦) . وعندما يتعرض غاليليه إلى الضغط من جانب السلطة الكنسية يفضل أن يسكت سنوات طويلة على أن يموت بالإحراق في سبيل مفهوم مثالي عن البطولة . وبالطبع لا يتفهم تلامذته المتحمسون موقفه هذا فيضغطون عليه من أجل أن يتكلم :

« فدرزوني : لأنك لا تستطيع أن تبقى صامتاً أكثر من ذلك .

غاليليه : كلا لا أستطيع أن أسمح لنفسي بأن أشوى على النار كلحم الخنزير » . (ص ١٢٣) .

وينظر التلامذة الشباب إلى موقف غاليليه هذا كتخاذل وجبن لا ينسجم مع تصوراتهم عن البطل المنشود .

« أندريا : تعيس هذا البلد الذي ليس فيه أبطال . . .

غاليليو : كلا . بل تعيس هو البلد الذي يحتاج إلى أبطال » . (ص ١٦٥) .

وما من شك في أن برشت كان يرد على لسان غاليليه على مفهوم البطولة اللاعقلاني الذي كانت تروج له النازية . وقد فهمت الجماهير ذلك فتحولت كلمات غاليليه هذه الى مثل سائر .

عالم الطبيعة بين البحث العملي والمسؤولية الإجتماعية

كعالم طبيعة يحتاج غاليليه إلى الوقت لكي يمارس عمله العلمي . . لكي يتعلم . . لذلك فهو بحاجة إلى التفرغ . ومن هنا — عن وضعه كعالم باحث — يدخل غاليليو في تناقض مع سلطة مدينة البندقية التجارية ، حيث يسمح له بأن يمارس أبحاثه بحرية ، لكنه لا يعطى مالا يكفيه ليتفرغ للبحث ، مما يضطره إلى إضاعة وقته في إعطاء دروس خاصة لبعض أبناء الأغنياء لكي يسدد « فاتورة بائع اللبن » . فسلطة مدينة البندقية تنظر إلى العلم نظرة تجارية بحتة :

« المدير : أما المعرفة التي تبيعها فإنك لا تستطيع أن تطلب ثمناً لها أكثر مما سيجنيه من سيشتريها منك . لنأخذ الفلسفة مثلا ، تلك التي يبيعها الأستاذ كولومب في فلورنسا . إنها تعود على الأمير بعشرة آلاف من الدوكات في العام على الأقل . قوانينك عن سقوط الأجسام قد أحدثت ضجة كبيرة . اعترف بذلك . لقد صفق لك الناس بباريس وبراغ . ولكن هؤلاء الذين صفقوا لك لا يدفعون إلى جامعة بادوا ما تكلفها أنت . إن سوء حظك هو تخصصك يا سنيور غاليليو » (ص ٢٩) .

في إطار سعيه نحو التفرغ يكتب غاليليه رسالة إلى دوق فلورنسا — وهي مدينة يسود فيها حكم الرهبان ومحاكم التفتيش — طالباً تعيينه عالماً في البلاط . وبالرغم من أن غاليليه يعلم أن حرية العلم في فلورنسا غير متوفرة يذهب إلى هناك سعياً وراء التفرغ . ومدفوعاً بإيمان يمكن أن نسميه « أعمى » بالعقل الإنساني وبقوة الدليل الحسي ، ذلك الإيمان الذي يمثل معتقده الأساسي

« غاليليه : إني أومن بالإنسان بمعنى أني أثق بعقل الإنسان ، انزع مني هذا الإيمان ولن يكون لدي القدرة على النهوض من سريري في الصباح . نعم إنني أومن بقدرة العقل الإقناعية في الرجال . إنهم لا يستطيعون مقاومتها على طول الخط ، إن الإغراء الذي يشع من البرهان إغراء بالغ القوة ، معظم الناس يخضعون له دون تأخر أما الكل فيخضعون له مع الزمن . إن الفكر من أعلى مسرات الجنس الإنساني . » (ص ٥١) .

وبالرغم مما في هذا الإيمان بالعقل الإنساني من روعة فانه في شكله المطلق هذا خاطىء وساذج . فحدود الإقناع والمنطق تنتهي حيث تبدأ حدود المصالح المادية للفئات الاجتماعية . . والأفكار الصحيحة لا تنتشر إلا عندما تجد فئات اجتماعية واسعة وقوية تحملها وتنشرها .

وهذا هو بالضبط ما يعبر عنه صديق غاليليو الذي يحذره من الذهاب إلى فلورنسا حيث يحكم الرهبان الرجعيون :

« ساجريدو : أراك تسلك طريقاً وعراً . . إنها ساعة من العمر تلك التي يؤمن الإنسان فيها بعقل البشر . . . كيف يستطيع هؤلاء الذين يقبضون على أعنة السلطان أن يتركوا رجلا يعرف الحقيقة على حريته حتى ولو كانت حقيقته عن الكواكب الموغلة في البعد ؟ أوتعتقد أن البابا سيستمع إلى حقائقك لو أنك قلت له أنه مخطىء، وأنه سيسلم لك بخطئه ؟ أوتعتقد أنه سيدون ببساطة في مذكراته : « العاشر من يناير ١٦١٠ — ألغيت السماء ؟ » أنت المتشكك المستوثق في علمك تبدو وكأنك ساذج كالطفل تؤمن بكل ما يبدو لك أنه يسهل لك ممارسة عملك . » (ص ٥٦ — ٥٧) .

لكن غاليليه لا يأبه لكل هذه الحجج : « إذا قبلوني سأذهب » .

في بلاط دوق فلورنسا يتلقى غاليليو صدمة لم يتوقعها ، فعلماء البلاط يرفضون النظر في المنظار الذي أعده ويصرون أولاً على مناقشة شكلية . هل مثل هذه الكواكب ممكنة الوجود . . هل مثل هذه النجوم ضرورية في الكون الإلهي عند أرسطو . . » (ص ٦٦) .

في هذه المقابلة مع علماء البلاط رأى غاليليو بأم عينيه حدود المنطق وأن هناك أناساً يدافعون عن الأفكار المحتضرة » لأنها تشكل الأساس الفكري الذي تقوم عليه سيطرتهم ، وأن هؤلاء مستعدون للذهاب إلى أبعد درجات الإرهاب « الإحراق » دفاعاً عن هذه « الأفكار المحتضرة » ، فالاكتشافات التي يتوصل اليها علماء الطبيعة تهز المعتقدات القديمة وتهز السلطة المبنية على أساسها بالتالي .

غاليليو : مشاهدة الكواكب الكبيرة وهي تتحرك ليست هي التي ستوقظ إيطاليا ، إنما الذي يوقظها هو معرفة أن النظريات المقدسة قد بدأت تهتز . » (ص ٧٢) .

كانت محاولة العمل في بلاط دوق فلورنسا تجربة عنيفة بالنسبة لغاليليو . لقد رأى أن العقل لا ينتصر بقوته الذاتية وأن الأفكار الجديدة لا تشق طريقها إلا اذا ناضل حاملوها من أجلها بثبات :

« الراهب الصغير : أولا تعتقد أن الحقيقة إذا كانت هناك حقيقة ، تفرض نفسها أيضاً بدوننا ؟

غاليليو : كلا ، كلا ، كلا ، إن الحقيقة تنتصر بقدرة انتصارنا نحن . إنتصار العقل لا يمكن أن يكون شيئاً آخر غير انتصار العقلاء » . (ص ١١٤) .

لقد توصل غاليليو من خلال تجربته إلى رأي جديد : على العالم أن يقف بصلابة دفاعاً عن الحقيقة التي توصل اليها ، فليس أضر بقضية العلم من التلون والمحاباة مسايرة للحاكمين :

« غاليليو : إن مجموع زوايا المثلث لا يمكن أن نغيره حسب رغبات مجلس إدارة الكنائس » (ص ١١٣) .

« غاليليو : إن الذي لا يفهم الحقيقة غبي . أما الذي يعرفها ويدعوها كذباً فمجرم » . (ص ١١٩) .

التراجع خوفاً

بالرغم من ذلك فقد كان غاليليه هو الذي وجد نفسه مضطراً لأن « يدعو الحقيقة كذباً » . فبعد أن تابع أبحاثه العلمية عشرات السنين بصبر وجلد . . عرف فيها شظف العيش . . ضحى بمستقبل ابنته فرجينيا . . عرض نفسه لخطر الموت بالطاعون . . بعد هذا النضال العلمي المرير الذي أكسبه شهرة عالمية وأوجد له في كافة أنحاء العالم أنصاراً وأصدقاء قادرين على حمايته من أية محاولة للنيل منه . . بعد كل هذا تراجع غاليليو بشكل مفاجيء وغير متوقع أمام التهديد بالتعذيب الذي مارسته السلطة الكنسية . فالكنيسة كانت تعرف قوة غاليليه ومدى شعبيته :

« البابا : هذا الرجل هو أعظم عالم طبيعي في هذا العصر . إنه نور إيطاليا وليس رجلا معتوهاً أو أحمقاً . إن له أصدقاء هناك في فرساي وفي بلاط فيينا وسيدعون الكنيسة مستنقعاً لمجموعة من المتعصبين البالين . لا تمسوه بأذى » (ص ١٥٥) .

لذلك قررت الكنيسة اللجوء إلى التهديد فقط :

« البابا : أفضل شيء تتصرفونه هو أن تجعلوه يشاهد أدوات التعذيب .

كاردينال محكمة التفتيش : سيكون هذا كافياً يا صاحب القداسة .

السنيور غاليليو خبير في الأجهزة » (١٥٧) .

وبالفعل فقد كان مجرد التهديد كافياً لجعل غاليليه يستسلم . في ٢٢ يونيو عام ١٦٣٣ أنكر غاليليه نظريته عن دوران الأرض أمام محكمة التفتيش مخيباً آمال كل تلامذته وأنصاره :

« صوت المنادي : أنا غاليليه مدرس علمي الرياضة والطبيعة بجامعة فلورنسا ، أعلن أنني أستنكر ما كنت أعلمه بأن الشمس هي مركز الكون وأنها ثابتة في مكانها لا تتحرك ، وأن الأرض ليست هي مركز الكون ولا هي ثابتة . إنني أعلن رفضي واستنكاري بل وألعن من كل قلبي وبإيمان عميق كل تلك السخافات والترهات كما ألعن وأستنكر أي تزييف وأية فكرة تعارض تعاليم الكنيسة المقدسة . » (ص ١٦٤) .

أدت ردة غاليليه إلى نكسة كبيرة للعلوم الطبيعية على مستوى الساحة الأوروبية كلها . فمنذ استسلامه لم تنشر في إيطاليا أية أبحاث علمية جديدة . وفي باريس قطع ديكارت أبحاثه عن « طبيعة الضوء » وعاد معظم تلامذة غاليليو السابقين إلى كنف الكنيسة .

بيت القصيد

غير أن التوبة العميقة التي أظهرها غاليليه جعلت الكنيسة تسمح له بمواصلة أبحاثه ضمن نطاق معين وتحت رقابة شديدة . لذلك تمكن من كتابة مؤلفه الهام « المحاورات » الذي وضع فيه أساس علم جديد هو علم الحركة « الميكانيكا » . وفي اللقاء المثير الذي يتم في المشهد الرابع عشر بين غاليليه وتلميذه السابق اندريا يسلمه نسخة من « المحاورات » ليهربها إلى هولندا . وفي هذا اللقاء يعطي غاليليه — أو بالأحرى برشت — رأيه النهائي في مسأله العلم والمجتمع . والذي يستحق أن نورده هنا :

« أندريا : لا يعرف العلم غير مطلب واحد : البحث العلمي » . (ص ١٧٩) .

ورداً على هذا الرأي يجيب غاليليه :

« . . . إنني أومن بأن الهدف الوحيد للعلم هو أن ييسر مصاعب الجنس البشري . فلو حدث أن العلماء الذين أخافهم الأنانيون القابضون على السلطة رضوا بجميع المعرفة فلن يكون العلم حينذاك إلا كائناً ضعيفاً مشوهاً . ولن تكون اختراعاتك إلا وسائل جديدة للاضطهاد . وستصل بمرور الوقت إلى اكتشاف ما قدر لك أن تكتشفه ولكن لن يكون تقدمك إلا تقدماً بعيداً عن الإنسانية ؛ وستصبح الهوة بينك وبين الناس ذات يوم واسعة بحيث يصبح يصيحة الفرح التي تطلقها أمام اكتشاف جديد صدى من صيحات الفزع بين الجميع . » (ص ١٨٢) .

هذا هو لب الموضوع وبيت القصيد : إن التقدم العلمي يتحول إلى كارثة إن لم يرافقه تقدم اجتماعي . والعالم ليس مطالباً بالبحث العلمي فحسب بل هو مطالب أيضاً بالنضال من أجل

نظام اجتماعي يستعمل نتائج العلم من أجل خير البشرية وليس من أجل صنع وسائل الإفناء والتدمير . ومسؤولية العالم تجاه المجتمع لا تقل عن مسؤوليته تجاه العلم ، إذا أردنا ألا يتحول العلماء إلى « مخترعين صغار يمكن أن يستأجروا لصالح أي شيء . » (ص ١٨٣) .

حول البنية الفنية واللغوية

كما هو معروف فان برتولد برشت هو مؤسس مدرسة جديدة في الكتابة المسرحية والعمل المسرحي يطلق عليها « المسرح الملحمي » الذي يقوم على نظرية « فن الدراما اللاأرسطاطالية » . فقد بنى ارسطاطاليس نظريته عن الدراما على مبدأ « التنقية » — اي تنقية نفس المشاهد من خلال « التعاطف » مع البطل — كما اشترط في الدراما أن توهم المشاهد أن ما يراه حقيقي ، وأن توجه اهتمامه إلى نهاية المسرحية من أجل الإحتفاظ بعامل الإثارة حتى النهاية .

وقد وضع برشت لمسرحه الملحمي — « مسرح عصر العلم » — أسساً تتناقض تماماً مع الأسس التي وضعها ارسطاطاليس . فمن مميزات المسرح الملحمي أنه :

لا يجسد الحدث بل يرويه — لا يثير تعاطف المشاهد بل يثير تفكيره بتحويله إلى متأمل لما يجري أمامه بدلاً من أن يكتفي بالمشاركة الشاعرية — لا يستعمل طريقة الإيحاء ، وإنما الحجة والدليل — الإثارة غير مركزة على آخر المسرحية بل على مجرى كل مشهد — الحوادث لا تسير على شكل خط مستقيم وإنما على شكل منحنيات . . . الخ (برشت : ملاحظات حول أوبرا ماهاجوني) .

في مسرحية « حياة غاليليه » حقق برشت تصوراته عن المسرح الملحمي بشكل رائع . فأحداث المسرحية تمتد بين عامي ١٦٠٩ و ١٦٤٢ ، كما تتألف المسرحية من ١٥ مشهداً يشكل كل منها وحدة « روائية ملحمية » ويعرض حدثاً مستقلا نسبياً ضمن الإطار العام للمسرحية ، بالرغم من تفاوت هذه المشاهد في طولها وأهميتها ، فبعضها يشكل مكاناً مركزياً مثل المشهد الأول والثالث والرابع والثالث عشر والرابع عشر . كذلك لجأ برشت إلى أساليب مختلفة لعرقلة عملية « التعاطف » مع « أبطال » المسرحية مثل العناوين التي تتصدر كل مشهد والأبيات التي تنشدها الجوقة في مطلعه شارحة مسبقاً ما سيجري فيه بإيجاز مبطلة عنصر الإثارة . بالإضافة إلى أن القصة ذاتها معروفة لدى الجمهور بالأصل . على هذا الشكل حول برشت المشاهد إلى متأمل مفكر وليس إلى متأثر منفعل فقط .

كذلك جمع برشت في هذه المسرحية بين عنصرين : التعليمي والجمالي – العقلي والعاطفي بشكل متوازن ورائع . فنحن نتابع عملية التعلم التي يمر بها غاليليه خطوة فخطوة ونتوصل معه إلى نفس النتائج التي يتوصل إليها مستعملين في ذلك العقل والمنطق ، في نفس الوقت نتابع بعواطفنا ذلك الصراع الدائر بين غاليليه والسلطة الكنسية ونقف إلى جانبه ونتضامن معه . وعندما يتراجع غاليليه فإننا نتألم لخطوته هذه ونتمنى لو أنه صمد وقاوم .

جانب بارز آخر في مسرحية « غاليليه » هي اللغة . ولئن كانت عملية النقل إلى العربية (من الإنكليزية وليس من الألمانية) قد أفقدها جزءاً كبيراً من روعتها اللغوية ، فان اللغة تأخذ فيها بالرغم من ذلك أهمية خاصة . فكما هي الحال في سائر أعماله الأدبية كتب برشت « حياة غاليليه » بلغة بسيطة واضحة مفهومة وآثر الابتعاد عن كل تعقيد لغوي لا لزوم له . كان برشت يحرص باستمرار على كتابة أعماله بلغة بسيطة تفهمها الجماهير الواسعة . بدون أن يقع في الابتذال والتبسيط ، بدون أن يكون ذلك على حساب النوعية الفنية – الجمالية لأدبه – وهنا تكمن المقدرة ، تكمن « المعلمية » . إن أدب برشت تنطبق عليه جملة الدكتور طه حسين عن الأدب « السهل الممتنع » . إذا قرأه الجاهل ظن أنه يتقن مثله .

سهولة أسلوب برشت ووضوح لغته . وأناقتها ليست وليدة الصدفة ، بل ترجع إلى إلتزامه تجاه أوسع جمهور ممكن من القراء والمشاهدين – التزامه بمصلحة الجماهير الشعبية التي من حقها أن تقرأ الأدب وتفهمه . الجماهير الشعبية التي كتب لها برشت بالأصل . . . على العكس من بعض الكتاب « الفنيين » – أرتستيين – الذين يحرصون بدافع من مواقعهم الفكرية النخوبية على الكتابة بأسلوب صعب معقد لا تفهمه إلا قلة قليلة من الناس ، معتبرين أن الأدب والفن إطلاقاً – يعني النخبة المثقفة وحدها ولا يعني الجماهير الواسعة التي « لا تفهم » حسب رأيهم – لكن لغة برشت البسيطة والأنيقة في آن واحد لا تمارس وجوداً مستقلا ، بل تتناسب مع موضوع المسرحية وشخصياتها . فمسرحية « حياة غاليليه » ذات موضوع علمي وهذا يتطلب أن تكون لغتها علمية دقيقة . وبرشت الذي قام باطلاعات واسعة في العلوم الطبيعية وبدراسة مؤلفات غاليليه بتعمق تمكن من إتقان اللغة العلمية ومن استعمالها بشكل بالغ في الروعة .

في نفس الوقت تحمل لغة كل شخصية من شخصيات المسرحية طابع الفئة –والبيئة – الاجتماعية التي تنتمي اليها وطابع الاتجاه الفكري الذي تمثله . لذلك نجد أن لكل من هذه الشخصيات لغتها وأسلوبها الذي يختلف عن أسلوب غيرها . فلغة كل شخصية هي سمة من سماتها

وميزة من مميزاتها . نعم إن اللغة هي علامة من علامات الشخصية : قل لي بأي لغة تتكلم وأنا أقول لك من أنت .

لذلك لا عجب أن يأخذ الصراع بين غاليليو وبين السلطة الكنسية طابع صراع بين لغتين . في المشهد الرابع الذي تتم فيه المواجهة بين غاليليه وعلماء البلاط يبدأ الفيلسوف بالتكلم باللغة اللاتينية ، لغة الفئة المسيطرة ومثقفيها التي لا تفهمها عامة الناس ، فيقاطعه غاليليه على الفور ويرجوه أن يتكلم اللغة الدارجة :

« الفيلسوف : أريستوتلس ديفني يونيفرسوم . . . .

غاليليه : أولا تستطيع أن نتابع حديثنا باللغة الدارجة ؟! إن زميلي الأستاذ فدروزوفي لا يفهم اللاتينية .

الفيلسوف : لو أصر الأستاذ فدروزوني .

غاليليو : إنني أنا الذي يصر .

الفيلسوف : إن الفقرة تفقد بلاغتها ، ولكننا في بيتك . » (ص ٦٦/٦٧) .

إن غاليليه يريد أن يفهم علمه من قبل أوسع الجماهير . في حديثه مع تلميذه الفقير أندريا يقول له : « إني أريدك أنت بشكل خاص أن تفهمه . لهذا أعمل وأشتري الكتب الغالية حتى يفهم هذا النظام أناس مثلك . » (ص ١٨) . لقد كان من أهم مآخذ الكنيسة على غاليليه أنه كتب أبحاثه بلغة عادية : « لا زلت حتى هذه اللحظة موضع مؤاخذة لأنني كتبت ذات يوم كتاباً عن الأجرام السماوية بلغة العامة في الأسواق . » (ص ١٧١) وعن اللاتينية — لغة الكنيسة ولغة الحاكين يقول غاليليه التائب : « إن الشعب يعجز عن فهم النص اللاتيني ، أما أنا فأرفض أي تبسيط عامي في الأمور المقدسة ، إذ ان لغة الكنيسة التي تصون حقائق الكنيسة الأبدية من فضول الجهلاء . . الخ » (نفس الصفحة) .

مما سبق تتبدى لنا الأهمية الكبيرة التي تأخذها اللغة عند برشت . ولقد نجح برشت في « حياة غاليليه » بشكل رائع في اختيار اللغة التي تعبر عن الواقع الاجتماعي والفكري لكل الناس من شخصيات المسرحية ، فحقق إنجازاً لغوياً عظيماً قل أن نجد له مثيلا في الأدب الألماني . إن عبقرية برشت اللغوية تتجلى في قدرته على استعمال أبسط وأوضح أسلوب ممكن للتعبير عن أكثر المواضيع دقة وتعقيداً . ظهرت هذه العبقرية في أوضح أشكالها في بعض قصائده « الوجدانية » مثل : « عظماء هذه الأرض » و « أسئلة عامل يقرأ » و « إلى الذين سيولدون بعدنا » وغيرها ،

وغيرها . وفي مسرحية « غاليليه » برهن برشت على مقدرته اللغوية الفائقة من جديد . لقد طوع برشت اللغة الألمانية وأخضعها تماماً لأهدافه .

* * *

إن مسرحية « حياة غاليليه » عمل أدبي تتوفر فيه كافة عناصر الجودة : الموضوع المهم . والبنية المسرحية الملائمة والأسلوب الجيد ، إنها مثال للعمل الأدبي الكامل الذي يتصف بتلك الوحدة الجمالية الرائعة بين المضمون والشكل . ولئن كان السيد بكر شرقاوي قد أدى بنقلها إلى العربية خدمة جليلة للمسرح العربي وللقارىء العربي ، فاننا نتطلع إلى اليوم الذي نشاهد فيه هذه المسرحية الرائعة تمثل على خشبات مسارحنا .

* * *

مسرح الهواة في تجربة الإلتزام

محمد أديب السلاوي

تفتحت في المغرب في فترة ما بين الحربين العالميتين ، ظاهرة فنية ، اجتماعية ، وفكرية. تمثلت في « النوادي الفنية » ، التي أمها وقتذاك ، أدباء من الشباب النشيط المتحفز للعمل النضالي من أجل استقلال البلاد وكرامتها .

ولقد كانت نشاطات النوادي الفنية التي ظهرت في فاس ، وطنجة ، والدار البيضاء ، ومراكش ، وسلا ، وتطوان ، تترجم الايديولوجية الوطنية ، إلى « مسرحيات » وتعكس التزام المناضلين إلى عمل درامي عرف الكثير من النجاح .

وتشهد الوثائق التي تركها لنا مسرح تلك الفترة ، ان الجمهور أقبل على المسرح بحماس وشغف ، لانه وجد فيه متنفساً لكبته السياسي ، والحضاري ، والاجتماعي ، ومنطلقاً لآماله نحو الحرية والاستقلال والكرامة الوطنية .

ودون أن ندخل في التفاصيل التاريخية لهذه الفترة (١) يمكن التأكيد على أن رواد المسرح المغربي ما بين الحربين ، وما بعد الحرب العالمية الثانية ، قد غذوا حركة التمثيل المسرحي الصحيح ، وربوا جمهوراً واعياً للمسرح ، وفتحوا الآفاق على المشاركات الفنية والأدبية ، المتصلة بالمسرح ، إضافة إلى التزام ذلك المسرح بالقضايا الوطنية التي كانت تهم الشعب المغربي قاطبة ؛ حيث عكست العديد من المسرحيات الحماس الوطني ، والنضال القومي من أجل استقلال البلاد وحريتها .

— ١ —

والآن ، وقد مرت على استقلال المغرب زهاء عشرين سنة ، أين يقف مسرح الهواة في المغرب ؟

بعد الاستقلال ، عرف المغرب موجة هائلة من فرق الهواة ، وهذه الموجة هي التي أعطتنا الأطر المسرحية التي ما زلنا نرتكز عليها في مختلف ميادين المسرح ومجالاته ، وهي التي قدمت لجمهور المغربي روائع المسرح العالمي ، ودفعت بعجلة التأليف المسرحي خطوات هامة إلى الأمام .

وعلى الرغم من أن فرق الهواة ، قد توارت ، واختفى الكثير منها ، إلا أن المسرح المغربي بصفة عامة لا يعبر عن وجوده المسرحي اليوم إلا من خلال فرق الهواة ، إن تلك الفرق هي التي استطاعت أن تميط اللثام عن وجود طاقات شابة ، وهي التي ما زالت تكد وتناضل ، من أجل وجود مسرحي مغربي متكامل .

فقد لوحظ في مهرجانات مسرح الهواة ، خلال المواسم المنصرمة ، ان المواهب والطاقات التي تتوفر عنها فرق الهواة في التأليف والإخراج والتمثيل ، في استطاعتها ، ان تغير وجه المسرح إذا ما فسح أمامها المجال وأعطيت لها الفرصة كاملة .

فمن خلال ذلك المهرجان تبين للنقاد ، وللمسؤولين عن المسرح :

١ — ان ٩٠ في المئة من أعمال الهواة مغربية صرفة وتحمل طابع الأصالة ، وتتميز بروح العمل الجاد والملتزم .

٢ — وانها تحاول في مجملها طرح قضايا ذات صلة وثيقة بالمواطنين وبالظرف الدقيق الذي يجتازه المغرب اليوم ، الشيء الذي يؤكد ادراك الهواة ووعيهم الكامل لعمل المسرحي .

٣ — وان هذه الفرق تتوفر على طاقات كبيرة وهائلة في مختلف الفنون المسرحية .

٤ — وان المؤلفين في صفوف الهواة يمتازون برؤياهم المخلصة إلى التراث الوطني سواء كان ذلك التراث أدباً ، أو فناً ، أو فلكلوراً . فاذا ما قارنا حصيلة ما قدمه الهواة في السنوات العشر الماضية ، بما قدمه المحترفون في المسرح المغربي سيتأكد لنا أن الفرق المحترفة لم تقدم شيئاً ذا بال ، وأن هذه الفرق أصبحت لا تخدم المسرح بقدر ما تسيء اليه بعروضها المتكررة المقتبسة غير اللائقة بظرفنا التاريخي والحضاري .

ولمعرفة الواقع الآني لمسرح الهواة ، يمكن الرجوع إلى الإحصائيات الرسمية :

في إحصائية لوزارة الشبيبة والرياضة والشؤون الاجتماعية ، ان المغرب يتوفر على أكثر من ١٥٠ فرقة هاوية في مختلف أقاليم المملكة .

وهذه الإحصائية تعني أن قطاعاً هاماً من الشباب ، من المتعلمين ، والمثقفين ، اختار المسرح كأداة ثقافية للتعبير عن ذاته وآماله .

وتعني هذه الإحصائية كذلك ، ان المسرح ، يسهم بدور فعال في تنشيط الوقت الثالث لشبابنا باعتباره ثقافة وتربية .

وفي إحصائية أخرى لنفس الوزارة أن رواد مسرح الهواة ، ينتمون في الغالب إلى التعليم ، والقطاع العام ، وهذا يعني ان رواد المسرح من الطبقة المتوسطة الدخل . . والثقافة .

فأين يعيش هذا القطاع الهام من الشباب ؟

الجواب الطبيعي والحتمي على هذا السؤال يتلخص في هذه النقط :

١ — فرق الهواة تعيش فقراً مدقعاً من الناحية المادية ، الشيء الذي يفرض عليها البقاء في الظل ، بعيدة عن الجمهور المسرحي ، وعن عالم المسرح .

٢ — ٩٠ في المائة من هذه الفرق لا تتوفر على نوادي لائقة .

٣ — ٩٠ في المائة من هذه الفرق لا تتلقى أية إعانة مادية من المؤسسات المعنية بالأمر .

٤ — أغلبية الفرق لا تعرف معنى للارشاد المسرحي ، ولا تتلقى من إدارة المسرح أية إعانة تقنية أو معنوية تساعدها على تطوير نفسها .

٥ — إن فرق الهواة تعاني في مجموعها فقدان المعرفة المسرحية . والمقدرة التقنية اللازمة التي من شأنها أن تساعدها على الظهور .

– ٢ –

وعلى الرغم من الحصار المضروب على مسرح الهواة ، فان تجربته بعد استقلال المغرب أصبحت تشكل اتجاهاً خاصاً مميزاً في المسرح المغربي ، بل انه أصبح يمثل الوجه الآخر غير غير الرسمي للمسرح في البلاد ، وهذا ما جعله أكثر استيعاباً للادباء الملتزمين من جهة ، والتجارب الفنية الجريئة من جهة أخرى .

ان حركة مسرح الهواة ، وما تعانيه من فقر في الإمكانيات ، ومحاصرة في العرض فانها قد استطاعت المضي في طريقها نحو اعطاء المسرح المغربي صفات الحضور والمسؤولية ، وهذه الحركة ركزت مسيرتها على مستوى جيد من التجارب التي قدمتها الفرق انطلاقاً من رؤاها الشاملة للفن المسرحي ، التي تجمع بين الإبداع والمسؤولية وبين العمق والبساطة ، بعيداً عن تمثل الانبهارات التقنية ، والفوضى في استعمالها وبعيداً عن السقوط في المزايدات الإنفعالية التي (طبعت المسرح المحترف) والتي لايمكنها ان تنتج مسرحاً وادباً مسؤولا .

ففي دائرة حركة النضال الجماهيري من أجل التغيير وفي اطار تفاعلات حركة مسرح الهواة ، انطلق هذا المسرح معلناً انتقاده المباشر للعلاقات الإجتماعية ، والسياسية والإقتصادية التي تحاول دعم استمراريتها من الميراث الإستعماري الذي بقي عالقاً بطبقة معينة ، ومعلناً في ذات الوقت عن تأكيده الدائم والمستمر للقيم الإيجابية المرتبطة بحركة النضال الوطني مستخدماً في ذلك ، أساليب تقنية في منتهى الإبداع والروعة والجمال ، والبساطة .

فخلال عدد من المهرجانات المسرحية الخاصة بالهواة ، سجل هذا المسرح تحولا مهماً في مظاهر الوعي لدى المسرحيين الشباب ، وسجل إضافة إلى ذلك ، قدرته على احتكاكه بالجماهير التي ألفت من حسابها كل الخرافات المعوقة لكل تطور حضاري جديد ونعتقد ان مرجع هذا الوعي الناضج الذي طبع حركة مسرح الهواة منذ ولادتها إلى اليوم ناتج عن احتكاكها الدائم بالجماهير الواسعة ، حتى يتراءى لنا من خلال العديد من العروض انها صوت منبعث من واجهة الإنسان المسحوق الذي افتقد ضمانات وجوده واستمراريته .

– ٣ –

فما هي اذن مؤهلات هذا المسرح ؟

مؤهلاته أدبية صرفة ، انه يحتضن مجموعة من الأدباء الواعين والملتزمين ، الذين تمرسوا

على الكتابة المسرحية ، فتعانقوا مع معطياتها ومتطلباتها ، وأعطوا جملة من المسرحيات التي تفتخر خزائننا الأدبية بها ، وتعتز .

وقبل ان نستعرض نماذج من هذه المسرحيات لابد من الإشارة إلى ان الطابع المميز لهذا التراث ، هو الإلتزام بالقضايا الوطنية الآتية ، ويتمثل هذا الإلتزام في :

١ – عكس وادراك الفساد المتفشي في طبقة البورجوازية .

٢ – بلورة المطالب الشعبية في التغيير الاقتصادي والحضاري والإجتماعي .

٣ – تجسيد المشاكل المعاشة على الصعيدين السياسي والإجتماعي .

وعلى المستوى الفني البحت ، يبدو لنا هؤلاء الأدباء والشباب الجدد في مسرحياتهم ، وكأنهم قد استوعبوا تجربة الجيل الماضي كاملة ، كما انهم قد استوعبوا واستفادوا أيضاً من تجربة جيلهم ، ومن المؤكد ان هؤلاء الكتاب ، يعملون على تجاوز الأجيال التي سبقتهم — من الناحيتين الأدبية والتقنية — وحققوا في ذلك شيئاً من النجاح على المستوى الجماهيري . ان مسرحياتهم تؤكد انهم قد استوعبوا أكثر الوسائل الفنية حداثة ، وهي لهذا تكشف لا عن موهبة هؤلاء ، ولكنها تكشف عن قدر كبير من النضج الفني عندهم .

— ٤ —

على رأس قائمة كتاب مسرح الهواة يوجد محمد تيمود(٢) .

وهذا الكاتب غزير الإنتاج ، كثير التجارب ، وتجاربه برمتها تؤكد على شيء واحد ، المضمون الإنساني .

ونختار من هذه التجارب مسرحيته الشهيرة : « خيوط ... حبال شعر ... » التي تقدم بها للمهرجان الوطني الثالث عشر لمسرح الهواة .

كاتب المسرحية ومخرجها دائم الرحلات والأسفار في عالم المسرح ... أعماله المسرحية السابقة كلها رحلات استكشافية ... يبحر فيها من جزيرة إلى أخرى .

وآخر جزيرة استقر بها في رحلته الجديدة سنة ١٩٧٢ جزيرة الصمت . . إذ انهى علاقته مع اللغة وقال لها . . مع السلامة ... وبالمقابل طرح اللغة الإنسانية الأولى الحركـــــة ...

ان يونسكو كشف القناع عن خواء الألفاظ ، وعبث المسميات ... ومحمد تيمود قبض على لغة الصمت وتخلص من النص المكتوب ، ، في رأيه : ان كاتب النص لا ضرورة له في المسرح ومن هذا الرأي قتل المؤلف صانع اللغة ، وشيع جثمانه على خشبة المسرح .

ولكن ؟ !

هل اكتشف لغة أخرى جديدة ؟

المسرحية تقول نعم . تقول لغة جديدة ، لغة الوحدة الإنسانية المشتركة في الفهم والأدراك والعواطف .

أبطال مسرحية : «حبال خيوط شعر» ، يرسفون في القيود . . ويتمددون في التوابيت ، وهم في حالة من السكونية المطلقة ، وقضيتهم المطروحة على مسرح الأحداث غير واضحة ، بالنسبة للعقل المسيطر على اندارهم وحياتهم ، يتحركون وسط ديكورات لزمية تغلب الكبير وكأنهم الرسوم المتحركة ، في افلام والت ديزني . . (٣) .

امرأة وزوجها يحكيان بالصمت مأساة أمنا حواء ، وأبونا آدم ، وولدهما القاتل والمقتول ، الأجيال تولد ، وتنمو ، وتلعب ، وترقص ، فوق آلة الحرب . . ثم تدخل إلى التابوت ميتة ، وتخرج حية من جهة أخرى . . ! ! . دورة الحياة . . الحرب القاتلة تحصد والحياة تزرع ،والزوجة وزوجها يرفضان الاستسلام . . ويرفضان الموت باسم الحياة عالم غامض يعرضه تيمود ، في لوحات تشكيلية تسأل :

مـــا المصـــير ؟ ! !

السؤال المأساوي ترك تيمود الاجابة عنه الى الجمهور كتجربة لاكتشاف قدرة الصمت على الغاء الحواجز بين المركبات التقليدية . .

وقد نجح الكاتب المخرج في الوصول بتجربته الى مداها البعيد . .

سأل أحد أبطال المسرحية الجمهور . .هل فهم أي شيء في عالم المسرحية . .

ام تعاد المسرحية من جديد في عرض ثان ؟ !

وهنا تبلغ المأساة حد الفقاعة . .

تقول مسرحية تيمود : أننا سنبقى في محنة وجودية مادام عالمنا يمارس : صناعـــة الحرب والدمار ، وسوف تنفجر الكرة الارضية في يوم من الايام ، والانفجار مسألة توقيت فقط ويقتطع الحبل ، والخيط ، والشعر ، وتتطاير الكرة شظايا ورمادا في الفضاء الخارجي وتتم النهاية معلنة انه : في عصر صناعة الحروب انفجر كوكب الكرة الارضية . .

قضية كبيرة ، ، قضية الحرب والسلام تطرح على الجمهور بلا لغة ، وبلا وحدة زمانية ومكانية ، فهل ادرك الجمهور لب القصة وعمقها ؟

الجمهور ادرك بلغة الفطرة ، وبعواطفه الانسانية ابعاد القضية وعانق رؤيا محمد تيمود من الداخل ، عناق الصمت الفاجعة ، صمت الحقيقة الصارخة .

ان التطلع الى التجربة الانسانية ، ومعانقة ماهو انساني في مسرح تيمود كان لابد ان يرتقي بالجو المسرحي الى ابعاد ماقبل اللغة ، ومابعدها ، ومن هنا فان تكسير اللغة له مايبرره في هذه المسرحية ، خاصة وان التركيبات الموسيقية ، والحركة الضوئية والمسرحية دفعت بالكاتب — محمد تيمود — ان يكون شاهدا على عصره ، فانطلق صوته من الوحدة الشعورية بالقهر والاستلاب والموت ، لدى الجماهير .

في المضمون الفكري والاجتماعي ، للمسرحية يطرح لنا المؤلف منذ اللوحة الأولى شعار الازمة الوجودية للانسان ، ويطرح معها كل ردود فعله من هذه الازمة نتيجةلاحساسه بالغربة ، وبعدمية اليقين السياسي .

— ٥ —

ومن الكتاب الشباب العاملين في قطاع مسرح الهواة ، الاستاذ احمد العراقي . . وقد اكد العراقي حضوره في اطار مسرح الهواة ، وعلى الرغم انه استطاع الحصول على عدد من الجوائز الهامة ، فانه ارتبط بالهواة ، ولم يتجاوزهم الى الاحتراف ، يقينا منه دون شك بان العمل مع الهواة ، يعطي الكثير من الدلالات الهامة ، ومن ابرز اعمال الاستاذ العراقي ، مسرحية « لحوم في المزاد » ، وهي مسرحية عقلية واضحة المعالم تطرح قضيتها مباشرة على الجمهور ، انها قضية الارض ، والاقطاع .

فن خلال هذه المسرحية يطرح المؤلف رؤيا شاملة للانسان المسحوق ، وبيئته ووسائل عيشه ، يتحرك ابطالها في اطار صراع طبقي ، ابتداء من الوحدة الشعورية بالضياع ، والاغتراب ، وعدم الفعالية ، وافلاس كل مشروع انتماء حقيقي الى العالم لدى الفرد ، والجماعة ، الى الدخول في المجازفة بكل شيء عن طريق الفعل الثوري « لكن . .هل اعتمد هذا على تعميق مفهوم الثورة بالنسبة لنماذج الطبقة المسحوقة ، وهل كانت الرؤيا الجديدة في كشف الحقيقة تجسد الامل الكبير وراء الصراع ؟ . وبالتالي هل يمكن ان نخلص الى ان أزمة الفعل الثوري في المسرحية ، هي انعكاس لازمة الشعور بالتغيير التي لم تتبلور في القضاء على الطبقة القائمة ، نتيجة لانحراف الوعي عند « بعض أفراد » الطبقة (الثائرة) التي تخلت عن انتمائها الطبقي رغبة في التسلق وتبنت فكرة مصلحية صرفة وراء مواقفها ؟

انها ازمة وعي في الفكر السياسي لدى البرجوازية التي تتوجه بالنقد رغبة في التسلق، فيكون تمردها توقا الى اطماع فردية ، سرعان ماتنتهي حين يتم الانتماء الى اعلى ، او يتم السقوط كما حدث في المسرحية .

تلك إذن صورة النضال العفوي الذي لا يمكن ان ينتج في ظل غياب التنظيم الجماهيري لأن ايجاد حل موضوعي لوضعية طبقية مزرية ، لا يمكن ان يتم عن طريق تحسين وضعية فرد معين ، بل لابد أن تكون الإنطلاقة من الإنسان الجماعة ، إلى الإنسان الفرد ... » (٤) .
وتعالج المسرحية ، عن طريق شخوصها المتحركة ، « حادة » و « أوجيست » الاتجاه الانتهازي في الحركات السياسية المشلولة التي تركب موجة الثورة من الخلف ، وتدور في دوامة الدعوة إلى التغيير ، دون ان تلتحق بالذين يمارسون عملية التغيير عن كثب ، أو من « الداخل » .

ويبقى الفعل الثوري مجرد شعار أجوف يرفعونه بلابطولة ، وراء تنازلات تكتيكية يقدمها لهم الاقطاع قبل ان يحلق رؤوسهم ، وبهذا يكون فعلهم غير هادف في ظروف غامضة طبعاً (٥) ، المسرحية تؤكد ان خلاص العالم الثالث ، الرازح تحت الإقطاع ، في عدالة اجتماعية قائمة على النهج العقلي ، وفي القضاء على الأوصياء ، وفي تجديد المفهوم الأخلاقي .

— ٦ —

ومن أدباء المسرحية في حركة مسرح الهواة ، محمد بالنا ، وابرز أعماله المسرحية « طبوزا والما الحلوا » .

فعندما عرضت هذه المسرحية لأول مرة في مهرجان مسرح الهواة سنة ١٩٧٢ أثارت الكثير من الجدل ، لأنها حاولت تخليص الصراع المذهبي والعقائدي الذي يصطخب فيه العالم الثالث ، هذه المسرحية ترفع منذ الوهلة الأولى شعارات تلقائية أصطلاحية ، بدون ان ترسم بديلا للرفض الذي يتبناه أشخاصها للوضع العام ، وذلك لكون الرفض في حد ذاته لم ينطلق من احساس مشترك بضرورته ، ولم يعانق القهر المسلط على سكان القرية كقضية تشغل بال الرأي العام الحر ، في غير القرية ، لأنه لولا استبداد « طبوزا » بماء بئر القرية ، ولولا الظمأ في داخل سكانها إلى الماء العذب ، ولولا الحاجة الفردية التي كانت تحرك كل شخص على حدة لما تولدت في أذهان سكان القرية فكرة التحرر من سيطرة« طبوزا » النموذج الإقطاعي (٦) .

ومن هنا نستطيع ان نخلص إلى معانقة التحرر من القيود الإستعمارية ، ومحاولة الخروج من المستنقعات التي لم تأت عن وعي بقضية التحرر الجماعي ، هنا أو في باقي الاصقاع التي تعيش الإختناق .. بل كانت عفوية ، ترتبط بذات الرافضين وغاياتهم ، ولا تلتف إلى غيرهم من المحرومين ، وهذا ما جعل المؤلف محمد يالنا يختار طريقة ساذجة التخلص من (طبوزا) الذي حرم باقي سكان القرية من التمتع بماء البئر العذب التي احتفظ بها لنفسه وأعوانه ذوي الانجاه الإنتهازي من الحراس . . الطريقة التي اختارها المؤلف هي أن يشرب الشرعين سكان القرية ، فيكون الحلم نهاية لهذا الإستبداد ويلتقي (طبوزا) مع أهل القرية حين يتفق معهم على صنع حبل جديد للبئر ، يستطيع الكل ان يستقي بواسطته . . . . انه الوعي السياسي عند المؤلف الذي لا زال لم يتبلور بعد في موقف صريح من قضايا العصر (٧) .

لقد حاول المؤلف ان يجسم قوة الشر في شخص (طبوزا) المانعة لسكان القرية من بئر الحياة كما حاول عقلنة الأحداث التي مرت بالقرية « أرضية المسرحية الصلبة » .

والمؤلف مع كونه في بداية الطريق ، قد كشف عن وعي عميق للقضية المسرحية ، وللأحداث الزمنية التي استقى منها شخوصه ، وأحداثه .

-- ٧ --

ومن أبرز الوجوه الأدبية في هذا الإتجاه ، محمد شهرمان ، الذي قدم نكسة أرقام ... والضفادع الكحلا ، التي فازت بجائزة أحسن نص مسرحي في المهرجان الثالث عشر لمسرح الهــواة .

ومحمد شهرمان ، يكتب مسرحية « الضفادع الكحلا » ليجسد مفهوم النضال الذي ينبغي ان تخوضه الشعوب المستضعفة التي لا تملك ان تقود نفسها ، والتي تتعرض لأنواع من الاضطهادات ، ويقر في بداية مسرحيته ضرورة الإيمان بفكرة التحول من مجتمع رأسمالي منخور ، إلى مجتمع اشتراكي تنمحي فيه كل الصراعات . . ويقرن الإيمان بالجماعة فتكون كل التحركات جماعية نابعة عن ايمان واحد ، تطلب من الطبقة الحاكمة ان ترفع أيديها عن الحكم ، وتطلب من الطبقة الغالية ان تشد بأيديها إلى جانب المغلوبة وتطلب بالتغيير في زمن انهارت فيه المفاهيم الرأسمالية ، وسلاحها في ذلك هو التشبث بالغدير ، الرمز للأرض في فلسطين ، والحرية في انغولا والمبدأ عند شعوب العالم المتخلف .

الضفادع ترفض ان تغادر ترابها في الأرض المحتلة ، وترفض ان تتنازل عن حريتهــا

في الشعوب المستعمرة (بالفتح) وترفض انلانشارك في معركة الحرية عند الشعوب نصف المستقلة ..

ومن هناك تنطلق شرارة المقاومة الأولى ، من أجل أن تنعم الضفادع بغديرها الهادىء وزرقة سمائها الصافية ... لكن قوى الطغيان ماكانت على مر التاريخ لتستسلم فيكون حتمياً على الضفادع أن يدخلوا في المعركة الإيجابية ، حسب الظروف الموضوعية للدخول في المعركة وحسب ما تقتضيه استراتيجية النضال التحرري (٨) .

(الضفادع الكحلا) تجربة مسرحية واعية ، تجمع بين روح المسرح وشاعريته ، وجماليته بالاضافة الى أنها تبلور موقف الكاتب الايديولوجي من قضايا الاغتصاب والتحرر ، من خلال حوارها المسجوع وتعبيرها عن رفض الكاتب المطلق لكل محاولات القهر والتسلط ، ولكل أنصاف الحلول التي تطرحها الانتهازية في العالم المقهور .

— ٨ —

ومن رواد هذه الحركة ، عبد العظيم الشناوي ، صاحب مسرحية (انكسر الزجاج) و (المشنقة) واحد أعمدة مسرح الهواة في الدار البيضاء منذ ما يقرب من خمس عشرة سنة .

ان الطابع الذي يميز كتاباته المسرحية ، فكرة التغيير التي ينبغي ان تشمل المجتمع ككل ، ويمكن اعتبار مسرحيته « الخوف .. الصمت .. القلق » تجسيداً لهذه الفكرة التي جند نفسه للدفاع عنها منذ بداية حياته الفنية .

انها مسرحية تهدف المساهمة في حركة التغيير ، وتعتمد في ذلك على أرضية صلبة ، اذ تحكي قصة مدير لأحد السجون ، انتهازي ، جلاد ، يقسو على السجناء ، ولا يحترم حقوقهم الإنسانية بما في ذلك المرأة التي تشاركه الحياة ، وحين يسلط الضوء الأخضر على الخشبة تبدأ عذابات هذا المدير الذي كبر خوفه من المفتش الذي ينتظر زيارته في كل لحظة وعذاباته طبعاً ناتجة عن خوفه من التعرية والفضح التي من الممكن ان تلحق به لدى زيارة المفتش .

ونظراً لكون المدير يعيش عزلته ، ويعاني من وطأتها ، فقد هرب إلى التقرب من حارس التحق أخيراً بالعمل داخل ادارة السجن .. فافصح له عن كل شيء ، في الوقت الذي كان فيه السجناء يشنون أضراباً عن الطعام من أجل تحقيق مطالبهم ..

ويتضح عندما يسدل الستار عن شطحات المسرحية ان المفتش ليس سوى الحارس الجديد . وتكون النهاية .

هذه المسرحية تطرح وجهة النظر الأخرى التي يصطخب بها عصرنا .. الوجودية ، الطرف المعاكس للنظرية المادية التاريخية ، هذه المسرحية لاتبحث في واقع الإنسان المادي

ولا الروحي . . انها تبحث في قضية اللاشيء الوجودي . . تقلب العبث على جميع وجوهه في انتظار المفتش للخلاص الذي جاء ولم يجيء ... وشخصية المدير سجان الذوات وسجين ذاته . . وزوجته . . والسجناء والحراس . . والمفتش . . الكل في اقفاص الذات يتمرد ويبحث عن خلاصه الفردي ليحقق ذاته .

القضية هنا : تحرر الذات من الغرائز وتحديد معنى وجودها . . وبالتالي حياتها لتصل إلى مرحلة الإنتباه إلى الواقع المادي ، وتحديد معناه ، بتحديد معنى الذات ...

دوامة من الفلسفة . . دوامة لانهاية لها . . ان التجربة وجودية وعميقة ، بسطها عبد العظيم الشناوي ليقترب بها من فهم الجمهور . . ولكن هل اتى له ذلك ، فالفكر الفلسفي الوجودي ومعاناة التجربة الوجودية مشكلة تستعصى على كل عبقرية ادبية ... سارتر الذي طرحها علمياً في تجربة الذات « رواية الغثيان » فشل في نقل كل معاناته ... وعاد إلى طرحها علمياً في كتبه الفلسفية ... ان القضايا الفلسفية حينما تصبح ذاتية ضخمة يصعب تخطيطها على الورق . . ويسيء اليها أكثر ان هي تحولت إلى التبسيط الساذج لارضاء للجمهور ، أو لمحاولة الاقتراب منه ...

ان البعد الفكري الذي تطرحه تجربة عبد العظيم الشناوي الوجودية ، لم تفهم على حقيقتها لسبب انها معاناة داخلية غير قابلة للتجسيم في الحركة رغم تحويلها إلى الواقع الملموس (٩) .

— ٩ —

تلك كانت بعض الإتجاهات المميزة في مسرح الهواة ، ومن خلال هذه الإتجاهات يمكن ان نخرج بالملاحظات التالية :

١ — ان تجارب مسرح الهواة رائدة ، مطعمة بدماء جديدة ، وباطر تطمح إلى خلق مسرح قومي مميز .

٢ — إن هذه التجارب سجلت حضورها في ملف المواجهات الحقيقية التي تتبنى الوضوح الفكري والمواقف المكشوفة .

٣ — إن هذه التجارب اختارت أيضاً اللون السياسي والاجتماعي لنشاطها ، إيماناً من رواد هذا الاتجاه بأهمية هذا اللون في المرحلة الحالية من حياتنا الحضارية والسياسية .

٤ — اتخاذ أرضية فكرية صلبة لانطلاق هذا الاتجاه في مواجهته للجمهور وفي عناقه معه .

٥ — إن مسيرة مسرح الهواة ، تبعاً لذلك قد تجاوزت الإطار الذي حاولت الأجهزة الرسمية أن تحيطه بها في المهرجانات والمناسبات الدورية .

جـــــدول

ابرز المؤلفات المسرحية التي قدمها مسرح الهواة بعد الاستقلال

اسم المؤلف	عنوان المسرحية	ملاحظات
مصطفى التومي	جريمة الوفاء	
مصطفى التومي	عفـــــــاف	راجع دراسة عنها في كتاب أبحاث في المسرح المغربي للدكتور حسن المنيعي (ص ٧٤)
مصطفى التومي	المفاتيـــــح	
محمد العلوي	جريمة في الاستوديو	
محمد العلوي	النصيب	
عبد العظيم الشناوي	المشنقة	عرضت بالمهرجان الثاني عشر للهواة
عبد العظيم الشناوي	انكسر الزجاج	
محمد تيمود	وسال المـــــــاء	
محمد تيمود	رجـل وامرأة	
مد تيمود	التـــــابوت	
محمد تيمود	محامي على أربعة	
محمد تيمود	خيوط حبال ، شعر	
محمد تيمود	ما قالك حد عيليك زورق	
عبد الهادي بوزويع	لابراد لاكيسان	
عبد الهادي بوزويع	حروب بلادنا	الجائزة الأولى لمسرح الهواة سنة ١٩٥٩
عبد الهادي بوزويع	كبارها عند صغارها	الجائزة الأولى المهرجان العاشر لمسرح الهـــــواة
عبد الهادي بوزويع	عـندي عنـدك	
محمد تيمود	الجحيـــــم	

اسم المؤلف	عنوان المسرحية	ملاحظـــــات
رشيد بنشريف	غضب الآلهـــة	
عبد السلام الحبيب	موت اسمه التمرد	
الغالي الصقلي	قريقعـــــة	
محمد شهرمان	نكسة أرقام	المهرجان الثاني عشر لمسرح الهواة
	الضفادع الكحلا	
أحمد العراقي	لحوم في المزاد	المهرجان الثالث عشر لمسرح الهواة
محمد بنـــاني	مـــوت المـوت	
حمد ديالنـــا	طبوزا والماء الحلو	

المراجـــع :

(١) للرجوع إلى المزيد من التفاصيل حول تاريخ المسرح في هذه الفترة يمكن مراجعة كتاب « أبحاث في المسرح المغربي للدكتور حسن المنيعي صفحة ٥٥ وما بعدها . »

(٢) الدكتور حسن المنيعي خصص فقرات هامة من كتابه المذكور لمعرفة الأطوار التي مر بها كسرحي يمكن مراجعة الصفحات ٨٢ و ٨٣ و ٨٤ .

(٣) أبو طهاك الصويري ، جريدة الأنباء ٢٧ ماي ١٩٧٢ .

(٤) لناقد مغربي ، راجع الملحق الثقافي لجريدة العلم .

(٥) المرجع السابق .

(٦) العلم ٨ ماي ١٩٧٢ .

(٧) نفس المصدر السابق .

(٨) العلم ٨ ماي ١٩٧٢ .

(٩) أبو طهاك الصويري ، الأنباء ٢٧ ماي ١٩٧٢ .

حكايات

إلى السيّدة نوار

خالد محيي الدين البرادعي

١ — التكوين

• عندما أبحرُ في عَيْنَيْكِ ،
يَحْتَجُّ الْقَلَقُ
والطَمَأْنينةُ تَسْتَلْقي لَدَيَّ
وَأرى العالَمَ طِفْلاً عارِياً
يعبرُ الغاباتِ جَذْلانَ إليَّ
الْمَسافاتُ التي تُبْعِدُني عَنْ فَرَحي تَدْنو ،
وَتَمْتَصُّ الْكَآبَهْ

فإذا عُمْرِيَ فَرْحَهْ
وَطُموحاتي سَحابَهْ
تُمْطِرُ الزنبَقَ والمَنْثورَ في أرضِ اغْترابي
وتحيلُ الماحِلَ المُجْدِبَ مِنْ عُمْرِيَ غابَهْ

• • •

عندما أبْحرُ في عينَيْكِ ، تخضَرُّ السّماءْ
ويلوحُ الكونُ ثغراً ليلكيّا
والمَناراتُ التي أطفأها الحزْنُ تُضاءْ
تفتحُ الأعماقَ فتْحاً قُدُسيّا
ويَهِلُّ الشوْقُ صَوْتاً مزْهِراً
يزرعُ العالَمَ وَرْداً عرَبيّا
فبعيْنَيْكِ المَواعيدُ حُقولْ
وحَكَايا
كيَنابيعِ الصَّفاءْ
وبأهدابِكِ تَخْضَرُّ زهورُ الكِبرياءْ
فافتحي عينيكِ للمُبْحِرِ يا سَيِّدَتي
ليظلَّ الخصْبُ في كُلِّ الفُصولْ
ولِتَخْضَرَّ السّماءْ

• • •

٢ — الفرح

• أَهْدابُكِ الْخُضْرُ فَراشَتانْ
وثغركِ المغسولُ بالشَّهْوَةِ وَالْحَياءْ
لَيْلَكَةٌ تَنامُ فَوْقَ لَيْلَكَهْ
وَمُذْ رأيتُ زَهْرَتَيْ أطاسْيا ، تُعَرْبِشانْ
فَوْقَ صَدرِكِ الراحِلِ في مَعارِجِ الْغِوى
زَرَعْتُ في مِحْرابِيَ الأطاسْيا
وها أنا بَيْنَ الصَّلاةِ وَالصَّلاةْ
أَمْسَحُها بِوَهَجِ الأجْفانْ
كنتُ أخافُ اللَّيْلْ
وَمُنْذُ ما سَرَقْتِهِ
وسافَرَ الْكَوْنُ بِعَيْنَيْكِ بِـهِ
غدوتُ أَحْيا اللَّيْلْ
تَصَوُّفاً وعِشْـقا
وَصارَ لَوْنُ اللَّيْـلْ
رَسولَ أَحْلامي إلى عَيْنَيْكِ
مَسـاحَةً وَعُمْقـا

• • •

٣ — البراءة

• كُلُّ الفَراشاتِ ، تَعيشُ عارِيَةْ
وَالزَّهْرَةُ لا تَكونُ إلاّ عارِيَةْ
وَدَمْعَةُ الطفلِ التي
تولَدُ في بَسْمَتِهِ
مَصْقولَةٌ وعارِيَةْ
وَلَحَظاتُ المَوْتِ وَالميلادْ
تَأتي وَتَمْضي عارِيَـهْ
وَأَنْتِ يا سَيِّدَتي
تُخَبِّئينَ الكَوْنَ في إهابِكِ الجميلْ
وتَحْمِلينَ أَلَقَ الفُصولْ
وَبَهْجَةَ الحُقولْ
وَلَحَظاتِ المَوْتِ والميلادِ وَالرَّحيلْ
وَلا أَراكِ عـارِيَةْ .

• • •

٤ — سنواتٌ ٠ ٠ لا

• كُلُّ أيّامِكِ إشْراقٌ وفي كُلِّ الفُصولْ ،
أَنْتِ حُلْوَةْ

لا تخافي غَيْبَةَ الفَوْحِ ، ولا عَصْرَ الذُّبولْ
عُمْرُكِ الأخْضَرُ جِلْوَةْ
كل يوم يُنْجِبُ الحُسْنُ بعَيْنيكِ رَضيعاً ،
يَمْلأُ الكَوْنَ هَوىً
ووَميضاً يَمْلأُ العالَمَ نَشْوَةْ
فإذا أوْغَلْتِ في غابِ السِّنينْ
سَنَةً ،
يَزْدادُ طولُ الحُسْنِ خَطْوَةْ
لا تَعُدّي سَنَواتِ العُمْرِ ،
مَهْما ازْدَحَمَتْ
وانْبَرَتْ كيهما
تَحْتَرِقْ في وَهَجِ الجَفْنَيْنِ غَفْوَةْ
هَلْ تَشيخينَ ؟
وَهذا الألَقُ المُبْدِعُ في عَيْنَيْكِ ،
لِلأحْلامِ ، نَدْوَةْ

• • •

٥ — الوداع

• منْ قَبْلُ أنْ ألْثُمَ راحَتَيْها
لِلْمَرَّةِ الأخيرةْ
وقَبْلَ أنْ تُسْمِعَني ،

زَغْرَدَةَ الْكَنّارِ في ضِحْكَتِها الْمُثيرَهْ
وقَبْلَ أنْ أَسْرِقَ مِنْ عَيْنَيْها ،
قَصيدتي الأثيرَهْ
قالَتْ : غَداً ،
يُعَشِّشُ الصَّمْتُ على كِتابي
ويوقِظُ الرَّحيلْ ،
عُصْفُورَةَ الوِحْشَةِ في مِحْرابي
وَيُنْبِتُ السَّفَرْ ،
حَشائِشَ الْعَلْقَمِ في عَذابي
غَداً .
تُجَن بَيْنَنا الرِّيحُ ،
وَتَمْتَدُّ الْمَسافاتُ ،
وَنَجْني ثَمَرَ الْغِيابِ
غَداً ، غَداً ،
قُلْتُ : كَفَى
لا تَغْسِلِي كُلَّ سُيوفِ الذّاكِرَهْ
بِجُرْحِيَ الْمُمْتَدِّ ،
من غابَةِ عَيْنَيْكِ إلى بادِيَةِ اغْترابي
وعِنْدَما لَثَمْتُها ، لَثَمْتُ دَمْعَتَيْنْ
فكانَ طَعْمُ الْمِلْحِ ،
آخِرَ ما بَلَّ فَمي .
صبيحَةَ الذَّهابِ .

تشوش في الرؤية

قصة : جورج سالم

لا ، لم يكن ما أسمعه كلاماً أو لغة ، كان أصواتاً خفيفة باهتة تنبعث من كل مكان ؛ هي همهمة لا أعرف مصدراً محدداً لها ولا ماذا تعني . ثم انطلق أزيز حاد قاس يصم الآذان ، فانتزعني بسرعة من شرودي في هذه القاعة الكبيرة الدافئة . كانوا يجرّبون مكبّر **الصوت** وأدركت أن المحاضرة على وشك الابتداء . ثم أضيء المصباح **الموضوع** على المنصة وأضيئت بعض الأنوار الجانبية في القاعة ؛ وخفتت الهمهمة تدريجياً . ولم يلبث صوت المحاضر أن ارتفع وأخذ يعلو ويشتد حتى طغى على كل ما في القاعة .

قبعت في مكاني . أحاول أن التقط الكلمات وأستوعبها . ماذا يقول هذا المحاضر الذي قدمه إلى الجمهور شخص فارع الطول عريض المنكبين كأنه بطل من أبطال الملاكمة فقال عنه أنه من أفاضل الكتّاب والفنانين والشعراء ، وأنه يمثل التيار الجديد وأنه ثورة في عالم الكتابة والإبداع . . .

لم أستطع أن أفهم أشياء كثيرة من شلاّل الكلام الهادر الذي انطلق يطنّ في أذني ، وكان مكبر الصوت يسهم في تشويه الكلام حين يطلق صفيراً حاداً بين حين وآخر . فرحت أستعيض عن ذلك بتأمل وجه المحاضر . وسرعان ما اكتشفت أن وجهه غير متناسق الأجزاء . ووجدت أن أحد فكيه أضخم من الآخر ، يميل إلى الأسفل . ورأيت تحت إحدى أذنيه في هذا الجانب من وجهه غدة منتفخة . ولمّا حرّك صفحة وجهه انسكب الضوء المعلّق في أعلى المنصة عليها فزادها انتفاخاً واحمراراً . وتعلّقت عيناي بهذا القسم الأشوه من وجهه حتى صرفني عن كل ماعداه. قلت : أتراني أخطىء الرؤية . وعدت أحدّق فيه ، في هذه المرة بدا لي رأسه على شكل مثلث . مضيت أتتبع حركة هذا المثلث فإذا أنا في خان قديم . ثمة أفعى تطل برأسها ، الرأس على شكل مثلث ، كانوا قد عثروا عليها لتوّهم تسعى بين الخرائب والأقذار فأمسك بها أحد العتالين بقسوة وتعمّد أن يضربها ضربة غير مميتة ، وظل يتلهّى بها ، وتجمّع حولها الناس صغاراً وكباراً . كانت تحرك رأسها حركة دائبة في فزع وتشنج ، تحاول الخلاص ، إلى أن سحق رأسها آخر الأمر ، بعد أن طال عذابها ، وتركها مسجاة في الطريق ، ومضى لشأنه ، فأقبل عليها بعض الأطفال بعد أن أيقنوا أنها ماتت وراحوا يجرونها على حجارة الزقاق

الفرعي الضيق ، وسال جسمها على طول الزقاق . لم يأسف عليها أحد ، ثم مرّت عربة يجرّها حصانان فجرفتها حوافر الخيل .

قلت : لا بدّ أن التقط بعض الكلمات التي يقولها هذا المتحدث ، وسمعته يجأر كأنه يستجدي : « سأقاتل ، سأحرر » . لم أفهم مبتغاه . فأطرقت رأسي ، واستسلمت إلى الهدوء والدفء . ثم سمعته يكرّر قولته مرة بعد مرة . انطفأ أحد المصابيح الكهربائية ، فجذبني ذلك ، رحت أنظر إلى سقف الصالة ، لا شك في أنه تعطّل . ثم انطفأ مصباح ثان وثالث حتى أصبحت الصالة تسبح في العتمة . قلت : لن يؤثر ذلك في مسيرة الكلام . فما دام المصباح الموضوع على المنصة مضيئاً فالمحاضر قادر على متابعة كلامه . سمعت صوت حفيف أثواب وحركة أرجل تنتقل بحذر . لم ألتفت إلى مصدر الصوت ، ولكني قدرت أن بعض الحاضرين يتسللون إلى الخارج . ومرّ بعضهم أمامي وكاد يطأ قدمي : كان واحد ممّن مروا يقول : هذا كذب .

قلت : ربما كان لديهم مواعيد مهمة ، أو لعلهم لم يستسيغوا أو يفهموا كلمات المحاضر . إلاّ أنني صمّمت أن أظل حتى نهاية المحاضرة. وأرهفت أذني مرة ثانية ، فإذا هو يكرّر هذه الجمل التي لم أعرف أين هي من سياق كلامه : « سأقاتل ، سأحرر » .

شعرت بشيء من التعب فالتفت حولي . كانت دهشتي عظيمة ، في الحقيقة ، إذ رأيت أن القاعة قد فرغت من الحضور ، وكانت قبل ساعة تغص بهم . كيف تسلّلوا إذاً ، كيف خرجوا جميعاً بمثل هذا الهدوء والسرعة والخفة ؟ ووجدت أنني بقيت وحدي في طول القاعة وعرضها . وبدا المحاضر كأنه لم يبال بمن خرج من الحضور أو لعله لم يشعر بذلك

فراح صوته يعلو ، وفي آخر الأمر بدأ يزعق إذ شرع يفرغ كل ما عنده وهو يتصبّب عرقاً . عجبت من بقائي وحيداً في هذه القاعة الكبيرة ، وليس في كلام هذا الجالس فوق في أعلى المنصة ما يغريني بالبقاء . وأردت أن أعرف سبب ذلك . قلت : لعل مردّه إلى هذا الدفء الذي يملأ القاعة ويغمرني بشعور من الراحة رغم اندفاع المحاضر في سرد الكلام الذي لم أع منه شيئاً يذكر . ثم شعرت أن الوهن قد بدأ يتسرب إلى صوت المحاضر فأطرق قليلاً والتفت إلى ناحيتي ، فبانت أمامي غدّته مربعة في انتفاخها . قلت في فزع : ما هذا بوجه إنساني . وبدا لي هذا النتوء الذي يبرز تحت أذنه صلباً ضخماً يمتدّ حتّى يكاد يلامس كتفه . فغيّبت وجهي بين يدي اشمئزازاً ، ولم أرفعه إلاّ على الجملة الأخيرة التي لفظها وكأنه يلفظ آخر أنفاسه في رحلة الموت : « سأقاتل ، سأحرر » . لم تدوّ القاعة بأي تصفيق في نهاية المحاضرة . فجمّع المحاضر أوراقه المبعثرة ونزل برباطة جأش من أعلى المنصة واتجه نحو الباب في آخر القاعة . لم يبق هناك غيري جالساً في أحد أطراف القاعة ، ولا أظن أنه رآني أو أحس بوجودي . بل لعلّه لم يلحظ خلوّ القاعة من المحاضرين، فقد كانت أبصاره معلقة بأعلى السقف . أتراه كان يريد أن يرى النجوم من خلال السقف القتيم . وكان الآذن المكلف بإطفاء النور وإغلاق القاعة قد اختفى منذ زمن — لعله هرب إلى منزله — فقد ظلت القاعة كما كانت . قلت في نفسي : عليّ أن أنصرف الآن ، ولكنني لبثت هنيهة ، فقد كان الدفء جميلاً وأردت أن أستمتع به طويلاً . فظللت في مكاني وأنا منتش بالدفء . أما كلمات المحاضر وأقواله فقد مسحت من ذاكرتي مسحاً فلم يبق منها أيّ حرف .

حين هممت بالوقوف ومغادرة المكان رابني أن أرى المنصة تتحرك . قلت لا شك في أني واهم أو ناعس ، واتكأت على المقعد أمامي وأنا أتثبت من موقعي على الأرض . ثم رفعت يدي إلى عينيّ أفركهما ، وتلمست جبيني ، كانت المنصة أثناء ذلك ما تني تهبط حتى صارت على ارتفاع أشبار من الأرض . وأسدل الستار ، وأضيئت الصالة بأنوار حمر ، وامتلأ المكان ضجيجاً وصخباً ولغطاً ، حدث ذلك في أقل من لمح البصر ، فعقلتني الدهشة ، ولم أستطع أن أقرّر لتوي ماذا ينبغي أن أفعل ، وأين أنا . والتفت فيما حولي فإذا المقاعد المرصوف بعضها إلى جانب بعض قد أخذت شكل طاولات . ورأيت عدداً ممن كانوا يحضرون المحاضرة قد تحلقوا حولها . وعلا دخان السجائر وتراكم فوق الرؤوس فشكل سحباً تنفذ منها الأضواء . وانبثقت الأصوات من كل مكان كهدير الأمواج . أصوات صاخبة حادة عالية مبهمة . كان الناس جميعاً يتكلمون في آن واحد ، ويزعقون ويعلوا منهم الصياح ويشتد . ومددت يدي إلى الطاولة التي أمامي فوجدت أنها مغطاة بغطاء من القماش الأحمر ، فوقها زجاجة نبيذ . قلت : ما أنا والنبيذ ، ألا يعلمون أن كبدي لا تتحمل المشروبات ؟ كدت أصرخ ، ولكنني أدركت سريعاً أن كل صراخ غير ذي جدوى . واقترب مني نادل ووضع على الطاولة ، برشاقة مذهلة ، صحناً من الموالح واختفى .

ارتفعت الستارة ببطء ، رأيتها ترتفع ، ما في ذلك شك ، وأبصرت عدة كراسي مرصوفة فوق المنصة على شكل نصف دائرة . أما الطاولة التي كان يجلس اليها المحاضر منذ هنيهة فقد اختفت ولم يبق لها من أثر . ثم أطفئت الأنوار جميعاً . وسادت الظلمة فترة طويلة . إلا أن الصراخ والضجيج لم يتوقفا قط . ظلمة حالكة في الصالة ، تضيئها بين حين وآخر

أعواد ثقاب تبحث في العتمة عن رؤوس السجائر ، ولا شيء غير ذلك . ثم أنيرت المنصة كلها . وتعلّقت أبصار الناس بها . وتوافد الموسيقيون تباعاً يحملون آلاتهم ، واتخذوا أماكنهم في جلال ووقار . قلت : لعلنا مدعوون إلى حفلة موسيقية . كنت قد فكّرت بالخروج والعودة إلى المنزل ، إلاّ أنني رغم ذلك تسمّرت في مكاني . أخرج الموسيقيون آلاتهم وراحوا يجرّبونها ، فانطلقت أصوات غير متناسقة تئز وتئن ، إلاّ أنها اختلطت بأصوات الناس ولم يعرها أحد كبير اهتمام . ثم انطلقت الفرقة فجأة من غير إنذار تعزف مقطوعة موسيقية تافهة ، وحين انتهت لم يأبه بها أحد ، وسمعت بعض التصفيق الباهت ينطلق من بعض أرجاء القاعة ولكنه تصفيق خفيف قصير سرعان ما توقف وتلاشى .

في هذه اللحظة شعرت أن روحي تكاد تزهق ، وأيقنت أن الخروج غدا ممتنعاً مستحيلاً . فالازدحام يزداد ويشتد ، حتى أن بعض الوافدين الجدد لم يجدوا لهم طاولة أو مكاناً يجلسون فيه ، فظلوا وقوفاً في الممرات بين الطاولات . وتقدّم إلى وسط المنصة رجل دميم قصير قميء الشكل إلا أنه يرتدي ثوباً بالغ الأناقة ، فسلّطت عليه الأنوار ووضع أمامه مكبر الصوت . وسمعته يخاطب علية القوم المجتمعة في هذا المكان ، كان صوته قوي النبرات واضحاً . وحين انتهى من كلماته المعسولة التي رحّب بها بالقوم وحياهم وأثنى عليهم وأشاد بذوقهم الرفيع ، قدّم راقصة السهرة ، فأسهب وأطنب في ذكر شهرتها ومحاسنها وقيمتها الفنية وبراعتها في الرقص . ومن ثم أفسح لها المجال بين دويّ التصفيق وعاصفة الصراخ التي استقبلها الناس بها وقد استبدت بهم الحماسة واللهفة والشوق .

وعزفت الموسيقا ، فراحت الراقصة ، على إيقاع الموسيقا الهادىء ، تنقل خطاها فوق المنصة رشيقة رقيقة ، واستقرّت بعد أن دارت طويلاً في وسط المنصة ، وراحت تهتز اهتزازاً ملؤه الغنج ، وحركت ذراعيها ، حرّكتهما طويلاً ، واهتز ردفاها ، نظرت إلى الحاضرين فرأيت اللهفة تشتعل في وجوههم وتضيء عيونهم . ورأيتهم ينهلون من الكؤوس ، ويعبون منها جرعات سريعة متتالية كأنهم يطفؤون نيراناً مستعرة في أجوافهم ، واشتد إيقاع الموسيقا ، وتسارع ، فتسارعت حركات الراقصة وتثنياتها ، وانبعثت أصوات القوم عالية صاخبة مدوّية متفجرة ، كانوا يستحسنون وكانوا يستزيدون ، وكانوا يتأوهون . وكانت الراقصة تتيه وتبتسم ، وكان كل من الحاضرين يخيل اليه أنها إياه تعني ، وله ترقص ، ونحوه تتّجه . رأيت الأضواء الساطعة التي تنسكب على المنصة قد أخذت تخفت ، ولم يبق إلاّ ضوء واحد مسلّط على الراقصة دون الموسيقيين . فبانت وحدها في المكان . وعند ذاك ، راحت على إيقاع الآلات النحاسية تتعرّى ، ببطء شديد ودلال مفتعل أخذت تتعرّى . ثمة صفير ينطلق من الأفواه كالفحيح فيشق الصمت ، وتأوّهات ونداءات وصرخات . من خلفي وأمامي أشعر بوجود جماعات تتحدث حيناً ، وتتهامس حيناً آخر ، تدوّي بالتصفيق ، فتغيب الراقصة وتسدل الستارة في انتظار الوصلة الثانية وتضاء الأنوار .

يقول أحدهم لجليسه :

– هي راقصة ماهرة ، أرأيت هذا الجسم الرشيق ؟

ويضيف غيره :

– إنها راقصة متمرّسة .

يقاطعه ثالث ليقول :

— وهي إلى ذلك مومس محترفة .

فيستدرك الأول :

— تعرض جسدها لقاء أجر يومي .

يضحك شخص ما ثم يقول معقباً :

— إنها على استعداد لأن تفعل أي شيء ، قد تبيعك جسدها إذا دفعت .

أشعر بشيء من الدوار . يبدو أني أفرطت في الشراب . أحاول أن أنهض فلا أقوى على النهوض ، أتحامل على نفسي ، أتوكأ على الطاولة وأبذل جهداً كبيراً كي أقف على قدمي وأنجح آخر الأمر . أسير وسط الزحام أبحث عن الباب الخارجي .

أصل إلى الشارع . الشارع مقفر ، الهواء البارد يلسعني . أشعر بألم حاد في أمعائي . أتوقف قليلاً عند ناصية الشارع : أستند إلى شجرة هرمة . أفرغ ما في جوفي . أقول : لعلي شربت كثيراً ، لعلي شربت ولم آكل . ربما كان ذلك بسبب البرد . تمتلىء عيناي بقطرات من الدموع نتيجة التقيؤ . الدموع تتحول في عينيّ إلى غشاوة فلا أكاد أرى الطريق . أمضي على غير هدى ميمماً منزلي البعيد وأنا أسير ببطء وحذر شديدين .

قصّة

محمد زفزاف

التوازن

كان الطفل الصغير جالساً عند عتبة البيت يراقب البنت الصغيرة ، وهي وسط الحشائش الخضراء ، وبعض الأزهار قرب سكة الحديد . فالقطار لم يمر من هنا منذ أسبوع كامل ، لا في الليل ولا في النهار . لأن مستخدمي السكة الحديدية قد أضربوا طيلة هذا الأسبوع ، وربما حتى في الأيام القادمة . وكانت البنت منشغلة بالبحث عن أشياء وسط تلك الحشائش والنباتات التي تغطي قامتها الصغيرة . بينما الولد الصغير ، يفكر في أشياء أخرى تخصه وهو ينظر إلى البنت . وفكر في أن يلحق بها ويساعدها لكنه ظل جامداً في مكانه ، في حين مشت هي نحو السكة ،

وأخذت تمشي فوقها محاولة الاحتفاظ بتوازنها ، إلا أنها فشلت مراراً . وضحك الولد الصغير منها ، وقال إنه يفعل ذلك دون أن يفشل . غير أن المشروع ظل في رأسه . ورآها تتخلى عن لعبتها تلك وتستمر في البحث بين الحشائش والنباتات . وكان كلب مشرد يدور حولها وقد أخرج لسانه الأحمر وأرخى أذنيه المثقلتين بالقراد . كانت تخاف الكلاب وتصرخ منها . حاول الولد أن ينبهها إلى وجود الكلب بالقرب منها فعدل عن ذلك . ابتعد الكلب عنها ومشى فوق السكة ، وغاب وراء المنحدر . ورأى الولد البنت قادمة وفي يدها شيء . كانت جرادة صغيرة لا تقوى على الطيران ، جرادة خضراء .

وقال الولد :

— ألا تخافين من الجراد ؟

قالت البنت :

— لا . إنها أنثى . فالأنثى لا تؤذي الأنثى .

— كيف عرفت أنها أنثى ؟

— انظر كيف أنها جميلة .

— حقاً إنها جميلة . لكن هل هي أنثى أم ذكر ؟

لم تجبه البنت . ابتعدت عنه قليلاً وجلست فوق التراب . وضعت الجرادة أمامها ، وأخذت تضرب التراب بيدها محاولة أن تحث الجرادة على الطيران . لكن الجرادة كانت عاجزة عن الحركة . أخذت البنت تصرخ وتضرب التراب بالقرب من الجرادة . ثم بدأت تدفعها بيدها . فظلت الجرادة عاجزة عن الحركة . وقال الولد :

— أزيليها من الظل وضعيها تحت الشمس .

— لماذا ؟

— ستدفأ وستحاول أن تطير . إنها تشعر بالبرد من غير شك .

أمسكتها البنت برفق ، وحملتها تحت الشمس . وظلت تضرب التراب وهي تحثها على الطيران عبثاً . وقال الولد :

— لا . دعيها حتى تشعر بالدفء .

تركتها وحدها وعادت بالقرب من الطفل ، وجلست إلى جواره وهي تراقب الجرادة .

أخذت الجرادة تتحرك أخيراً . وظنت البنت أنها ستطير وقالت ذلك للولد فأجاب :

— لا . لن تطير حتى تدفأ أكثر .

وقالت البنت :

— ستطير حتى قبل أن تدفأ .

— ليس ذلك صحيحاً

— ستفعل لأنها أنثى .

— ليس ذلك صحيحاً . إنها ليست أنثى وليست ذكراً .

— إنها أنثى . وهي خضراء لأنها عروس .

وقال الولد وهو يمسك البنت من ذراعها الهشة البيضاء :

— وكيف يكون العريس ؟

— إنه أحمر .

— لأنت لاتفهمين شيئاً العريس يكون أصفر وكذلك العروس . وهذه الجرادة خضراء لأنها تتغذى من النباتا ت الخضراء .

تخلصت البنت من قبضة الولد . وذهبت بالقرب من الجرادة تحت الشمس ، فتوقفت هذه الأخيرة عن الحركة . أخذت البنت تنفخ عليها بفمها ، وتضرب التراب بكفها لتحثها على الطيران لكن ذلك كان عبثاً . ثم تركتها . وذهبت بالقرب من السكة ، وأخذت تمشي فوقها ، احتفظت بتوازنها قليلاً ، ثم سقطت في الأخير وظهرت عورتها فضحك الولد . ورآها تغطي نفسها بتلابيب روبتها القصيرة البالية ، كفت الفتاة عن هذه اللعبة وعادت مرة أخرى وسط الحشائش ، ولم يعد الولد يراها . وعندما غابت عن ناظريه كثيراً ، لحق بها فوجدها جاثية تتابع دودة صغيرة وهي تزحف . قال الولد :

— عمّ تبحثين ؟

— إني أبحث عن ذكر .

— للدودة أم للجرادة ؟

— للجرادة .

— إنك لن تجديها . الجراد غير موجود في هذا الوقت .

ثم قالت البنت وقد انتصبت واقفة :

— اسمع ، هل تعرف لعبة العروس والعريس ؟

قال الولد وهو يمسك بيدها :

— نعم . إذا تمددت على ظهرك في التراب ، عرفت كيف ألعب العروس والعريس .

— لكن لن تفعل مثل الجراد .

ـ لا . . إني أعرف .

نزلت أمها من الطابق الأول وأخذت تنادي عليها لكنها لم تسمعها ؛ لم يسمعها الولد كذلك ، أخذت الام تجيل النظر حول خطوط السكة ؛ دخلت الى البيت ربما كانت مختفية في احدى الحجرات أو في المطبخ ؛ لكنها لم تجدها . خرجت وأخذت تنادي عليها بصوت مرتفع . سمعها الولد فانتفض من فوق جسد البنت . رأته الأم وسألته عنها ففر تجاه السكة . فهمت الأم كل شيء ولحقت بابنتها وسط الحشائش . أمسكتها بقوة وهي تقول :

ـ ماذا تفعلين ؟

ـ نلعب لعبة العروس والعريس .

أخذت الأم تلسعها وهي تقول في غضب : ـ متى كانت أمك مومساً ؟

لم تفهم البنت شيئاً . كانت أول الأمر تتحمل اللسعات . لكنها في الأخير أخذت تعول وهي تردد :

ـ ماشي أنا . هو . .هـ هـ ها . . آي آي .

استمرت الأم في لسعها وهي تردد : ـ قولي يابنت الحرام . متى كانت أمك . . . ؟

وكان الولد الصغير إذ ذاك وقد نجا من اللسعات ، يحاول أن يحافظ على توازنه فوق السكة التي أدفأتها حرارة الشمس .

محمد زفزاف

الدار البيضاء ـ المغرب

قصة : هنري ميلر   ترجمة وتقديم : خلدون الشمعة

الصوفي

الصوفية الحسية

يعتبر « هنري ميلر » من أكبر كتاب القصة الأمريكيين الذين حاولوا تجاوز الفاصل العميق الذي نشأ في الأدب الحديث ، بين الكلمة المكتوبة والكلمة المحكية . وبهذا الاعتبار فإن روايته الشهيرة « مدار السرطان » يمكن أن تؤخذ كنموذج متميز للنص الروائي الذي تتحقق فيه هذه المحاولة . وقد قدم لهذه الرواية بعبارة للفيلسوف (رالف والدو إمرسون) ، توضح الكثير من تقنية (ميلر) ووجهة نظره في الأدب ، يقول فيها :

« هذه الروايات ستفسح الطريق شيئاً فشيئاً ، للمذكرات والسير الذاتية : تلك الكتب الآسرة فعلا لو ان كاتبها عرف كيف يختار من بين ما يدعوه بـ (خبراته وتجاربه) — تجربته الخاصة به فعلا ، وكيف يسجل الحقيقة بأمانة . » .

وقد ولد (ميلر) في نيويورك عام (١٨٩١) . وبعد أن أمضى أكثر من عشر سنوات ضائعاً في أوربا بين عام(١٩٣٠–١٩٤٠)، عاد إلى كاليفورنيا بالولايات المتحدة حيث يعيش الآن . وتتميز روايات (ميلر) بالجرأة والصراحة التي تتخطى الحدود الأخلاقية المتعارف عليها ، والتجديف على كل المؤسسات الأخلاقية والمعتقدات ، كل هذا أدى إلى مصادرة أدب (ميلر) في الولايات المتحدة لفترة طويلة من الزمن .

وتستقطب باريس التي مارس فيها (ميلر) معظم تجاربه الحياتية أكثر كتاباته . وقد وصلت الجرأة (الفضائحية) في أدب (ميلر) حداً من التطرف ، يجعل ترجمته إلى العربية أمراً شبه متعذر .

ومن روايات (ميلر) ثلاثيته الروائية المسماة : « الصلب الوردي » الصادرة في أواخر الأربعينات . و (ربيع أسود) وقد صدرت عام (١٩٣٩) و (مدار الجدي) الصادر عام (١٩٣٩) أيضاً . ومن كتبه غير الروائية : دراسة هجائية لتجربته الحياتية في أمريكا وعنوانها : « الكابوس المكيف الهواء » ودراسته النقدية عن (رامبو) ومجموعة مقالاته في الفن : « تذكر أن تتذكر » .

وفي هذه القصة القصيرة « الصوفي » ربما لا يبلغ (ميلر) المستوى الذي يمثل أدبه بشكل عام . إلا أنها تميط اللثام عما يمكن أن يسمى بـ « الصوفية الحسية » التي تمثل القطب المعاكس للصوفية بمعناها الشائع . كما تكشف عن نزعة السخرية الحادة التي تسيطر على أدب (ميلر) . وهي من القصص المعدودة التي يمكن ترجمتها إلى العربية ، باعتبار انها أكثر اعتدالا في جرأتها من أعماله الأخرى . (المترجم)

عندما بدأت بكتابة هذه الحكاية قبل الآن ، بدأت بالقول أن الآنسة (كلود) كانت مومساً ، إنها مومس بالطبع ، وأنا لا أحاول إنكار ذلك . ولكن ما أقوله الآن هو انه إذا ما كانت الآنسة (كلود) مومساً فأي الأسماء أطلق على النساء الأخريات اللواتي أعرفهن ؟ .. إن كلمة مومس ليست كبيرة بما فيه الكفاية . إن الآنسة (كلود) أكثر من مجرد مومس . إنني لا أدري ماذا أدعوها . ربما أدعوها الآنسة (كلود) . . فليكن .

لقد كانت العمة هي التي تنتظرها في الأعلى كل ليلة . بصراحة ، لم أستطع ابتلاع تلك القصة . فلتذهب العمة إلى الجحيم . لقد كانت على الأغلب ، قوادتها .

ولكن لم يعد لأحد من شأن سواها . ومع ذلك ، فقد كانت تزعجني بتلك العمةالتي تنتظرها في الطابق الأعلى دائماً . وربما تعد نفسها لضربها إذا لم تسع إلى لقائها . ومهما كانت محبة – أقصد أن كلود قد عرفت حقاً كيف تحب – فقد كانت في رأسي دائماً صورة ذلك القواد مصاص الدماء ، والشيق الجبين الذي كان يستنزف كل شيء . لا فائدة من أن تنخدع بمومس ، حتى لو كانت بالغة البذل والخضوع ، حتى لو نقدتهن ألف فرنك . من يفعل ذلك ؟

إن ثمة رجلا ينتظر دائماً في مكان ما . وما قد حصلت عليه ليس سوى مجرد مذاق فقط ، بينما حصل هو على المرق . كن واثقاً من هذا !

ولكن كان كل ذلك ، كما اكتشفت فيما بعد ، عاطفة مضيعة للغاية .

لا ليس في حالة كلود . لقد كنت أول (قواد) لكلود . ولست أدعو نفسي قواداً . لست أعلم حتى أن قواد هي الكلمة . إنني قوادها الآن . حسناً إنني أذكر بجلاء المرة الاولى التي جئت بها الى غرفتي – أي حمار جعلته من نفسي . في أي موضع يتعلق بالنساءأجعل حمارا من نفسي . والمشكلة هي أنني أعبدهن ، وهن لا يرغبن في أن يعبدن . إنهن يرغبن في . . . . حسناً ، مهما يكن من أمر ، صدق أو لا تصدق ،تصرفت في الليلة الأولى وكأنني لم يسبق ان التقيت بامرأة من قبل . إنني حتى هذا اليوم لا أدري لماذا كان من الواجب أن يحدث ذلك . ولكن هذا ما حدث . فحتى قبل أن تحاول نقل أشيائها ، كما أذكر ، وقفت بجانب السرير تنظر عالياً إلي ، تنتظر أن أفعل شيئاً ما ، على ما أظن . لقد كنت ارتجف . كنت ارتجف منذ غادرنا المقهى . نقرتها نقرة على الشفتين على ما أعتقد . لا أدري فلربما قبلت حاجبها – انني ذلك الرجل الذي خلق لكي يقوم بمثل هذه الأعمال .

حينما يكون الأمر متعلقاً بامرأة فانني لا أدري شيئاً . لقد شعرت بطريقة ما ، انها كانت تسدي إلي فضلا كبيراً جداً . حتى المومس تستطيع أن تجعل رجلا يشعر على هذا النحو في بعض الأحيان . ولكن (كلود) ليست مجرد مومس كما قلت .

قبل أن تمس قبعتها ، ذهبت إلى النافذة ثم اغلقتها وأسدلت الستائر ثم لم تلبث أن حدجتني بنظرة جانبية ، وابتسمت ، وتمتمت أشياء عن التجرد من الملابس . والواقع انني كنت مضطرباً . فقد ظننت أنها قد تشعر بالضيق فيما اذا راقبتها ، فتشاغلت عنها بكتابة ملاحظات بلا معنى على الأوراق التي كانت على طاولتي ، ثم رميت بالغطاء فوق الآلة الكاتبة وعندما استدرت كانت تقف بقميصها بالقرب من المغسلة تمسح ساقيها .

قالت : هيا أسرع إلى السرير ودفئه . ثم لم تلبث أن لطمت نفسها بضع لطمات . كان كل شيء طبيعياً جداً إلى حد أنني بدأت أتخلى عن تعثري واضطرابي .

كانت الغرفة قارصة حقاً ، فاضجعنا باستكانة لفترة طويلة ، يدفىء كل منا الآخر . كانت ذراعي حول رقبتها والذراع الآخر تشدها إلي . واستمرت تحدق في عيني بالنظرة المرتقبة نفسها . النظرة التي لاحظتها عندما دخلنا الغرفة لأول مرة . وبدأت أرتجف ثانية فيما كانت فرنسيتي – الكلمات التي أحفظها من الفرنسية – تغيب عني .

إنني لا أذكر الآن فيما اذا قلت لها آنذاك أنني أحببتها . لربما فعلت ذلك .وعلى أية حال ربما تكون قد نسيت الكلمة على الفور . وفيما كانت تغادرني أعطيتها نسخة من كتاب (أفروديت) الذي قالت أنها لم يسبق أن قرأته ، بالاضافة الى زوج من الجوارب الحريرية كنت قد أشتريته لشخص آخر . أستطيع أن ألمح أنه قد أعجبها .

وعندما رأيتها ثانية كنت بدلت فندقي . نظرت فيما حولها بطريقتها السريعة المشتاقة ، وأدركت بلمحة أن الأمور لم تكن على ما يرام . فسألت بسذاجة عما اذا كنت أحصل على ما فيه الكفاية من الغذاء . قالت : يجب ألا تبقى هنا . ان المكان محزن جداً . لربما لم تقل محزن ، إلا أن هذا ما قصدته . أنا متأكد .

كنت حزيناً بالفعل . فقد كان الأثاث يتناثر قطعاً ، ومصاريع النافذة مكسورة ، والسجادة ممزقة وقذرة ، كما لم يكن ثمة من ماء في المجاري . وكان الضوء معتماً أيضاً ، ضوءاً معتماً ، أصفر اللون إلى حد أنه أضفى على غطاء السرير غلالة رمادية متعفنة . في تلك الليلة تظاهرت لسبب أولآخر بالغيرة .

قالت : ثمة امرأة أخرى تحبها .

أجبت : كلا ليس ثمة من أحد .

قالت ذلك ثم تعلقت بي ، فشعرت بجسدها دائماً يضج بالرنين . وبدوت وكانني أستحم في دفء لحمها . كلا لم أكن أستحم بل أغرق سيئاً فشيئاً وبغبطة .

ولم تلبث أن تحدثنا عن (بيير لوتي) وعن (استامبول) . فقالت انها ترغب في الذهاب الى (أستامبول) يوماً ما فقلت اني أرغب في الذهاب أيضاً . وفجأة قالت – أعتقد أن هذا ما قالته – إنك رجل يمتلك روحاً . لم أحاول إنكار ذلك بل كنت سعيداً جداً على ما أظن . عندما تخبرك مومس أنك تمتلك روحاً فان ذلك يعني الكثير نحو ما . أن المومسات لا يتحدثن عن الأرواح عادة ثم حدث أمر غريب ، فقد رفضت أن تأخذ مالا : يجب ألا تفكر بالمال . نحن أصدقاء الآن . ثم أنك فقير جداً الآن .

ولم تدعني أغادر السرير لكي أرافقها إلى آخر السلم . سانتزعت من محفظتها عدداً من السجاير وضعتها على الطاولة لصق السرير ، ثم ألقمتني واحدة أشعلتها بقداحتها البرونزية ، وأنحنت لتقبلني قبلة ، فحملت ذراعها قائلا :

كلود : أنت شبه ملاك ! . أوه لا أحد كذلك . وكان في عينيها نظرة ألم أو رعب .

لقد كانت كلمة (شبه) أو (تقريباً) هي المعبر عن عطالة كلود على ما أعتقد .

لقد أدركت الأمر في الحال تقريباً . ثم الرسالة التي أعطيتها إياها بعد وقت قصير (أفضل رسالة كتبتها في حياتي على الرغم من أن لغتها الفرنسية كانت مقيتة) . قرأنا الرسالة معاً في المقهى حيث نجتمع عادة . وكما قلت فقد كانت اللغة فظيعة للغاية ، باستثناء مقطع أو مقطعين أخذتهما عن بول فاليري – وحينما وصلت الى هذه المقاطع وقفت لحظة أو أثنتين : حسناً . . حسناً جداً .

ثم حدجتني بنظرة أقرب الى الغموض وتابعت . أوه لم يكن (فاليرى) هو الذي استوقفها على الاطلاق ، كان بمقدوري الاستغناء عنه . كلا لقد كان الجانب الملائكي هو الذي استحوذ عليها . فقد طرزت الرسالة على نحو مقنع وخبيث للغاية . وحينما وصلنا إلى النهاية ، كنت أشعر ببعض الضيق . لقد كنت رخيصاً حقاً . . أستغل عواطفها بهذا الشكل . لست أعني أنني لم أكن مخلصاً فيما كتبت ، ولكنني بعد تلك الايماءة التلقائية ، أصبح الأمر مجرد أدب ثم بدت الرسالة أشد هزالا من قبل ، عندما أصرت على قراءتها مرة أخرى ، فيما كنا نجلس معاً على السرير ، وهي تلفت انتباهي إلى الأخطاء النحوية . وأصبحت عديم الصبر معها الى حد ما ، بحيث أصبحت تشعر بالغيظ ، ولكنها كانت سعيدة جداً . . بنفس المقدار . وقالت أنها ستحتفظ بالرسالة دائما .

ولدى قدوم الفجر تقريباً ، انسلت خارجاً . العمة مرة أخرى . كنت صائراً إلى وفاق مع حكاية العمة . بالاضافة إلى أنه اذا لم يكن ثمة من وجود العمة ، فسرعان ما سأعلم الآن . إن (كلود) ليست ماهرة جداً في التنكر . ثم هناك جانبها الملائكي ! . .

اضطجعت مستيقظاً أفكر فيها . لقد كانت أفضل مني بالطبع . (القواد) أيضاً . . ! . . فكرت فيه أيضاً ، ولكن ليس طويلا . لم أكن قلقاً عليه بعد الآن . كلود — لقد فكرت فقط بكلود وكيف أجعلها سعيدة . اسبانيا . . كابري . . استامبول . . إنني أستطيع تخيلها وهي تتحرك بتثاقل تحت أشعة الشمس ، تلقي بالفتات إلى الحمامات ، أو تراقبها وهي تستحم ، أو تستلقي فوق أرجوحة وبين يديها كتاب أنصحها بقراءته . يا الطفلة المسكينة ! ! . . .ربما لم تذهب إلى أبعد من (فرساي) في حياتها . إنني لا أستطيع رؤية التعبير على وجهها لدى استقلالنا القطار ،

ومن ثم نقف بالقرب من يتبوع في مكان ما : مدريد أو إشبيليا . إنني لأشعر بها وهي تمشي بخطوات عسكرية ، على نحو ملاصق دائما ، لأنها لا تدري ماذا تفعل بنفسها وحيدة . لا . . إنني أستطيع أن أثق بكلود .

إنني سعيد بعثوري على مومس .. مومس مخلصة ! . . . . .يا يسوع ... إنني أعرف من سيضحك كالجحيم فيما اذا قلت ذلك .

لقد كنت أخطط للرحلة بالتفصيل : الأماكن التي نقف عندها ، الملابس التي ترتديها ، الحديث الذي نتجاذبه .. كل شيء .. كل شيء . وساورني الاعتقاد بأنها كانت كاثوليكية ، ولكن هذا لم يعن شيئاً بالنسبة لي . الواقع أنني أحببت ذلك . فقد كان أفضل بكثير الذهاب الى الكنيسة لسماع القداس ، من دراسة الهندسة المعمارية وكل ما يتصل بها من هراء .ولو أنها أرادت ، كنت أصبحت كاثوليكياً أيضاً ... يا للجحيم ! ... إنني لأفعل أي شيء أرادته... اذا كان سيجلب لها المتعة . لقد بدأت أتساءل عما اذا كان لديها طفل في مكان ما ، كما هو الأمر بالنسبة لبعضهن . تخيل طفلا لكلود ! ... لماذا سأحب هذا الطفل أكثر من أنه لو كان طفلي . . أجل لا بد أن لها طفلا (كلود) . . إنني على وشك أن أتحرى الأمر .

سوف تأتي أوقات — لقد علمت ذلك — ستكون لنا فيها غرفة كبيرة تتصل بشرفة ، غرفة تطل على نهر ، والأزهار على عتبة النافذة ، والطيور تصدح . أستطيع أن أتخيل نفسي عائداً أمسك قفصاً بين ذراعي . حسناً . وداعاً ما دام ذلك قد يجعلها سعيدة ! . .

ولكن النهر . . لا بد أن ثمة أنهاراً توجد مرة في لحظة من اللحظات . إنني مجنون بالأنهار مرة في روتردام ، إنني أذكر ...

ومع ذلك فان فكرة الاستيقاظ في الصباح ، فيما تتدفق الشمس من خلال النوافذ والى جانبك مومس طيبة ومخلصة تمحضك الحب ، تحب كل شيء فيك ، فيما تصدح الطيور ،

والمائدة مبسوطة ، فيما تغتسل هي وترجل شعرها ... وأنت الآن ، أنت فقط فيما تمر المراكب والصنادل ، وتيار الحياة يفيض من خلالك ، من خلالها ، من خلال الرجال قبلك ورجمـا بعدك . الأزهار والطيور والشمس تتدفق ويصعقك اريجها ، تتلاشى .

لقد رجوت كلود أن تعيش معي ، ولكنها رفضت . هذه صدمة . أعلم ان فقري ليس هو السبب ، كلود تعلم كل شيء عن وضعي المالي وعن الكتاب الذي أكتبه . الخ . لا . . لاريب ان ثمة من سبب آخر أعمق . ولكنها ترفض البوح به .

ثم هناك شيء آخر : لقد بدأت اتصرف كالقديس . أسير مسافات طويلة بمفردي وإن ما أكتبه الآن لاعلاقة له بكتابي . إنه ليبدو وكأنني وحيد في الكون ، وان حياتي كالتمثال : كاملة ومنفصلة . لقد نسيت حتى اسم صانعي وأشعر كأن كل أعمالي ملهمة ، كأنني خلقت كيلا أمارس شيئاً سوى الخير في هذا العالم . واني لا أطلب موافقة أحد .

إنني أرفض قبول أي احسان من (كلود) بعد الآن . أحفظ في خاطري كل استلبته منها . إنها تبدو كئيبة في هذه الأيام وفي بعض الأحيان عندما أمر بها في الشرفة ، أستطيع أن أقسم ان ثمة دموعاً في عينيها . إنما تجيء الآن ، أعلم ذلك ، إنها تجيء بيأس . تجلس ساعات وساعات هناك على الشرفة . أصحبها أحياناً لأنني عاجز عن أن احتمل رؤيتها كئيبة ، تنتظر ، تنتظر ، تنتظر .

وبلغ الأمر بي أن تحدثت عنها إلى بعض أصدقائي . أجل ، إن أي شيء أفضل من الجلوس هناك تنتظر ، تنتظر بماذا تفكر عندما تجلس هناك بمفردها ؟ . . إنني لأتساءل ماذا ستقول إذا ماذهبت يوماً وقذفت إليها بألف فرنك . أذهب اليها عندما أرى تلك النظرة الأسيانة في عينيها وأقول :

— ذلك أمر نسيته في ذلك اليوم .

وفي بعض الأحيان عندما نضطجع معاً وتأتي فترات الصمت الطويلة والمترعة ، تقول لي : ما رأيك الآن ؟

وأجيب دائماً : لا شيء ولكن ما أفكر به في نفسي حقاً هو : هذا شيء ... ذلك هو الدور الجميل للحب بالدين .

عندما تغادرني تقرع الأجراس بوحشية . إنها تصلح كل شيء في اعماقي . أضطجع على الوسادة وأستمتع بالسيجارة الهزيلة التي تركتها لي ليس على أي أثار بشيء إذا ما كان ثمة طبق في فمي فانني على ثقة أنها لن تنسى أن تضعه على الطاولة لصق سريري مع علبة الكبريت والمنبه ، وسائر الأشياء .

إن بنطالي مطوي بعناية ، وقبعتي ومعطفي معلقان على مشجب بالقرب من الباب . إن كل شيء في مكانه رائع ! . . عندما تحصل على مومس تحصل على جوهرة ... !

وأفضل ما في الأمر أن الشعور الرائع مستديم . إنه شعور صوفي . وأن تصبح صوفياً هو أن تشعر بوحدة الحياة . إنني لا أكترث بعد الآن ، فيما اذا كنت قديساً أم لم أكن . إن القديس يناضل كثيراً ، وليس في أعماقي أي نضال بعد الآن . لقد أصبحت صوفياً أعلم الطيبة والسلام والهدوء . إنني أجلب المزيد من الزبائن لكلود ، ولم تعد تلك النظرة الحزينة تبدو في عينيها حينما أمرها . إننا نأكل معاً. في كل يوم تقريباً تصر على أخذي إلى الأماكن الباهظة التكاليف . ولم أعد رصيناً بعد الآن : إنني استمتع بكل وجه من وجوه الحياة . الأماكن الفخمة والأماكن المتواضعة . . إذا كانت تجعل كلود سعيدة . لكني رغم ذلك أفكر بشيء ما .

ثمة شيء صغير ، لم يلبث أن ازداد أهمية شيئاً فشيئاً في خاطري . في المرة الأولى لم أقل عنه شيئاً . فكرت في نفسي . إنها لمسة غير عادية من الظرف .

إنها فاتنة في الواقع . أما عن المرة الثانية فإنني أتساءل هل كانت المسألة ظرفاً ، أم مجرد عدم اكتراث ؟ . .

بين المرة الثانية والثالثة لم أعد وفياً . وفي إحدى الليالي كنت أذرع (الفوراند بوليفار) ثملا بعض الشيء . وبعد أن احتملت عذاب الطريق من (البليس دى لا ريبابلك) حتى منطقة (لوماتن) صادفت مبغى كبيراً أجرب لم اكن لألتفت اليه . وكانت قضية تبعث على الضحك . ذلك ان الزوار كانوا يقرعون الباب كل بضع دقائق . كانت ليلة مضحكة جداً .

فبعد مضي يوم تقريباً بدأ الهيجان . المتاعب : رحلة مسرعة إلى المشفى الأميركي ، ورؤى من المرض الأسود . ومع ذلك فليس ثمة من شيء على غير ما يرام . مجرد قلق .

وعندما أخبر (كلود) بالأمر تنظر إلي بدهشة .

— أعلم انك تثقين بي كثيراً . . ياكلود . ولكن . .

ترفض (كلود) أن تضيع أي وقت في أمر كهذا . إن الرجل الذي يتسبب مرضاً لإمرأة عن عمد ليس إلا مجرماً . هكذا تنظر كلود إلى الأمر .

ومع ذلك فقد أنهى الموضوع . إن أي رجل يفعل ذلك ، مجرم ، والآن عندما أتناول زيت البارافين في كل صباح (أتناوله دائماً مصحوباً ببرتقالة) أبدأ التفكير بأولئك المجرمين الذين يسببون الأمراض للنساء . إن زيت البارافين يجعل المعلقة بالغة اللزوجة ،

ولذلك فإن من الضروري غسلها . أغسل السكين والملعقة بعناية وأنجز كل شيء بعناية أيضاً ، فهذه هي طبيعتي . بعد أن اغسل وجهي أنظر إلى المنشفة .إن الخادم لاتعطي أكثر من ثلاث مناشف في الأسبوع . وحينما يأتي يوم الثلاثاء تكون جميعها قد تلوثت . أجفف السكين والملعقة بمنشفة . أما حينما يكون متعلقاً بوجهي فإنني استخدم غطاء السرير .

أنا لا أدلك وجهي ، بل أربت عليه بلطف بطرف غطاء السرير .

إن « رو – هيبولايث – منيدرون » تبدو دنيئة في ناظري . إنني أكره كل الشوارع القذرة الضيقة ذات الأسماء الرومانتيكية . إن باريس تبدولي مثل قرحة زهري كبيرة وبشعة . إن الشوارع متعفنة،والكل مصاب فيها : إذا لم يكن مصاباً بالسيلانفهو مصاب بالزهري .

كل أوربا تنقل بالداء وإن فرنسا هي التي جعلتها كذلك .

ذلكم هو حصاد الأعجاب بـ (فولتير) (رابليه) .

كان علي أن أذهب إلى (موسكو) كما سبق ان اعتزمت حتى ولو لم تكن ثمة أيام أحد في روسيا . فأي فرق في ذلك ؟ إن يوم الأحد مثل أي يوم آخر الآن . الشوارع فقط أشد ازدحاماً . وثمة المزيد من الضحايا الضائعين ، يلوث واحدهم الآخر .

انتبه . . إنها ليست (كلود) التي أشعر ضدها بالهياج . إن (كلود) جوهرة ولاشك في ذلك .

هناك القفص معلق خارج النافذة وهناك زهور ايضاً . ومع ذلك فليست باريس ، مدريد ، أو اشبيلية . ليس ثمة من ينابيع أو يمامات . كلا ، إنها أشبه بالصبح . في كل يوم تدخل (كلود) أحد الأبواب وأدخل أنا باباً آخر . ليس من مطاعم باهظة التكاليف . نذهب إلى السينما كل ليلة ونحاول أن نكف عن التلوي . لا أحتمل مرأى زوجين بعد الآن . هؤلاء القوادون الجالسون على الشرفة ، يبدون بالغي النظافة والصحة بمعاطفهم المدبوغة وقمصانهم المنشاة ورائحة (الكلونيا) التي تفوح منهم . لم تكن خطيئة (كلود) كلياً . حاولت تحذيرها من أولئك القوادين رقيقي المظهر . كانت واثقة من نفسها إلى حد ملعون : اللقاحات وكل ماله علاقة بها . ثم إن أي رجل يرغب . . حسناً ، هكذا حدث الأمر . ان تعيشي موع مومس – حتى أفضل مومس في العالم – لا يعني العيش في سرير من الورود . وليست القضية قضية عددمن الرجال، على الرغم من ان ذلك ينفذ إلى تحت جلدك في بعض الأحيان . إنها حفظ الصحة الدائم ، الارتواء ، الفحوص ، القلق ، الخوف ، ثم وعلاوة على ذلك كله – قلت لـ (كلود) وأعدت عليها مراراً :

حاذوي أولئك الرجال المختالين .

لا ، إنني أنحو على نفسي باللائمة بسبب كل ماحدث . ولأنني لم أكن مقتنعاً بكوني قديساً ، كان علي ان أثبت بأنني كنت قديساً . عندما يدرك الإنسان انه قديس فإن عليه أن يتوقف هناك . إن محاولة العثور على القديس من خلال مومس صغيرة أشبه شيء بالتسلل إلى السماء على الأدراج الخلفية . عندما تداعبني – انها تحبني الآن أكثر من أي وقت مضى – فانني أبدو وكأنني مجرد جرثوم ملعون يدلىء نفسه بروحها . إنني أشعر حتى في الوقت الذي أعيش فيه بصحبة ملاك ، ان علي أن أحاول إثبات رجولتي . إن علينا الإفلات من ذلك الثقب القذر ، والعيش في مكان ماتحت الشمس .

غرفة ذات شرفة تطل على نهر ، طيور ، أزهار ، والحياة تتدفق ، ونحن معاً ولاشيء آخـــــــر .

• • •

خواطر أدبية

الدكتور ابراهيم الكيلاني

الكتاب في السوق

كان للكتاب في الماضي القريب ، حرمة ووقار ، لا يقتنيه إلا الأثرياء والمترفون ومتوسطو الحال من العلماء والخاصة . وكان لا يباع إلا في المكتبات ، يوضع على الرفوف ويعرض في الواجهات وسط هالة من التقديس والاحترام كأنه حاجة ثمينة صنعت لفئة مختارة من البشر ، أو أمنية عزيزة المنال لا يحلم بتحقيقها إلا من رزق خير الدارين . وكان أحدهم ، اذا جار عليه الزمان ، وأعوزه المال فأراد أن يبيع كتبه – وكان بيع الكتب آخر دركات الذل والهوان يهبط إليها العالم – عرضها على الوراقين ، ولم يكونوا عهدئذ كثراً أو دفعها إلى رجل من الدلالين ليطوف بها هذا على من يتوسم فيهم رغبة فيها ، أو دار بهـا

في الأسواق والمقاهي فيقتني منها الناس ما يشاؤون ، كل حسب ذوقه واختصاصه ، فلأكثر ما كان بين هذه الكتب المحمولة من نفائس أخرجتها الحاجة من يد مالكيها

وقد تخرج الحاجات يا أم عامر كرائم من رب بهن ضنين

وهكذا يكون الكتاب قد نزل من عليائه متدرجاً من مكتبة صاحبه ، إلى دكان الوراق ليستقر بين ذراعي الدلال المتجول .

أما اليوم ، بعد أن وضع المد الديموقراطي الثقافة في متناول الجميع يسعى إليهم بها أكثر مما يسعون هم إليها ، وبعد أن تمت دور النشر في قطر عربي مجاور عملية « تتجير الكتاب » واعتباره إنتاجاً غايته البعيدة والقريبة الربح المادي هبط الكتاب إلى مستوى السلع والمواد الاستهلاكية مع الفارق في أن هذه من الضروريات في حين ظل الكتاب في منطقة الكماليات ، وأن السلع والحاجات تخضع لعرض والطلب ، والكتاب بعيد عن هذا القانون . ألم يلفت انتباهك وأنت تمر في شوارع دمشق منظر باعة الكتب وقد وضعوا الكتب على الأرض حتى تكاد تطؤها أرجل المارة ، ينادون على بضاعتهم بأصوات تلقي ، أحياناً ، على أصوات بائعي الخضراوات والفاكهة ؟ ألم ترهم وقد وضعوا على عرباتهم أصناف الكتب الأدبية والتاريخية والعلمية والروايات المؤلفة والمترجمة لكتاب عالميين من الشرق والغرب تجذبك إليها حيل طباعية بلغت حد الإتقان بل تجاوزته ؟ وقد لا تفوتك ، إذا ما وقفت هنيهة تتأمل هذه الموائد الثقافية ، رؤية البائع يحرك بأصابع يديه المنفرجة كومة الكتب . تشويقاً للواقفين ، كما يحرك الفاكهاني كومة الكرز أو الفاصوليا .

هذا جميل ، والله ، إنه لمنظر يدخل السرور والنشوة إلى القلوب رؤية ثمرات العقل الإنساني توضع ، بأرخص الأثمان ، بين أيدي أبناء الشعب المتعطش إلى العلم ، المتلهف إلى العرفان . ولكن هل تقرأ هذه الكتب التي دفعها الكساد إلى أيدي الباعة ، وهل يكون رخص ثمنها مدعاة للاقبال عليها ، وهل بقي في هذا الزمان أمام الإنسان مجال للإختيار بين غذاء الأجسام والبطون وغذاء الأذهان والعقول ؟

جرت أمامي حادثة تلخص الموقف تماماً :

انتقى أحدهم كتاباً ، وأظنه لطه حسين ، من بين الكتب وبعد أن تصفحه ملياً رده إلى الكومة ، فأدرك البائع أن الرجل ، بعد طول تردد ، استغلى الكتاب فقال له بصوت عال :

ياأخانا أن ثمن هذا الكتاب يعادل ثمن كيلو من الموز تأكله بلحظة ، نصفه أو أكثره قشور !

الكتاب بين الإعارة والاستعارة

دخل علي صديق يوماً فلما شاهد خزانة كتبي بدرت منه صيحة استغراب فقال : هل قرأت هذه الكتب كلها ؟ قلت : لا ، قال : ولم أنت ضنين بها ، حريص عليها حرصك على أثمن الحلي وأغلى الحاجيات ؟ فإني كلما جئتك مستعيراً كتاباً حدقت إلي النظر ، وأكثرت التعجب مني ، ثم ترددت وتمنعت ولذت بمختلف الأعذار ، فأنت تارة ملتزم بوعد قطعته على نفسك بألا تعير ولا تستعير ، أو محتاج إلى الكتاب لتحضير بحث ، أو كتابة دراسة ، أو تسوق حجة أخرى وهي أن الكتاب ثمين أو نادر ، أو أنه نسخة شخصية فريدة مليئة بالحواشي والتعليقات التي لا يعوض عن فقدانها شراء نسخة بديلة ، إلى غير ذلك من الحجج حتى كدت والله أن أيأس منك وأشك في صداقتك وأحشرك في عداد البخلاء ، فكما أن هؤلاء يكنزون الذهب والفضة استجابة لجواذب الأنانية العمياء ، وإشباعاً لغريزة التملك فأنت أيضاً لا تختلف عن ذلك البخيل الذي يحتفظ بكنوزه ويخفيها عن أعين الرقباء والراصدين ، ولا يعرضها إلا للتفاخر أو التعبير عما يداخله من ارتياح في إشباع رغبة دفينة فيه .!

قلت : معاذ الله ياصديقي أن أكون ما ذكرت ، بيد أنني حريص على كتبي ، مشفق عليها وقد زادني حرصاً وإشفاقاً عليها غارات المستعيرين المتطفلين الذين يعملون في مكاتب الناس نهباً واستئثاراً ، حتى آليت على نفسي ألا أفرط بواحد منها مهما ضؤل حجمه ، وسخف موضوعه ، ورخص ثمنه ، ثم إنه ليس من الضروري الحتم يا صاح أن يكون المرء قرأ الكتب التي في حوزته واستنفد مادتها حتى يمتنع عن التعلق بها فهي جزء من شخصيته وكيانه العقلي ورصيده الروحي ، فإن لكل واحد منها ذاتيته ومعناه ومدلوله وامتداد آفاقه ، فما أجملها وهي مرصوفة على الرفوف ، وما أحلاها في صمتها ووقارها وتواضعها وغمزاتها المغرية إلى تقليب صفحاتها ودعوتها الملحة الرقيقة إلى ولوج عالم مقدس علوي عجيب بعيد عن صراع البقاء وتكالب المادة ، فكأن كل كتاب منها دنيا مستقلة ومتداخلة في آن واحد ، ولئن تجاورت فقد توحدت بأفكارها وآرائها ونظراتها واستكناه أسرار الوجود والحياة الإنسانية على مر العهود وتقلب الحضارات . وبعد فإني حريص عليها لا لأني اشتريتها بمالي المجموع بعرق الجبين فحسب ، بل لأن بيننا روابط صميمية وممازجة عاطفية ، ومجالسات أنسية لا قدرة لي بعدها على الاستغناء عنها .

وما زال صديقي يلح علي بإعارته كتابين أو ثلاثة منها مقسماً الأيمان بأن غربتها لن تدوم أكثر من أيام يكون في نهايتها برهان على صدقه وتكذيب لوساوسي ومخاوفي ، فرضيت مكرهاً وإني لعالم بأن هذا فراق لا لقاء بعده ، وها قد مضى على ذلك عامان وليف انتظرت عبثاً عودة تلك الكتب الحبيبة إلى جوار نظرائها ، ولا يزال مكانها فجوة سوداء تشهد على غفلتي وإمعيّتي !

ويبدو أن العرف والعادات تجيز استملاك الكتاب المعار ، إن لم تكن تشجع عليه ، وفي رأيي أن ليس ثمة فرقاً بين المستعير والمستملك واللص الشريف فكلاهما غرضه نبيل تقره الأعراف وتحرمه القوانين فهذا يسرق العلم والمعرفة وذاك يسرق لإعانة الفقراء والمعوزين بل هما ينطلقان من فلسفة واحدة ووجهة نظر واحدة ، بل هما مظهران لحقيقة قائلة : إن الاستئثار بالمال مخل بالدين والمروءة ، وأن في كل مال حقاً للسائل والمحروم ، فكذلك الكتب أشياء حوت ثمرات العقل والتفكير فهي ملك مباح ومشاع بين الناس ، لا تباع ولا تشترى بل هو مبذول للجميع وأثمن وأجل من أن يقرن بالمادة ، وقد نسوا أو تناسوا أن الكتاب مادة مصنوعة وثمرة عمل يتطلب أجراً وكلفة مادية فهو يشرى بالمال كغيره من السلع ، وأن عملية التجريد المادية لا وجه لها . ومن المفارقات الغريبة في هـذا الشأن مبادرتهم إلى إعارة حاجة من الحوائج المعارة كالثياب والأواني والأثاث والمواعين إلى أصحابها مصحوبة تارة بالشكر والإعتراف بالجميل أو الاعتذار عن المطل والتأخير تارة أخرى ، أما الكتب وهي أغلى على قلب صاحبها من ذلك المتاع كله فانها لا تحرك عند المستعيرين عواطف الأمانة والنزاهة والشعور بالحرج فهم يحتفظون بالكتاب شهوراً بل سنين حتى إنهم ليدعون ، بكل براءة وعفوية ، وبلسان الحال لا بلسان المقال ، بأن الكتاب أصبح ملكهم بحكم التقادم ومرور الزمن حتى إذا ما بدا منك تعجب واسترحام قبلوا أن يعيدوه لك على سبيل الإعارة راجين أعادته في أقرب فرصة ممكنة !

إن مالك الكتاب موزع بين شعورين متناقضين : سرور في بذل العلم والمعرفة ، وحزن يعقب فراق كتاب معار !

المؤلف بين الإهداء والاستهداء

ما زال الكتاب ، في الشرق العربي ، معدوداً في جملة الكماليات لا الضروريات . ولو رحنا نستعرض الحوائج التي يبتاعها المرء في يومه ، على غلاء ثمنها ، واشتداد ندوتها ،

والتي يبذل في اقتنائها عرق القربة ، لجاء الكتاب ، غذاء العقول والأرواح ، وأداة الحضارة الممتازة في أسفل القائمة ، وقد لا يدخل عند الكثيرين في حيز المشتريات والمقتنيات .

لا أريد أن أبحث عن الأسباب وهي عديدة : تبدأ من شيوع الأمية وبوار سوق العلم ، مارة بندرة الكتب الجيدة والكتاب المجيدين ، وغلبة وسائل الإعلام الحديثة من إذاعة وتلفزيون وصحافة ، حتى تستقر في فقدان عادة القراءة ، والزهد بالكتاب .

إن القضية المتفرعة عن هذه الظاهرة لا تكمن في رواج الكتاب أو كساده بل في الكتب التي ألزم المؤلف بإهدائها إلى أقرانه من المشتغلين بصناعة العلم ، وإلى ذويه ومعارفه على تفاوت أنصبائهم من الذوق والمعرفة والثقافة . إذ لا يكاد يبرز الكتاب إلى عالم الوجود حتى يعمد المؤلف إلى إعداد قائمة بأسماء الذين يحق لهم اقتناء الكتاب الجديد ، إما تبعاً لحق مكتسب ، أو عادة سلفت ، أو سنة موروثة ، وقد لا يبعدان يشترى المؤلف كتابه إذا أعوزته النسخ ، إشباعاً للرغبات ، واسكاتاً للنزوات ، وحفظاً للصداقات .

وقد يلجأ بعضهم ، إذا ما تقاعس المؤلف ، لسبب ما ، عن تلبية الرغبة ، وتصامم عن سماع التلميح ، إلى أساليب لا تخلو من براعة كأن يقول لك أحدهم ، متكلفاً الاستغراب ، ولهجة الاستفهام المشوبة بالعتاب : بلغني يا أخانا انك أصدرت كتاباً جديداً ، ولم يكد يملأ الخبر مسمعي حتى شرعت في الطواف على المكتبات لإقتنائه ، فما فزت بطائل ، فلا هو معروف لديهم ، ولا هو معروض في واجهات حوانيتهم ، فهل يعقل أن يصدر أستاذنا كتاباً ، تهمني مادته ، ويشوقني بحثه فلا يتصدر مكتبتي بعد أن أكون قد أمتعت ذهني بروائعه ، وجلوت الصدأ عن قلبي ببدائعه ؟ فليس للمؤلف ، والحال هذه ، إلا الاستغفار عن ذنب سلف ، والاعتذار عن هفوة بدرت ، والمبادرة إلى اجابة سؤل الطالب .

وثمة آخرون يعتريهم نوع من العناد ، على شدة حاجتهم للكتاب المنشور ، ورغبتهم في الحصول عليه ، فيلجؤون ، بعد أن يئسوا من الإهداء ، وبعد أن يكونوا أشبعوا المؤلف قوارص التعريض ووخزات التلميح ، إلى مقاطعة باطنية تتكشف عن الاحجام عن شراء الأثر ، مع تصنع اللامبالاة والتجاهل المؤديين إلى الازورار المفضي بدوره إلى غاية من القطيعة والجفاء .

أما أن تجد أناساً ، يبتاعون الكتاب ثم يسعون وراء مؤلفه للفوز باهدائه وتوقيعه ، كما يفعل الناس في بلاد الناس ، فهذا مالا يحلم به أديب ، ولا يخطر على بال مؤلف !

أما الذين أهدوا الكتاب فتحققت بذلك رغبتهم ، وأشبعت كبرياؤهم فهل يقرأون الكتاب وهذا لعمري خير مثوبة وعزاء يطمح اليها المؤلف ؟ الحق أن الذين يقرأون الأثر المهدي أقل من القليل ، وقد أثبتت التجارب أن عملية الإهداء يعقبها عادة صمت عجيب وتجاهل تام يلفان الأثر قبل دخوله عالم النسيان والقدم . ولا ريب في ان الإهداء يكون مصحوباً في بعض الأحيان برد فعل يعدي عند المهدى إليهم ، وهؤلاء على أنواع فمنهم من يعتذر عن تقصيره في مطالعة الأثر بلهجة الشاعر بالذنب ، معللا ذلك بضيق الوقت ، وعدم سنوح الفرص للاختلاء بالأثر النفيس وقراءته وتدبر فحواه ، ومنهم من يبادر إلى القول فيمتدح الطباعة والإخراج والتصميم دون الاشارة إلى المضمون ، ومنهم من يشير بعد ان يكون تصفح الكتاب على عجل أو اختلس النظر إلى الورقات الأولى ، إلى الأخطاء المطبعية عارضاً عليك بعضها ، لا حباً بالكمال ، بل للافادة منها في الطبعات المقبلة .

ولعل أسوأ هؤلاء جميعاً هم الذين يبغون من وراء الاستهداء ، إشباع غريزة التملك ، لا أكثر ولا أقل ، ألم يبلغكم خبر ذلك الثري الذي دخل دكاكين الوراقين باحثاً عن كتاب من حجم معين ، وقطع معين ، ملأً للفراغ في الرف ، أوانسجاماً مع الأثاث والطابع التزييني ، وتناسباً مع الكتب المرصوفة التي ورثها عن أبيه وجده .

كان أجدادنا القدامى يقولون ، موفقين بذلك بين العلم والمادة : الكتب والسجاد أفضل قنية ، أما في زماننا هذا فقد كسد الكتاب ، وراجت سوق السجاد ، يتسابق في اقتنائه كل إنسان ، من غني « وطفران » !

المحاضرة والمحاضرون (١)

كان الكتاب ، بوصفه أداة حضارية ثقافية قيمة ومجد . وكان المؤلفون ، على قلتهم ، يتمتعون بمكانة مرموقة مبعثها احترام تقليدي للعلم وأهله من نحو ، وتعطش المعرفة من نحو آخر . ولما تطور الزمن ، وشاعت الثقافة ، وفتح المد الديموقراطي أبواب العلم للجميع ، وأخذت المعرفة تنتشر أفقياً على حساب العمق ، واشتدت وطأة الحضارة المادية الصناعية المتميزة بالسرعة والسطحية ، وتغليب الكمية على النوعية شرع الناس يعرضون شيئاً فشيئاً عن

(١) كتبت هذه الخاطرة بعد أن لوحظ تقهقر هذا النوع الأدبي وانصراف الناس عنه .

الكتاب مستعيضين عنه بالصحف والمجلات أو الكتب السهلة التي لا تستوجب جهداً عقلياً ، أو الرخيصة المثيرة لغريزة العنف أو القلق الجنسي .

جرى هذا قبل أن تدخل الميدان وسائل الإعلام الحديثة الأخرى كالسينما والإذاعة والتلفزيون ، فقل ، تدريجياً ، الإقبال على المقروء بقدر ما كثر على المرئي والمسموع ، ثم بادرت السينما والإذاعة إلى زحم الكتاب والمجلة والصحيفة معاً ، ثم لم يلبث التلفزيون أن نافس السينما والإذاعة ، ثم أخذت الإذاعة والتلفزيون بدورهما في الإجهاز على المحاضرة وما يدور في فلكها من حديث وندوة وطاولة مستديرة أو مربعة ! أو غير ذلك من ألوان القول الإعلامي .

ولنقصر كلمتنا على المحاضرة .

المحاضرة نوع أدبي ، ووسيلة لنقل الثقافة والمعرفة الإنسانية ، وتبسيط لأنواع العلوم والفنون ، وهو نوع صعب إلى حد ما ، على من يريد أداءه على الوجه الأكمل ، ووجه الصعوبة فيه اقتضاؤه الجمع بين موهبتين : موهبة الإحاطة بالموضوع وتقديمه بشكل ملائم يتناسب ومقتضى الحال ، وموهبة خطابية إلقائية تستدعيها مواجهة مباشرة مع هذا الكائن الاجتماعي العجيب المتنوع المستويات والعقليات والأذواق والنفسيات الذي نسميه جمهوراً .

إن المحاضرة تعاني في زماننا هذا أزمة شديدة تتجلى في انصراف الناس عنها ، والزهد في القائل والمقول ، وصعوبة إيجاد المستمعين ، على كثرة المحاضرين والمتطلعين إلى هذا النوع من الفعالية الفكرية ، ولعل صعوبة جذب المستمع أكثر ظهوراً في المدن الكبرى منه في المدن الصغرى ، وما زلت أذكر صورتين عالقتين بذهني ، يوم كان للمحاضرات رواج وسيرورة كيف كانت الجمعيات والمؤسسات يتخطفن المحاضرين ويحطنهم بالإجلال والترحيب والإكرام المعنوي والمادي ، ويوم كان المستمعون يلبون الدعوات طائعين مختارين تحدوهم الرغبة في المعرفة والاستطلاع والفائدة ، وما أكثر ما كانت تعد المحاضرة حدثاً أدبياً يتحدث عنه الناس نقداً أو تعليقاً .

كما أنني ما زلت أذكر ، بعد أفول نجم المحاضرات ، الخيبة التي كان يصاب بها بعض المحاضرين والحرج الذي كان ينتاب الداعين من جراء قلة المدعوين وكيف كانوا يلجؤون إلى تعبئة مستعجلة تحملهم على الاستنجاد بالجوار والمارة ، وانتزاع الأصحاب والأنصار من منازلهم على جناح السرعة ملأً للفراغ ومراعاة لإحساس المحاضر وحفاظاً على سمعة النادي أو الجمعية ، هذا وقد يترك أمر تعبئة المستمعين إلى المحاضر نفسه فترى بعضهم دائباً في توزيع بطاقات

الدعوة ، فلا تكاد تصادفه حتى يبادرك ببطاقة الدعوة بطريقة تحمل معاني الرجاء المكبوت والاستعطاف الخفي ، وقد يلجأ آخرون إلى تعبئة الأهل والأقارب والمعارف وأهل الحي تكثيراً للعدد ودفعاً لشبح الفراغ الذي يخيف كل محاضر مهما علا شأنه وكثر علمه ، فكم من أستاذ كبير ، وأديب نحرير ، وعلامة خطير لم يلق في اليوم الموعود ، بعد تحضير واستعداد داما أياماً وليالي سوى أفراد قلة لا يهمهم موضوعه في قليل أو كثير !

والظاهر أن عصرنا هذا القائم على السرعة وضيق الوقت ، ووطأة الحياة في مختلف مظاهرها قد أضعف التركيز الذهني عند الإنسان المعاصر ، وبدد انتباهه ، وحرمه من فسحة التثقيف الذاتي الاختياري المجرد عن الغايات والمنافع ،، فإن المحاضرة التي تقوم مبدئياً على دعوة إلى مكان معين ، في زمن معين ، وساعة معينة للاستماع طوال ساعة أو أكثر ، بقضونها جالسين على مقاعد وثيرة أو غير وثيرة ، إلى رجل معروف ، أو صاعد على سلم المجد ، أو مغمور ينشد الشهرة وذيوع الإسم ، يلقي موضوعاً محبباً إلى نفسه ، أو مفروضاً عليه ، أو لا هذا ولا ذاك ، أقول : إن هذا النوع من الفعالية الفكرية لم يعد يأتلف وظروف حياتنا المعاصرة ، ولئن كان في المحاضرة متعة للعقل ، فان في الوسائل الإعلامية ، المسموعة والمرئية ، إمتاعاً للذهن والسمع والبصر والخيال معاً .

* * *

مضى علي ثلاثون سنة ونيف مرتقياً المنابر ، محدثاً ومحاضراً ومدرساً حتى أنست بالجماهير على اختلاف أنواعها فعرفت نفسيتها واطلعت على خفايا ميولها ونزعاتها وقد حصلت لدي تجارب في هذا الباب أخلصها للقارىء، طلباً للمتعة والتفكه والترويح عن النفس :

تبين لي أن المستمعين أنواع خمس :

١) الطالب المستفيد :

وهو أحسن المستمعين ، وهو الذي يحبه المحاضرون ويتوقون إليه ، ويجعلونه، أحياناً ، مقياساً للتوفيق والإجادة ، أو الإخفاق والفشل، هو ذلك الإنسان الذي جاء ينشد ، بصحبة المحاضر ، رحلة عقلية أو عاطفية ، قد تطول أو تقصر ، يرتفع فيها ولو لبرهة فوق مشاغل الحياة المادية ، رائده الإخلاص وإدراك الفائدة مهما ضؤلت ، تربطه بالمحاضر وشائج من التجارب القلبية والحرارة الإنسانية فينصت اليه بكل

جوارحه متابعاً إياه في مسار تفكيره وتصوراته ، ومسلماً قياده له في شيء من الترنم والحنين ، والمازجة النفسية .

٢) المتربّص :

وهو الذي يعتبر المحاضرة حادثاً عادياً يلتمس فيه ، حسب تصوراته ومواهبه ، تسلياً وعبثاً وإشباعاً لحاجات نفسية ، قد تعلو أو تسفل ، كحب الظهور ، أو رصد الهفوات والعيوب عند المحاضر والمستمعين على السواء ، إنه ذلك المستمع المغلق القلب والحواس ذو الموقف السلبي البعيد عن المشاركة والانغماس في الجو ، ومن خصائص هذا النوع أنهم يرصدون كل حركة ، وكل نأمة تحدث في القاعة ويلتفتون لأقل بادرة ويرقبون النكتة والأفكوهة وكل ما يخرج عن سياق الموضوع .

٣) الطُّلَعَة :

وهو الذي فاتته مناسبات أخرى يفضلها أو أماكن اعتاد ارتيادها ، فان لم يكن ثمة سينما أو سمر أو موعد جاء بدافع من التعويض ، لسماع المحاضرة ، هذا إذا لم يحجم بسبب العوارض الجوية من صحو يكون فيه الطقس جميلا تحسن فيه النزهة والتشمس ، أو غيم يكون الطقس فيه سيئاً فيستحسن البقاء في غرفة دافئة . ومن الظواهر الملحوظة عند هذا المستمع أن يصبح — بحكم انتفاء الغرض وانعدام الغاية — فريسة الملل ولا يبعد أن يكظم ضجره بحركة مشهورة ، أو هزة رأس أو زفرة عميقة ، أو تعليق بصوت عال يحدث فيه إزعاجاً أو تشويشاً وقد تنتهي هذه المأساة بالانسحاب من القاعة .

٤) المجاملون المخلصون :

وهم الذين يجمعون بين مجاملة المحاضر الذي تربطهم به علاقات شتى مهنية أو صداقة أو اهتمامات ذوقية أو ثقافية ، وبين طلب المتعة أو الفائدة المتوقعة ، وعرف عن هؤلاء أنهم ، وهم بذلك على حق ، حريصون دوماً على إثبات وجودهم تشجيعاً له ، مشيرين بذلك إلى التجاوب الفكري مع المحاضر والتقدير الخالص المرتبطين بشخصه

٥) المجاملون المخادعون :

وهم الذين يستغرب وجودهم في مثل هذه المناسبات ، جاؤوا إرضاء للمحاضر وتملقاً له وبخاصة إذا كان ممن يرجى خيره أو يخشى شره ، ويكثر هذا النوع بين الموظفين ، وصيادي المنافع والمنتسبين إلى هيئات وأحزاب مختلفة ، فما أكثر ما يبادرون بعد انتهاء المحاضر إلى سلقه بألسنة حداد والسخرية منه ومن أقواله ذلك أن حضورهم سخرة أليمة لا بد منها تقوم على التضحية بالوقت واحتمال الأسى طوال ساعة أو أكثر طمعاً بخير آت أو دفعاً لشر منتظر ، ويبلغ نفاق هؤلاء الذروة في حرصهم على تهنئة المحاضر والسعي للمصافحة باليد مصحوبة بعبارات الإعجاب الكاذب والإكبار المزيف .

٦) المستمعـــات :

وهن يشكلن فئة مستقلة متصفة بخصائص لا نجد بعضها عند الرجال ، فالمرأة كائن عاطفي حساس ، رقيق المشاعر تغلب الآلفة الاجتماعية عندها على ما سواها من العواطف ، فاذا ما قصدت المرأة المحاضرة كان اهتمامها موجهاً إلى جمهور المستمعين أولاً والمحاضر ثانياً ، أو بالعكس فهي حريصة في مجيئها على أن ترى وترى ، وعملها هذا مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحياة « المجتمعية » التي هي دعامة من دعائم كيانها النفسي وبنيتها الذاتية فكما أن ارتياد « الاستقبالات » والمسارح والحفلات ، سواء المقصورة على الجنس اللطيف ، أم المختلطة غايات في حد ذاتها ، فإنها كلها إطارات وأسباب وسبل لإظهار مفاتن المرأة وإحاطة محاسنها العقلية والجسمية بهالة من الاهتمام والإعجاب ، وإشباع لحاجات صميمية فيها هي بمنزلة الغذاء للأعضاء ، والروح للأجساد . هذا ولكل امرأة مها قل نصيبها من الجمال الجسماني والكمال العقلاني عضو جميل ، أو ناحية مثيرة تسحر وتفتن .

وقد ثبت لي ، في معرض الكلام عن المحاضرات أن الفترة الزمنية التي تسبق الدخول في جو المحاضرة ، والفترة التي تعقب التحلل من جوها هما الفترتان اللتان تضفيان على الاجتماع بهجة مستحبة ، وشعوراً ذاتياً فيه نشوة تخالج المرأة هي سر هذا التلاقي الذي ينساب منه الدفء الإنساني الممزوج بالأنسة والتعاطف . وأثبتت التجربة أيضاً أن السيدات يفضلن الموضوعات النسائية أو التي تكون فيها المرأة هي الفائزة او المتفوقة أو التي تتجلى فيها عبقريتها في صراعها مع الرجل ومعارك البقاء ، بقدر ما ينفرن من المواضيع المجردة المعقدة الاختصاصية

الحافة والبعيدة عن الواقع المحسوس المعيش وبقدر ما تكون المواضيع ثقافية تجمع التسلي والدعابة إلى الفائدة تكون أدعى لرضائهن وإعجابهن بل وتصفيقهن !

تلك هي أنواع المستمعين فليضع كل قارىء نفسه حيث شاء !

بين التركيز والتبدُّد

ما أكثر الآفاق التي ابتلي بها الإنسان المعاصر ! أعطته الحضارة الحديثة أسباب الرقي والرفاه ، ومتعته بالمبتكرات والمكتشفات التي قوت سلطانه على الموجودات والكائنات ، ولكنها طالبته بالمقابل ، بأشياء كثيرة ، وهبته المتع فحرمته الراحة ، وخلقت له حاجات وكماليات أنزلها فيها بعد منزل الضروريات ، ثم حملته على السعي واللهاث وراءها ، فكأنها تسترد بالشمال ما أعطته باليمين وقد صدق من نعت الحضارة الحديثة « بالاستهلاكية » أي استهلاك المادة والإنسان معاً .

ولعل أشد هذه الآفات بروزاً ضعف الانتباه الذي بدأنا نشاهده بوضوح عند الكبار والصغار على السواء . حتى خشينا أن يصبح خاصية من خواص الحضارة الحديثة المعاصرة .

إن من فضول الكلام الإصرار على أهمية الانتباه في حياتنا الفكرية والخلقية ، فهو عامل أساسي في مقومات الشخصية الإنسانية ، وبه تناط القدرة العقلية عند الإنسان ، وهو الحد الفاصل والمميز بين العقول ، فلن تستقيم العمليات الذهنية العليا كالتجريد ، والمحاكات ، والاستدلالات إلا بالانتباه المركز ، ومن المسلم به أن الحكم الصحيح الصائب على الأشياء والأحداث لا يكون إلا في وضوح الرؤية ، ولكي تتضح الرؤية وجب التركيز في القوى العاقلة المفكرة ، لأن الأفكار ليست واضحة في حد ذاتها بل ينبغي بعملية ذهنية جعلها واضحة وهذا لا يكون إلا بحصر الانتباه وتصويبه على القضايا المطروحة حتى تسلم سرها المصون . وتعطي حقيقتها المنشودة .

ويبدو أن الحضارة المعاصرة عاملة على إضعاف كثير من الملكات الإنسانية وتبديد طاقاتها ، ويأتي الانتباه في طليعة هذه الملكات . فما أكثر ما تقع على شواهد يومية واقعية : هذا رجل تحدثه في موضوع معين ، ولعله هو الذي أثاره ، فيحدق اليك متكلفاً الإصغاء حتى إذا أنهيت حديثك بدرت منه حركة تشعرك بأن الرجل كان عنك في شغل ، وقد يبادرك بسؤال أو تعليق على ما قلت يفهم منه أنه كان حاضر الجسم غائب الذهن . ورب رجل آخر

يحدثك في موضوع ما حتى إذا ضعف التركيز الذهني والاتصال الفكري عنده انقطع عن الكلام فسألك عن الموضوع مادة الحديث ، أو النقطة التي وقف عندها . وهذا طالب تسمرت عيناه ساعات وساعات إلى صفحة كتاب فتظن أنه غارق في مادته لا يلهيه عنها شيء من جواذب المحيط ، حتى إذا بدرت حركة أو سمعت نأمة انتقل بنظره تلقائياً إلى مصدريها فتدرك حينئذ أن القارىء في واد والمقروء في واد ، وهذا تلميذ يقرأ محركاً شفتيه موهماً بالقراءة حتى إذا سألته عما يقرأ انتبه كمن أفاق من غيبوبة أو عاد من رحلة طويلة حتى صح في هؤلاء جميعاً الشطر الثاني من قول الشاعر :

أرانب غير أنهم ملوك مفتحــــة عيونهم نيــــــام

وراح علماء الاجتماع والنفس في تعليل هذه الظاهرة فأجمعوا على عدة أسباب منها : سرعة وسائل النقل والاتصال التي بتضييقها من الزمان والمكان ، كثرت بصورة عجيبة من عدد الأمور والقضايا التي تستأثر باهتمام الإنسان المعاصر وارتباطه الشعوري ، طالبة منه المشاركة بالوقائع الصغيرة والكبيرة التي تحدث في أنأى بقاع العالم وأدناها منه ؛ فإن أي حادث يقع في أيامنا هذه في القارات الست يستحوذ على تفكيرنا وعواطفنا ويلزمنا ، مها تكلفنا الحياد واللامبالاة ، بالانحياز إلى أحد المواقف ، كل هذا بعد ساعات ، إن لم يكن بعد دقائق من حصول الواقعة مع أن هذه المسموعات لم تكن تبلغ آباءنا ، بله أجدادنا ، إلا بعد أيام وشهور تكون قد تثلمت جدتها بمرور الزمن واتصال البعد ، فكأن الإنسان المعاصر مرتبط بوشائج دقيقة شديدة الحساسية ، حساسة الاستقبال ، بأجزاء الدنيا وذلك ليصدق فيه قول الشاعر :

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العــــالم الأكبر

وثمة سبب آخر يضاهي الأول خطورة وهو خضوع الناس لسلطان وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية ، ففي كل بيت وكل غرفة وأكاد أقول في كل جيب بل تحت كل وسادة مذياع يزودنا منذ الصباح بحصتنا اليومية من الأخبار التي تستلزم المشاركة العاطفية ، والارتباط الذهني ، والمازجة النفسية ثم تأتي الصحف بعناوينها الضخمة وصورها العديدة التي تنقل المواطن من عنوان إلى آخر . يعقب ذلك ما أسموه « الديكور الصوتي » الممثل بالأصوات الموسيقية والغنائية والكلامية ، ثم يأتي « الديكور الصوري » الممثل بالسينما والتلفزيون فينقلان المتفرج والسامع ، عبر المكان والزمان ، إلى عالم متحرك ، رجراج حسي سريع منطق حيناً ولا منطقي أحياناً ، غير متيح لها وقتاً للتأمل والتفكير أو التأويل والتفسير ، وهذا كله مدعاة إلى تغليب الحواس البصرية الحسية على الملكات العقلية الروحية

حتى غدا التبدد الذهني والتوزع الانتباهي حالة حتمية ، وعادة مستعصية جعلت الإنسان المعاصر يكثر من ترداد الكلمات الآتية في كل شأن من شؤون الحياة حتى الذي يقتضي الجدية والتدبر والتريث : اللمحة العابرة ، والنظرة العجلى ، والتصفح السريع ، والكلمة الموجزة ، والقول المقتضب . حتى بات التركيز على قضية من القضايا عند ناشئتنا بل المشرفين على تثقيف الجيل وتعليمه عنواناً للتململ والتأفف والشكوى ، وفي هذا تكمن مظاهر السطحية والعبث والتفاهة التي اتسمت بها جوانب من حياتنا الفكرية والاجتماعية .

ومن الغريب أن الجيل المعاصر الذي ألف التوزع والتفكك العقليين ، مدعو ، حاضراً ومستقبلا ، إلى تحمل مسؤوليات كبرى في قيادة المجتمعات والجماهير ، تستدعي ، إلى جانب المواهب العالية ، والقدرة على التفكير الواقعي السليم ، واستكناه بواطن الأمور وتحليلها بواسطة الشعاع الفكري النفاذ المسدد بغية استخلاص التصرف والسلوك الملائمين . أقول : يقتضي هذا كله ، قبل كل شيء اكتساب عادة التركيز والانتباه على الموضوع الواحد ، وممارسة العزلة في سن مبكرة بعمل إرادي ذاتي يقربنا من التجمع والالتقاء مع أنفسنا بعيداً عن ضوضاء الحياة ومواكب الصوت والصورة !

* * *

سجل المعرفة السكاني

الهجرة الداخلية والتنمية

يونس حيدر

تكشف دراسة تيارات الهجرة الداخلية في سورية عن كون الطابع المميز لهذه الهجرة يكمن في كونها هجرة من الريف إلى الحضر ، حيث أن الحضر امتص حوالي ٧٦٪ من جملة المهاجرين ، منهم ٥٠,٣ في المائة جاؤوا من المناطق الريفية ، في حين جاءت النسبة الباقية ضمن تيار الهجرة من الحضر إلى الحضر ، والذي سنحاول أن نتعرض إليه ضمن هذه الدراسة ، إضافة إلى التيار الآخر ، تيار الهجرة من الريف إلى الريف ، وبذلك نكون أمام

صورة يمكن أن نقول عنها بأنها شاملة لجميع تيارات الهجرة الداخلية في سورية ، والتي جرى تحديدها أو تصنيفها بحسب الحالة الهجرية ، من الريف إلى الحضر ، من الحضر إلى الحضر ، من الريف إلى الريف ، من الحضر إلى الريف .

إن دراسة هذه التيارات تضعنا أمام القضية الأساسية بالنسبة لتحديد الدوافع الرئيسية للهجرة ، والتي يمكن بلورتها بشكل مبدئي من خلال طرح هذا السؤال : هل الهجرة ، تعود في دوافعها الأساسية إلى قوة الطرد في الريف أم إلى قوة الجذب في المدينة ؟

ومن خلال طرح هذا السؤال ومحاولة الإجابة عنه يمكن أن نتبين العلاقة بين الهجرة الداخلية والتنمية ، أين يمكن أن نتبين فيما إذا كانت الهجرة مرتبطة بخطة التطور الاقتصادي والاجتماعي ، واستجابة لمتطلبات التنمية أم أنها مجرد رغبة في الانتقال وتحت تأثير قوة طرد الريف لفائض قواه العاملة ، التي لا تجد أمامها إلا أن تفكر بالزحف نحو المدينة ، أملاً في تحسين أوضاعها والبحث عن فرص عمل أفضل .

إن الظاهرة الملاحظة ، ليس في بلادنا فقط ، وإنما في جميع البلدان ، كون الريف يزحف نحو المدينة ، مما جعل نسبة سكان الريف تتناقص تدريجياً بالنسبة لمجموع السكان ، في حين تتسع نسبة سكان المدن ، وخاصة المدن الكبيرة ، التي تتركز الهجرة إليها ، وبتسارع يفوق قدرتها على استيعاب هؤلاء المهاجرين إليها ، مما يتسبب في خلق أزمات اقتصادية واجتماعية عديدة معينة للهجرة . غير أنه لا بد من الإشارة إلى نقطة أساسية هي أن معالجة مشكلة الهجرة على أساس إداري ، أي معالجتها ضمن صيغة إجراءات إدارية ، تضع في اعتبارها تحديد الهجرة ، لن تؤدي إلى نتائج إيجابية ، باعتبار أن المعالجة الوحيدة الممكنة لمشكلة الهجرة ، ينبغي أن تكون على أساس فهم دوافعها الأساسية ، والتي هي دوافع اقتصادية بالدرجة الأولى ، لهذا فإن معالجتها ينبغي أن تكون بالضرورة ، معالجة ذات طابع اقتصادي واجتماعي ، أي معالجة تضع في الاعتبار أسباب المشكلة وليس نتائجها .

ويمكن تحديد أشكال المعالجات الرئيسية للهجرة ، والتي جرى اتباعها في عدد من بلدان العالم على النحو التالي :

أولاً : تحديد الهجرة ، واعتبار بعض المدن مغلقة ، أي لا يسمح بالهجرة إليها ، وقد طبقت هذا الأسلوب بعض الدول كالإتحاد السوفياتي وألمانيا الديمقراطية . غير أنه لا بد من ملاحظة أن هذا الأسلوب إنما تم تطبيقه بعد أن استطاعت هذه الدول أن توازن بين مستويات

الحياة في الريف وفي المدن ، أي بعد أن استطاعت أن تؤمن احتياجات الأقاليم أو المناطق ، بحيث لا تكون هناك منطقة محرومة وأخرى يتوفر فيها كل شيء .

ثانياً : التشجيع على الهجرة ، وفي هذه الحال اعتبرت الهجرة نوعاً من الحل لبعض المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والسكانية ، كأن تكون هناك مثلا بعض المناطق المكتظة بالسكان مقابل مناطق أخرى تعاني من تخلخل السكان فيها ، وقد طبقت هذا الأسلوب ، وفي ظروف مختلفة ، اليابان ، إيطاليا ، فرنسا ، وأندونيسيا ، التي كانت على سبيل المثال — تشجع الهجرة فيها من جزيرة جاوة المزدحمة بالسكان إلى الجزر المجاورة القليلة السكان .

ثالثاً : التخطيط للهجرة ، أي ربط الهجرة بمتطلبات التنمية ، وبحسب مقتضيات كل مرحلة من مراحل الخطة الاقتصادية والاجتماعية ، وتتبع هذا الأسلوب بولونيا ، حيث لا تكون الهجرة في مثل هذه الحال ، قائمة على الصدفة أو على الاختيارات الفردية ، وإنما خاضعة لتخطيط مسبق ، وبالاتجاه الذي يخدم التطور الاقتصادي. إن جميع هذه المعالجات سواء أكانت قائمة على تحديد الهجرة أو تشجيعها أو التخطيط لها ، لم تكن مجرد معالجات إدارية ، وإنما كانت تنطلق أساساً من الظروف الموضوعية لكل بلد ، وبشكل خاص ، ظروفه الاقتصادية والاجتماعية . أي أنها كانت تقوم على فهم الأسباب والدوافع التي تحدد طابع الهجرة واتجاهاتها ، ومن معالجتها على ضوء هذه المفاهيم ، وبحسب ما يقتضيه .

والسؤال الذي يمكن أن نطرحه بالنسبة لظروف الهجرة في قطرنا هو : ما هي طبيعة الصلة التي تربط بين الهجرة وبين عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، هل هي استجابة لهذه التنمية أم أنها تشكل عبئاً عليها ، وبكلمات ثانية،هل التغيرات التي طرأتعلىأوضاع السكان خلال الستينات ، وخاصة فيما يتعلق بوجود نوع من التزاحم السكاني في بعض المناطق ، والتخلخل في بعض المناطق الأخرى ، كانت نتيجة لتخطيط مسبق أدى إلى هذا النوع من التزاحم أو التخلخل أم كان نتيجة لتحركات السكان العفوية ، وغير المرتبطة بأي نوع من التخطيط .

باستثناء ما حدث في منطقة الغمر (محافظة الرقة) ، حيث تم تشجيع السكان على الانتقال إلى مناطق جديدة ، فان جميع تيارات الهجرة ، كانت عفوية ، واختيارية ، أي قائمة على رغبات الأفراد أنفسهم ، وإن كانت هذه الرغبات نفسها محكومة بالبحث عن ظروف عمل جديدة ، أو ظروف حياة أفضل ، أو لمقتضيات أخرى ، كالتعليم والوظيفة أو غير ذلك من العوامل .

الهجرة والثورة الإجتماعية

إن أية محاولة لفهم الهجرة ، ولدراسة اتجاهاتها الرئيسية ، ولا بد أن تضع في الاعتبار تأثير الثورة الاجتماعية التي حدثت في سورية خلال الستينات ، وبالتحديد في عام ١٩٦٣ في تحديد طابع معين للهجرة ، يمكن أن نقول عنه بأنه هجرة من المناطق الريفية إلى المدينة ، حيث أنه قبل الستينات ، وبالتحديد ، قبل الشروع في تطبيق الإصلاح الزراعي في سورية ، وقبل قيام التغيرات الاجتماعية والاقتصادية ، التي أحدثت تغيرات أساسية في العلاقات الاجتماعية كنتيجة لتغيير علاقات الانتاج ، كانت الصلات التي تربط بين الريف والمدينة ، تقوم على تكريس مفهوم إقطاعية المدينة بالنسبة للريف ، اقطاعية تستند على عنصرين أساسين ، الأول ، هو أن الريف ينتج السكان وينتج الحاصلات الأساسية ، والتي تستخدم جميعها لحاجات المدينة الاستهلاكية . والثاني ، هو محاولة الإبقاء على وجود مسافة تفصل بين الريف والمدينة ، وهذه المسافة تستمد مقوماتها من اختلاف المستويات الثقافية ، ومستويات الدخل ، والحياة بوجه عام .

وبكلمات ثانية ، إن النظرة التي كانت تحكم العلاقة بين الريف والمدينة ، إنما تقوم أساساً على منطق الفصل أو الانفصال بينهما ، بحيث يبقى الريف واقعه الخاص ، وتبقى للمدينة اهتماماتها وتطلعاتها المرتبطة بتطوير واقعها الاقتصادي ومستوى الخدمات فيها ، وهذا النوع من الإنفصال نجده ، ولو بدرجات أقل حدة ، يحكم العلاقة بين المدن الصغيرة والمدن الكبيرة حيث تستأثر الكبيرة ، وبشكل خاص ، العاصمة ، بكل الاهتمام ، وتتركز فيها الأعمال التجارية والإدارية ، وبذلك فهي تستقطب القسم الأكبر من السكان ، وهذه النظرة للعاصمة ، تنطلق من مفهوم مركزية السلطة ، حيث لم تكن مفاهيم الحكم المحلي ، والإدارة المحلية ، قد أخذت صيغة تطبيقية في الواقع العملي ، مما جعل ، العاصمة ، وخلال فترة تاريخية طويلة ، المكان الأول ، إن لم نقل الوحيد ، لتمركز جميع النشاطات التجارية والصناعية والثقافية .

غير أن الثورة الاجتماعية ، انطلقت من ضرورة إيجاد نظرة جديدة تحكم العلاقة بين الريف والمدينة ، علاقة لا تقوم على الاستغلال والفصل وإنما على التعاون والتوحيد ، وبصورة أساسية ، على التقريب بين درجات التطور الاقتصادي والاجتماعي ، إذ ما لم يحدث مثل هذا التقريب ، فان كلا منهما سيظل معزولا عن الآخر ، ومحكوماً بظروف تطوره الخاصة ، وهي على كل حال ، ظروف غير متكافئة ، لا من حيث الإمكانيات ولا من حيث الوسائل ،

باعتبار أن إمكانيات الريف ووسائله ، تظل أقل قدرة بكثير ، من الوسائل المتاحة والمتوفرة في المدينة ، والتي من شأنها أن تحقق تطوراً أسرع ، وأشد فاعلية .

إن هذه النظرة الجديدة ، التي كانت حصيلة مباشرة للثورة الاجتماعية ، والتي انطلقت أساساً لتصحيح أو لتغيير أوضاع اجتماعية وسياسية واقتصادية ، من بينها ، الأوضاع الخاصة بالريف والتي تتسم بالتخلف النسبي ، إنما شجعت بشكل مباشر ، وغير مباشر ، حركة الانتقال أو الهجرة من الريف إلى المدينة ، وقد ساعد على ذلك ، بشكل أساسي ، كون عدد من المتحمسين للثورة الاجتماعية ، إنما ينتمون في بنيتهم الطبقية والاجتماعية والجغرافية إلى الريف ، ويفهمون جيداً ، حقيقة حياة الريف ، وما يعانيه من مشاكل اقتصادية واجتماعية تعود في جوهرها إلى الفصل بين الريف والمدينة ، والاهتمام بالمدينة على حساب الريف ، حتى أنه يمكن القول ، بأن الثورة الاجتماعية إنما نبعت أساساً من الريف ، مما جعل الريف يزحف نحو المدينة ، كنوع من التحدي لذلك الحرمان القديم ، أو كرد فعل على ذلك النوع من التعامل غير الإيجابي الذي كان يحكم علاقة الريف بالمدينة .

إن هذا التفسير ، يمكن أن تدعمه الأرقام التي توضح بأن عدد المهاجرين خلال الستينات ، إنما يشكل ضعف عدد المهاجرين ، الذين كانوا قبل الستينات ، وإن كان هنا لا بد من الإشارة بأنه ليست الثورة الاجتماعية ، وحدها ، هي التي أوجدت مثل هذا التحرك السريع للمهاجرين ، وإنما أيضاً وبالدرجة الأولى ، ما رافق الثورة الاجتماعية من تغيير في البنية الاقتصادية ، وما رافقها من حركة تصنيع تمركزت في المدن الكبرى والضواحي القريبة منها ، مما أدى إلى تزايد دور المدن بالنسبة إلى الريف ، إضافة إلى ذلك فإن المناهج التعليمية ، التي اقتصرت اهتماماتها على إعداد الطلبة ليصبحوا موظفين ، أكثر منهم صالحين لبيئاتهم التي يعيشون فيها ، إنما أسهمت في تغذية تيار الهجرة من الريف إلى المدينة . هذا وتشير الأرقام الخاصة بتوزيع المهاجرين حسب مدة اقامتهم الحالية إلى أن حوالي ٦٥ في المئة من المهاجرين من أماكن حضرية إنما تقل إقامتهم عن عشر سنوات (أي تم الانتقال في الفترة بين ١٩٦٠ و ١٩٧٠) مقابل ٣٥ في المئة قبل عام ١٩٦٠ . في حين تجد أن حوالي ٧٥ في المئة من المهاجرين من الريف ، إنما تمت هجرتهم خلال نفس الفترة ، مقابل ٢٥ في المئة قبل عام ١٩٦٠ .

وإذا حاولنا أن ندقق في هذه الأرقام بصورة أفضل ، فاننا نجد بأن حوالي (٦٤٪ من المهاجرين من الريف و ٤٨٪ من المهاجرين من الحضر) قد تركزت هجرتهم بعد عام ١٩٦٥ .

إن هذه الأرقام إنما تؤكد الحقيقة التي انطلقنا منها ، وهي ارتباط الهجرة إلى حد ما بحركة التغيير الاجتماعي والسياسي التي حدثت في القطر خلال الستينات ، وبشكل خاص مع بداية تنفيذ الخطة الاقتصادية – الاجتماعية الثانية للتنمية .

غير أن هذا لا يعطي تفسيراً كافياً لحركة الهجرة ، أو لحركة الانتقال من الريف إلى المدينة ، حيث أن تفسيرها الحقيقي إنما يكمن في الاختلاف في شروط الحياة السائدة بين الحضر والريف ، وفي بطء التحسن الذي طرأ على أوضاع الريف ، مما دفع بالسكان إلى أن يهاجروا من الريف إلى المدينة . ولما كان الطابع الاقتصادي للمناطق التي طردت السكان ، هو في غالبيته طابعاً زراعياً ، فان هذا يكشف عن أن الزراعة التي تشكل النشاط الاقتصادي الرئيسي لمعظم السكان في الريف لم تستطع أن توفر للعاملين في الريف ، فرص عمل كافية ، كما أن المصادر الزراعية المتوفرة ظلت غير قادرة على تحسين مستوى الريف وتطوير ظروف الحياة المعيشية فيه . ويبدو ذلك واضحاً إذا علمنا بأن نسبة الأراضي البعلية المزروعة في القطر تشكل ٨٦٪ من مجموع الأراضي المزروعة بينما تمثل الأراضي المروية ١٤٪ فقط .

كذلك أيضاً فان هناك بعض الدراسات التي تشير إلى أن متوسط أيام العمل الفعلي للعامل الزراعي في الأراضي البعلية والمروية معاً لا يتجاوز ٩٠ يوماً من أصل مجموع أيام السنة . إضافة إلى ذلك فان حجم المشتغلين في الزراعة يفوق إلى حد بعيد الحاجة الفعلية التي يتطلبها العمل وهذا مما يجعل هناك نوعاً من البطالة المقنعة والموسمية التي تؤدي بالتالي إلى هجرة اليد العاملة من الريف إلى المدينة ، وبدون تخطيط مسبق يعتمد على دراسة حاجة الصناعة أو التجارة في المدن من اليد العاملة ، مما يخلق فائض عمل في اليد العاملة في المدينة ، ونقص عماله في الريف وخاصة في بعض المواسم الزراعية التي تحتاج إلى عدد كبير من المشتغلين .

إن ذلك كله يمكن أن يعطي نوعاً من التعليل لظاهرة الهجرة من الريف إلى المدينة ، غير أننا نلاحظ عادة ، بأنه إلى جانب هذا الطابع المميز للهجرة الريفية – الحضرية ، هناك أيضاً هجرة من الحضر إلى الحضر ، ومن الريف إلى الريف ، فما هو حجم هذا النوع من الهجرة ، وكيف يمكن أن تتوضح أبعادها ؟ هذا ما سوف نحاول الآن أن نتعرض إليه ، من أجل أن تكتمل صورة الهجرة في القطر ، ومن خلال الكشف عن تياراتها واتجاهاتها الأساسية ، والعوامل المؤثرة في هذه التيارات .

الهجرة من الحضر إلى الحضر

بلغ مجموع عدد السكان الذين تحركوا بين المناطق الحضرية للمحافظات ١٩٦،٦٩٤ شخصاً منهم ١٠٢٠٤٩ ذكور و ٩٤٦٤٥ اناث ، أي أن عدد الذكور أكبر من عدد الإناث ، وهذه الظاهرة نجدها في معظم تيارات الهجرة ، وفي معظم بلدان العالم باستثناء حالات قليلة ، نأخذ على سبيل المثال ، السويد ، حيث تكثر فيها هجرة الفتيات من الريف إلى استكهولم وبعض المدن الأخرى بحثاً عن العمل مما يترك آثاراً سلبية على الناحية الزواجية ، نتيجة لنقص عدد الفتيات بالمقارنة مع عدد الذكور الذين بقوا على اتصال مع ريفهم ، واستمروا يعملون فيه .

وتشير بيانات الهجرة بين المناطق الحضرية إلى أن أكبر عملية تبادل قد تمت في محافظتي دمشق وحلب وقد استقبلت محافظة دمشق ٨٤٦٥١ من حضر في بقية المحافظات ، وحلب ٣٠٣٩٣ وحمص ١٨٦٢٨ والرقة ١٣٥٥٤ ، أما أقل المحافظات اشتراكاً في ذلك كانت درعا بـ ٢٠٠٨ نسمة والسويداء ٣٤٨١ نسمة ودير الزور ٤٥٩٤ نسمة .

ويمكن تلخيص الصورة الإجمالية للهجرة من الحضر إلى الحضر على النحو التالي :

أولا : لقد أسفرت عملية التبادل بين حضر المحافظات إلى فقد من جميعها باستثناء دمشق والرقة وحمص .

ثانياً : لقد امتصت محافظة دمشق القسم الأعظم من المهاجرين ، حيث بلغ صافي ما كسبته ٥٧٠٦٦ منها ٣٠٠٨٧ ذكور و ٢٦٩٧٩ أناث أي حوالي ٨٣،٢٪ من جملة المهاجرين من حضر جميع المحافظات وهنا تجدر الإشارة إلى أن ٢٦٨٠٨ من جملة الذين كسبتهم محافظة دمشق قد اتجه إلى مدينة دمشق .

ثالثاً : لقد اتسمت الهجرة من الحضر وإلى الحضر ، بمظهرين رئيسين :

آ — المظهر الأول هو أن المحافظات ذات الحجم المكاني الكبير ، هي نفسها التي جذبت أكبر حجم من المهاجرين ، ويبدو ذلك واضحاً في محافظات دمشق ، حلب ، حمص وإن كان من الملاحظ أيضاً أن بعض هذه المحافظات كمحافظة حلب رغم كونها استقبلت عدداً كبيراً من المهاجرين إلا أنها خسرت أكثر مما كسبته ، وربما يعود ذلك إلى قربها من مشروع الفرات ، حيث كسبت من محافظة الرقة ١٥٤٤ شخصاً وفقدت لها ٧٨٤٩ .

ب – المظهر الثاني : هو أن المحافظات القريبة من بعضها ، وخاصة تلك التي توافرت فيها مشاريع اقتصادية قد جذبت أكبر عدد من السكان .

رابعاً : لقد كان صافي الخسارة كبيراً بالنسبة لحضر بعض المحافظات ، كحماة مثلاً حيث بلغ ١٢٤٥٠ نسمة وأدلب ٩٣٠٥ ودير الزور ٨٢٦٣ .

هذا وتجدر الإشارة إلى أن ٧٢٫٣ في المائة من جملة سكان الحضر ، إنما يتركزون في محافظات دمشق ، وحلب وحمص ، في حين تشمل بقية المحافظات النسبة الباقية .

الهجرة من الريف إلى الريف

لقد تضاءلت نسبة السكان الريفيين إلى مجموع سكان القطر نتيجة لهجرة أعداد كثيرة منهم إلى المناطق الحضرية ، فبينما كانت نسبة السكان الريفيين إلى مجموع السكان في عام ١٩٦٠ ٦١٫٢ في المائة ، أصبحت في عام ١٩٧٠ ٥٦٫٥ في المائة . ومع أن اتجاه تيارات الهجرة كان دائماً يشير إلى خسارة سكان الريف ، إلا أنه من الملاحظ أحياناً بأن هناك نوعاً من الهجرة كانت بين المناطق الريفية نفسها ، أي من الريف إلى الريف .

وقد بلغ إجمالي الأشخاص الذين تحركوا من الريف إلى الريف (٩٦٥٧٩) شخصاً منهم ٤٨٥٦٥ ذكور و ٤٨٠١٤ أناث . حيث يمكن هنا أن نلاحظ أن الفرق بين عدد الذكور وعدد الاناث ضئيل جداً مما يدل على أنها تأخذ الطابع الأسري .

ومن خلال قراءة الأرقام المتعلقة بحركة الهجرة من الريف إلى الريف يتضح بأن ريف محافظات اللاذقية وحمص والسويداء قد خسر مهاجرين من الأناث أكبر من الذكور بعكس بقية المحافظات كما أن ريف محافظة حماة قد كسب مهاجرين من الاناث أكثر من الذكور إذا قورنت ببقية المحافظات المماثلة كما يتضح من نسبة النوع .

كما يتضح أن حوالي ٧٥٫٧٪ من جملة ما خسره ريف محافظة حلب قد اتجه إلى ريف محافظة الرقة والباقي من ادلب ودير الزور أي من المحافظات القريبة منها ، بينما لم تكسب من ريف المحافظات البعيدة عنها غير عدد قليل جداً .

ولم تقتصر الهجرة من ريف بعض المحافظات إلى مناطق أخرى بداخلها وإنما امتدت إلى مناطق محافظات اشتمل ريفها على بعض المشروعات الاقتصادية كمشروع سد الفرات بمحافظة الرقة ، أو استخراج النفط ، والفوسفات والملح الصخري في الحسكة والمناطق المجاورة لها . وهناك هجرة إلى الريف تحت ضغط تأثير أزمة السكن في بعض المحافظات مما يجعل من هذا

النوع من الهجرة ليس إلى الريف أصلا – وإنما إلى مناطق حضرية ، ولكن تحولت تحت ضغط ظروف معينة إلى هجرة إلى الريف .

كذلك أيضاً فإنه يدخل ضمن هذا التيار الهجري بعض تحركات السكان من المناطق الجبلية إلى المناطق السهلية ، حيث أصبح الناس يبحثون عن أرض أكثر خصوبة ، وأكثر مردوداً من حيث الناتج في العمل .

هذا ويتمركز ٥٫٤٩ في المائة من جملة سكان الريف في أربع محافظات هي حلب ١٧٫١ في المائة ، دمشق ١٢٫٣٪ الحسكة ١٠٫٥ في المائة وحماة ٩٫٦٪ بينما تتوزع النسبة الباقية ومقدارها ٥٠٫٥٪ على بقية المحافظات .

نعود بعد هذا إلى المشكلة الرئيسية وهي العلاقة بين الهجرة الداخلية وبين التنمية ، حيث يمكن أن نلاحظ بأن الهجرة كانت في غالبيتها تعبيراً عن نزوع فردي ، أو عن طموحات واختيارات فردية أكثر منها تلبية لحاجات تخطيطية ، أو لمقتضيات تنموية ، أي بكلمات ثانية نقول إن اتجاهات التنمية لم تكن هي نفسها اتجاهات الهجرة ، وإن كان من الملاحظ في بعض الأحيان بأن خطط التنمية استطاعت أن تخلق إلى حد ما ، نوعاً من التوجيه لتيارات الهجرة ، وخاصة في الأمكنة التي تتوفر فيها مشاريع حديثة ، اقتصادية أو صناعية .

إن ظاهرة الهجرة التي تتسع يوماً بعد يوم ، لا يمكن أن يكون الطريق إلى حلها هو اتخاذ إجراءات قسرية تحد من الهجرة ، حيث أن مثل هذه الإجراءات قد فشلت في عدد من البلدان التي حاولت تطبيقها ، إضافة إلى أنها غير مرغوبة من الناحية النظرية .

وكنوع من التأكيد على عدم جدوى مثل هذه الإجراءات يذكر « ألفريد صوفي »الخبير في المسائل الديمغرافية ، بعض الأمثلة على ذلك حيث يقول ، بأن مدينة موسكو قد تجاوزت كافة مستويات الحجم السكاني المحددة لها في برامج التخطيط . كما أن « هافانا » والتي كان مقرراً تخفيض عدد سكانها عن طريق نقلهم إلى مدن صغيرة جديدة ، أو نقلهم إلى قرى كبيرة بغية تحويل تلك القرى إلى مدن ، قد اتسعت إلى حد يتوقع معه أن يصل عدد سكانها إلى ٣٠ ملايين نسمة » .

وهكذا نجد أن الحد من الهجرة لا يمكن أن يأتي عن طريق الدعوة إلى وجود أجراءات ادارية تحد منها . وإنما عن طريق التخطيط لها . أستناداً إلى دراسة دوافعها واسبابها ، ومن ثم معالجتها على ضوء هذه الأسباب ، معالجة ذات طابع اقتصادي واجتماعي ، تراعي الظروف الخاصة لكل منطقة .

إن تحقيق نوع من التنمية المتوازنة بين الريف والمدينة وذلك عن طريق ادخال وسائل الحياة الحديثة إلى الريف ، وتحقيق نوع من التطور في مجالات التصنيع والعمران لا التوقف عند حدود العمران بدون تصنيع كما نجد في كثير من البلدان النامية ، إن ذلك يمكن أن يسهم إلى حد ما في التخفيف من الهجرة ، إن لم تقل الحد منها ، أو على الأقل ، إلى دفعها في الاتجاه المرغوب فيه .

إن الهجرة الداخلية ، وإن أسهمت إلى حد ما في طرح مشكلة الريف على المدينة . إلا انها لم تحل مشكلة الريف ، وزادت مشاكل المدينة تعقيداً ، بل على العكس منذلك ،فقد خلقت ظاهرة غير صحيحة يمكن أن نسميها « ترييف المدينة » في حين كان المطلوب «مدنية الريف » أو تمدينه .

إن القاء نظرة إلى أوضاع المساكن التي يقيم فيها المهاجرون ، في أطراف المدن التي يهاجرون اليها ، والتي تفتقر إلى أبسط الشروط الصحية . إنما يكشف عن تلك الظاهرة التي أسميناها « ترييف المدينة » والتي أدت إلى نتائج سلبية كان من بينها ، ازدياد البطالة التي تؤدي إلى بعض الانحرافات السلوكية ، باعتبار أن الطاقة المعطلة تشعر بالحاجة دائماً إلى البحث عن وسائل وقنوات التصريف ، وهي إذا لم تستطع تصريفها في العملفسوف تبحث عن مجالات لها في أي مكان آخر .

إضافة إلى ذلك فان المهاجرين عندما ينتقلون من الريف إلى المدينة أوالعكس لا ينتقلون كأفراد فقط ، وإنما ينقلون معهم عاداتهم وتقاليدهم ، وخاصة فيما يتعلق في بعض العادات الاجتماعية، كالزواج المبكر ، والخصوبة العالية . مما يحدث تبديلا في أوضاع المناطق المهاجر اليها .

وبوجه عام . فان الهجرة ليست سلبية دائما ، وإنما لها جوانبها الأيجابية وخاصة عندما تكون استجابة للمتطلبات التنمية ، أو عندما تكون منسجمة مع خطط التنمية الأقتصادية والأجتماعية .

المراجع :

١ - التعداد العام للسكان في سوريا ١٩٧٠ .
٢ - التحركات السكانية في سوريا - المركز الديمغرافي بالقاهرة ١٩٧٤
٣ - أسباب الهجرة الداخلية وآثارها - الدكتور عبد الكريم اليافي ١٩٧٤ - (اجتماع هيئة الخبراء حول النواحي الديمغرافية) .
٤ - النمو السكاني في المدن وعلاقته بالتربية في البلدان العربية - الكسندر كيورشيف التربية الجديدة ١٩٧٤ .

رسائل جامعية — جان الكسان

مشكلة الامتحانات في القطر العربي السوري

« دراسة ميدانية »

نالت السيدة صالحة سنقر ، شهادة الماجستير في التربية من جامعة دمشق بدرجة جيد جداً وعلامة ٧٧ من مئة . . وهي الشهادة الثانية من نوعها ، تمنحها جامعة دمشق خلال شهرين ونصف الشهر . . وقد منحت الأولى بدرجة جيد جداً وعلامة ٨٠ من مئة للسيد عبد المجيد النشواتي في ١٢ كانون الأول ١٩٧٤ عن رسالته التي قدمها باسم « المشكلات النفسية لمعلم المرحلة الإبتدائية في القطر العربي السوري. . . (١) .

قدمت السيدة صالحة سنقر رسالتها بعنوان « مشكلة الامتحانات في القطر العربي السوري ، دراسة ميدانية » باشراف الدكتور فاخر عاقل ، رئيس قسم علم النفس في كلية التربية وهي

الرسالة الأولى من نوعها ، كما أن السيدة سنقر هي أول سيدة في القطر تنال شهادة الماجستير في هذا الاختصاص .

أما اللجنة المشكلة لمناقشة الرسالة فكانت مؤلفة من الدكتور فاخر عاقل ، والأستاذ نعيم الرفاعي ، والدكتور أسعد لطفي . . وقد تمت المناقشة يوم ٢٠ شباط ١٩٧٥ ، واستمرت ساعتين ونصف الساعة قدم الدكتور العاقل في أولها موجزاً عن واقع الامتحانات وأهمية الرسالة التي تتناول هذا الواقع ، كما قدمت صاحبة الرسالة تلخيصاً لها قبل أن تواجه أسئلة الأساتذة الذين أجمعوا في النهاية على أن مثل هذه الرسالة ضرورية وهامة بالنسبة للقضية التربوية بشكل عام ولتطوير الامتحانات بشكل خاص .

ومن خلال دراستنا هذه الرسالة نجد أن صاحبها اتخذت الامتحانات موضوعاً لهـــا للأسباب التالية :

١ — إن معرفة قيمة الامتحانات السورية ومدى موضوعيتها ، وقدرتها على تشخيص الكفاءات الحقيقية والآثار الناجمة عنها ، وبيان مدى الثقة التي يمكننا أن نمنحها اياها ، تساهم في تحسين العملية التربوية .

٢ — إن المكتبة العربية في سورية تفتقر إلى دراسة ميدانية موسعة عن الامتحانات .

٣ — انها تلفت نظر المربين والعاملين في الحقل التربوي إلى خطورة المشكلة وإثارها وتسهم في التمهيد لتنفيذ خطة لتطوير الامتحانات .

ولهذا فقد وضعت الباحثة في مقدمة الدراسة مجموعة فروض حاولت الإجابة عليها ، معتمدة في ذلك الطرق العلمية للدراسة ، التي تقوم على التحليل الإحصائي في استخراج النتائج ..

بابان رئيسيان

تقسم الدراسة إلى بابين رئيسين ، اشتمل الأول على الدراسة النظرية للامتحانات ، والثاني على الدراسة الميدانية لها ..

وقد تضمن الباب الأول خمسة فصول :

●● الفصل الأول : أهداف الامتحانات وفوائدها فيما يعود على المربين والطلاب وأولياء الأمور والسلطة القانونية والمجتمع عامة . . . وطرق الامتحانات المدرسية في الدول المتقدمة والدول النامية والاعتراضات التي تواجهها .

** الفصل الثاني : أنواع الامتحانات ، الكتابية ، والتي تتضمن الامتحانات المقالية والاختبارات الموضوعية . . . والامتحانات الشفهية أو الامتحانات العملية أو اختبارات الإنجاز المعيرة » بينت صاحبة الرسالة خلال عرض كل نوع منها خصائص هذا النوع ، والمآخذ التي توجه إليه وبعض المقترحات التي قدمها المربون لتحسينها ...

وقد بحثت في الفصل الثاني أيضاً نظم الامتحانات ، المتصلبة منها التي يخضع فيها الطلاب لامتحانات محددة بفترة زمنية ، معينة [يترفع الطلاب [على أثرها إلى صفوف أعلى أو يرسبون ... والنظم المرنة التي تعتمد أسلوب التعليم الإفرادي تبعاً لقدرات الطلاب وامكاناتهم والنظم المتوسطة التي تقف بين النوعين السابقين .

ثم عرضت بعض الاتجاهات العامة المعتمدة في الامتحانات من حيث تحديد أسلوب التقديم وطريقته ، والسلطة المشرفة عليه ، وطرق التخفيف من الرسوب .

** الفصل الثالث : تاريخ الامتحانات السورية والتعرف بجذور الامتحانات وتطورها في البلاد وذلك في مرحلتي الانتداب والاستقلال ، وإصلاحات المربي ساطع الحصري التي طرأت عليها وصبغتها بالصبغة القومية ، ثم التعديلات التي أجريت عليها في الفترات اللاحقة ، حتى مرحلة نظام الامتحانات الحالي . وقد اتبعت الدارسة في هذا العرض مراحل السلم التعليمي التي تسير بموجبها أنظمة الامتحانات السورية .

** في الفصل الرابع بحثت الدارسة في نظام الامتحانات الحالي بالقطر العربي السوري .. عرضت هذا النظام في المراحل الابتدائية والإعدادية « العامة والشرعية » والثانوية « العامة والشرعية والفنية » . . ثم في دور المعلمين والمعلمات . . ودرست في هذا العرض النظام المعتمد في الامتحانات الانتقالية وامتحانات الشهادة العامة ، وقدمت وصفاً لسير العملية الامتحانية منذ مراحلها الأولى وحتى فيها بعد اصدار النتائج ، وبحثت في طريقة وضع الأسئلة ودراستها ، والمراقبة ونظمها ، وأعمال التصحيح والتدقيق ودراسة نسب النجاح وغير ذلك . . وقد اختتمت بحث كل مرحلة بعرض إحصائي لنسب النجاح خلال الخمس سنوات الأخيرة مع مقارنة لها بنسب النجاح قبل عشر سنوات سابقة ، ودرست تلك النسب بحسب الجنس ونوع التعليم ونوع المدرسة وقد تبين لها من دراسة نسب النجاح في هذه الصفوف ما يلي :

- نسبة النجاح تهبط عاماً بعد عام .
- نسبة النجاح في المدارس الرسمية أعلى منها في المدارس الخاصة .
- نسبة نجاح الإناث من نسبة نجاح الذكور في جميع فروع التعليم ، عدا المدارس المهنية .

— نسبة النجاح في الدراسات العلمية تزيد عنها في الدراسات الأدبية .

— نسبة النجاح في الصفوف الانتقالية أعلى منها في صفوف الشهادات .

وتناولت الدراسة أيضاً ظاهرة الرسوب وظاهرة الغش حيث عرضت نسب الرسوب في سورية في كل مرحلة على حدة وبينت أسبابه ونوع المواد التي قصر فيها الطلاب والتي كانت سبب الرسوب ونسبة هذا التقصير ، وقدمت رسوماً موضحة لمخططات التدفق حيث تناولت بالبحث ١٠٠٠ طالب لكل من المرحلة الإعدادية والثانوية وسارت بهم في الصفوف التالية وحتى نهاية المرحلة فتبين لها أن من كل الف طالب إعدادي يتخرج ٢٧٥ طالباً من المرحلة الاعدادية ، ومن كل الف طالب ثانوي يتخرج ٣٠٩ طلاب . .

ثم عرضت لآثار الرسوب التربوية ، والنفسية والاجتماعية على كل من الطالب والمربي وولي الأمر والمجتمع عامة . .

أما عن ظاهرة الغش في الامتحانات فقد بينت قدم هذه المشكلة ونظرة المربين والطلاب اليها ، وكيفية تدار كها وعلاجها في كل مرحلة تعليمية . .

وقد ختمت الفصل بالملاحظات التالية :

١ — ان امتحاناتنا تقليدية تقوم على خدمة السلم التعليمي . .

٢ — إنها مركزية ، حكومية ، اصطفائية تعمد إلى انتقاء بعض الأفراد وتتخلى عن بعضهم الآخر . .

٣ — انها تعتمد الأسلوب الكتابي أكثر من اعتمادها الأسلوب الشفهي أو العملي « يتقدم الطالب خلال دراسته الثانوية إلى ٤٧٠ مذاكرة و ٤٣٦ وظيفة و ١١٤ امتحاناً على الأقل ولا يقابل هذا العدد سوى نسبة بسيطة جداً من الامتحانات الشفوية والعملية » .

٤ — إنها عاجزة عن الكشف عن قدرات التلاميذ .

٥ — إنها تعاني من زيادة الأعداد المتقدمة اليها عاماً بعد عام .

** في الفصل الفصل الخامس بحثت الدارسة في الدراسات السابقة حول قيمة الامتحانات المدرسية ، ونظراً لكثرتها فقد صنفتها كما يلي :

١ — الدراسات التي أجريت على الطلاب .

٢ — الدراسات التي أجريت على المصححين وطريقة التصحيح .

٣ — الدراسات التي أجريت على المواد المدرسية .

٤ – الدراسات التي أجريت حول قيمة الامتحانات الشفهية .
٥ – الدراسات التي تمت حول ردود فعل الطلاب نتيجة الامتحانات .
٦ – الدراسات التي تمت حول الغش في الامتحان .
٧ – الدراسات التي تمت حول الرسوب وموعد الامتحان .

وقد كشفت هذه الدراسات جوانب مهمة للامتحانات التي تجري في بعض أقطار العالم ، كقيمة الامتحانات التقليدية « الكتابية منها والشفهية » والاختبارات الحديثة ، ودور العامل الذاتي ، وأثر كفاءة المصححين وخبرتهم في ثبات العلامات المدرسية ، وأثر سلوك الفاحص على الطلاب .

وبالرغم من كثرة هذه الأبحاث والدراسات فإن السيدة صالحة سنقر لم تجد بينها دراسة تختص بنظام الامتحانات في دولة نامية تتصف بميزانيتها المحدودة ودخلها القومي المنخفض ، ولم يتم في القطر العربي السوري محاولة واحدة في هذا السبيل .

الباب الثاني

اختص بالدراسات الميدانية وتضمن مقدمة وعشرة فصول ، وقد تناولت المقدمة عوامل البحث وفروضه ذلك لأن الطلاب والمربين يعانون من مشكلات نظام الامتحانات السورية بسبب أخطاء موجودة فيه ، سواء في صياغة الأسئلة وعدم شموها أو في تأثير العامل الذاتي للمصححين على تقدير العلامة ، أو في أخطاء تقديرات المربين لطلابهم ، أو في قدرة الامتحانات على إعطاء صورة تنبؤية لمستقبل الطلاب .

ووجدت صاحبة الدراسة نفسها أمام أنواع من الدراسات عليها القيام بها وهي دراسة أثر الامتحانات الحالية على الطلاب وعلى المربين ، وواقع أسئلة الامتحانات ، وأثر العامل الذاتي في تقدير درجات الطلاب ، ومدى صحة تقديرات المربين لطلابهم ، والقيمة التنبؤية للامتحانات السورية ، ودور الامتحانات في المجتمع . .

** وقد اختص الفصل الأول ببيان منهج البحث في دراسة أثر الامتحانات على الطلاب ، وأوضحت الدارسة كيف يتم إعداد استخبارات الطلاب والجوانب التي يقيسها الاستخبار وعدد الأسئلة الخاصة بكل جانب « تضمن الاستخبار ٦٩ سؤالاً » كما أوضحت الدارسة طريقة انتقاء عينة الدراسة الاستطلاعية وعددها ، والدروس المستفادة من تطبيق الاستخبار عليها . .

وقامت بتطبيق الاستخبار على أفراد عينة البحث وعددهم ٤٦٨ طالباً وطالبة « ٢٧٨ طالباً و ١٩٠ طالبة في المدارس الرسمية والخاصة ، العامة والفنية ، المؤنثة والمذكرة والمختلطة ، دور المعلمين ، الريف والمدينة » .

وطبقت الاستخبار في خمس محافظات هي : دمشق — القنيطرة ، الأطراف — حلب — حماة . . وتضمن المتغيرات التالية : العمر — السنة الدراسية — الدرجة التي حصلها الطالب في الشهادة العامة — الحالة الأسرية والمستوى الثقافي والمادي لها .

** في الفصل الثاني عرضت الدارسة نتائج بحث أثر الامتحانات على الطلاب وناقشتها بحسب الفروض الفرعية التالية :

١ — أثر الامتحانات الحالية على صحة الطالب : نفسه — تفكيره — أخلاقه .

٢ — رأي الطالب في الامتحانات الحالية : العام — النصي — النهائي — المذاكرات — الوظائف .

٣ — قدرة أسئلة الامتحانات الحالية على كشف مقدرة الطالب العقلية ومدى شمولها ووضوحها . .

٤ — أثر الامتحانات على العلاقة التربوية بين المدرس والطالب .

٥ — أثر الامتحانات على أولياء أمور الطلاب .

وقد درست النتائج بحسب متغيرات : السن — المرحلة التعليمية والصف — الجنس — الحالة المادية . .

وتبين من هذه الدراسة ان الامتحانات الحالية تؤثر على فكر الطالب فتسبب له التشويش والاضطراب وعدم التركيز والنسيان لبعض الدروس أو النسيان الكامل للمادة ، وبلغت نسبة من تركت الامتحانات آثاراً سيئة على فكرهم ٥٤٪ كما تبين أن الاضطراب الفكري يتناقص كلما تقدم الطالب في صفه ، ويزداد في المرحلة الإعدادية وعند الإناث خاصة . . وان الامتحانات تقتضي من أكثرهم السهر « ٦٤٪ » . . وهناك ٨٠٪ تتأثر نفسياتهم بالامتحان فيشعرون بالمرارة والألم نتيجة للفشل ، وهناك ٥٧٪ يشعرون بالقلق والخوف من الامتحان. . وقد أبدى معظم الطلاب رغبتهم بنظام الامتحانات الحالي من حيث أشكاله ، إلا أنهم يفضلون على التوالي : الامتحان على المذاكرة — والمذاكرة على الوظيفة البيتية . . كما أن الوظيفة البيتية لا تحوز على رضى الطلاب لما يناله بعضهم من مساعدة بيتية لا تكشف عن قدرة الطالب

الحقيقية . . وكذلك رغب الطلاب في إيجاد امتحان الإكمال ، وهناك ٥١٪ من الطلاب يجدون أن أسئلة الامتحان متناسبة مع الوقت المحدد لها ، ويعتبرون الامتحان مقياساً مضبوطاً لمعلوماتهم

وتبين أن معظم الطلاب لا يرغبون في مخططات الجلوس خلال الامتحان ، ولا يفضلون إعطاء التقديرات ، وإنما يرغبون في العلامات المحددة والموزعة على كل سؤال . .

وتبين أن الطلاب لا يثقون بالمدرسين من حيث المراقبة والتصحيح وتقدير الدرجات ، وان شخصية المراقب تؤثر على ٥٨٪ من الطلاب تأثيراً سيئاً يزداد عند طلاب المرحلة الإعدادية وعند الإناث في هذه المرحلة بصورة خاصة . . كما تبين أن ٧٩٪ من الطلاب لا ٧٢٪ منهم يرغبون في بقاء الإسم مجهولا على ورقة الإجابة .

في الفصل الثالث دراسة لأثر الإمتحانات على المربين . . وقد بينت الدارسة طريقة إعداد استبيان المربين والجوانب التي يقيسها الاستبيان وعدد الأسئلة الخاصة بكل جانب « تضمن ٦٠ سؤالا » « بعد تطبيق الاستبيان على العينة الاستطلاعية وزع ٨٠٠ استبيان على مختلف المربين وأعيد للدراسة ٤٠٦ استبيانات ، فاضطرت إلى طرح الفائض لتحقيق التوازن بين المواد الدرسية من جهة وفروع التعليم ومراحله من جهة أخرى . . والجنس وتوزع المحافظات من جهة ثالثة . . فكان عدد الاستخبارات المطروحة ٤٣ استخباراً ، وجرت الدواسة على الاستخبارات المتبقية وعددها ٣٦٣ استخباراً .

تضمن استخبار المربين متغيرات : السن – عدد سنوات الخدمة – الساعات الإضافية الأسبوعية – المؤهلات التربوية – الدورات التدريبية – الحالية العائلية – عـــدد أفراد الأسرة .

٥٥ في الفصل الرابع عرضت الدارسة نتائج أثر الامتحانات على المربين ومناقشتها بحسب الفروض التالية :

١ – أثر الامتحانات الحالية على المربين .

٢ – رأي المربين في الأمتحانات الحالية من حيث أشكالها وظروفها وأهدافها .

٣ – أثر الامتحانات الحالية على العلاقة التربوية بين الطلاب والمربين وأولياء الأمور . .

وقد تمت الدراسة حسب المتغيرات التالية : مراحل التعليم – فروع التعليم – نوع الاختصاص – الجنس – العمل الموكل للمربي . .

وتبين من الدراسة أن نظام الامتحانات الحالي قد ترك آثاراً سيئة على سلوك المربي في التصحيح ، سواء من حيث نسيانه تصحيح جزء من المادة المكتوبة ، أو تساهله بالتصحيح ، أو عدم دقة المراقبة ، أو عدم تنفيذ تعليمات الامتحان بدقة . . وتبين أن هناك ٨٩٪ من المربين يرغبون في إعطاء الطلاب عطلة لبضعة أيام قبل إجراء الامتحان النهائي وأن ٥٠٪ منهم يرى ضرورة عدم إجراء امتحان لمادتين معاً في نفس اليوم ، ويفضل ٧٤٪ منهم إعطاء الطلاب علامات ودرجات محددة وواضحة . . ويرغب ٦٣٪ منهم في مساعدة الطلاب المقصرين وجبر الكسر في علامة الطلاب . . وأكد ٥٢٪ منهم على وجوب نظام إكمال للطلاب المقصرين ، ويرغب ٧٧٪ منهم في إيجاد نظام مكافآت لمن يحقق طلابه نسبة نجاح جيدة ، في حين يرغب ٥٢٪ في إيجاد نظام عقوبات لمن لا يحقق طلابه نسبة مقبولة في النجاح . . وهناك ٥٥٪ منهم راضون عن نظام عقوبات الغش في الامتحان ، ويفضل ٧٦٪ اشتراك الطلاب في دورات للتقوية في بعض المواد ، ويرون ان الامتحانات الحالية غير كافية للدلالة على مقدرة الطالب ، ولا تصلح لتقويم تحصيل الطالب أو تقويم عمل المدرس ، أو تقويم العملية التربوية ، ولا بد من وسائل أخرى تساعد على التقويم الصحيح . .

وتبين أن معظم المربين يراعون التنوع في درجة صعوبة الأسئلة ويحاولون في صياغتها تغطية جميع أجزاء المنهاج وأنهم قلما يتبعون تعليمات الوزارة حول طريقة التصحيح والتدقيق .

وقد قامت الدراسة بمقارنة رأي المربين مع رأي الطلاب حول النقاط المشتركة المدروسة وهي : لزوم الامتحانات العامة — الثقة بالوظيفة البيتية — الرغبة في وجود امتحان إكمال — توزيع العلامات على الأسئلة — الدرجة وتقديرها — قدرة الامتحان في الكشف عن مقدرة الطلاب — كفاية الوقت المحدد للامتحان — التقدير الشخصي للمربين — طريقة وضع الأسئلة — سرية الإسم . . وبلغ الترابط ٧٥٪ وهو ترابط على توافق كبير بين أثر الامتحانات على كل من الفريقين .

•• الفصل الخامس : تضمن دراسة ميدانية لأسئلة امتحان انهاء مرحلة التعليم الابتدائي لمواد اللغة العربية والحساب والعلوم والصحة الاجتماعية « ٤٥ مدرسة ابتدائية من مدارس محافظة مدينة دمشق » وذلك لبيان :

١ — مدى التزام الهيئات التعليمية المشرفة على امتحانات الصف السادس بتعليمات الوزارة حول الأسئلة .

٢ — مدى ما تحقق من أهداف المرحلة الابتدائية وما يتوفر فيها من شمول وموضوعية .

٣ — مدى تحقيقها لشروط صياغة الأسئلة . .

وقد تبين اعتماد المعلم على الأسئلة الموضوعية في كافة المواد واستخدام أسلوب التعداد في الأسئلة « ٢٠٪ من الأسئلة » واعتماد أسلوب التعريف « ١٢٪ » نظراً لما توفره من جهد ووقت خلال التصحيح وتبين أن أغلب الأسئلة تدور حول الهدف التربوي المعرفي ، أي معرفة حقائق معينة يحفظها التلميذ عن طريق عادة تمت لديه وهي عادة الاستظهار . . كما تبين أن أخطاء الصياغة لم تتجاوز الـ ٣٪ ، ونسبة الأسئلة الغامضة والمعقدة ٩٪ . . ولهذا فإن امتحاناتنا أخذت صورة الامتحانات الموضوعية ولم تحقق مضمونها بشكل كامل .

** الفصل السادس . . تضمن دراسة ميدانية للعلامات وأثر العامل الذاتي على التصحيح ، وتمت الدراسة على علامات الشهادتين الإعدادية والثانوية للعام الدراسي ٧٣ — ٧٤ بمعدل ٥٠٠ ورقة إجابة من كل مادة ومن محافظات متعددة حقق متوسط درجاتها النسبة العامة للنجاح في هذه المادة . . وبعد ذلك تم فرز أوراق الإجابات بحسب درجاتها إلى خمس فئات . . وقد تبين أن أسئلة مادتي التربية الدينية واللغة الإنكليزية في الفرع العلمي تناسب مستوى الطلاب ، على عكس بقية المواد . . كما درست صاحبة الرسالة في هذا الفصل الأثر الذاتي للمصححين في تقدير درجات الطلاب ، وتبين أنهم يختلفون في هذا حسب نوع المادة المصححة ونوعية ونوعية الأسئلة ومستوى الإجابة ، وتوصلت إلى نتيجة وهي أن ليس كل مدرس ممتاز هو مصحح ممتاز وقد هدفت هذه الدراسة إلى بيان مدى الاعتماد على تقديرات الأساتذة لتقييم طلابهم بدل الامتحان ، وخاصة وأن ٧٩٪ من الطلاب قد عبروا عن عدم رغبتهم في تقدير مدرسيهم .

** في الفصل الثامن درست صاحبة الرسالة القيمة التنبؤية للامتحانات في القطر وذلك من خلال دراسة القيمة التنبؤية لشهادة أهلية التعليم الإبتدائي « نظام الأربع سنوات » لوجود تشابه كبير بين مضمون الدراسة وموادها في شهادة أهلية التعليم الإبتدائي ، وبين مهنة التعليم التي سيمارسها الطالب بعد تخرجه ، بالإضافة إلى وجود فرص متساوية أمام أفراد عينة البحث .

وقد توصلت إلى النتائج التالية :

١ — وجود ترابط ضعيف بين علاقة الشهادة والعلامة التفتيشية عند الذكور بلغ ٠٫٢٤ .

٢ — وجود ترابط معقول عند الذكور بلغ ٠٫٤٨ .

٣ — تقل نسبة الترابط عند الإناث بين علاقة التربية العملية والعلامة التفتيشية حيث بلغت ٠٫١٣ . . وبلغت عند الذكور ٠٫٥٢ . . كما تبين أن شهادة أهلية التعليم الابتدائي

لا تعد للعمل بشكل أفضل من الشهادة الثانوية التي قد تم الخبرة لدى حاملها عن طريق الممارسة والتوجيه . . وتبين أنه لا يحق لنا الحكم على واقع الإنسان في الحياة العملية من خلال نتائج امتحاناته وتضمن الفصل أيضاً دراسة تتبعية لدرجات الطلاب حيث انتقت الدارسة عينة من المدارس الخاصة المختلطة . . وتبين أن الطالب يكاد يحافظ على مستواه إن لم تؤثر عليه ظروف خارجية .

❊❊ الفصل التاسع . . ويبحث في القيمة الأجتماعية للامتحانات السورية . . وقد درست فيه طبيعة العلاقات الاجتماعية والمستوى الاجتماعي والاقتصادي وأثره على نتائج الامتحانات من حيث واقع المحافظات السورية ، النائية منها والمتقدمة ، ومن حيث تسرب الإناث وعدم متابعتهن التحصيل بنسبة تزيد عن نسبة الذكور بـ ١٧٪ ، ومن حيث المستوى الاقتصادي والاجتماعي للطلاب المنتسبين إلى المدارس الصناعية ودور المعلمين والذين يتقاضون راتباً شهرياً . . وقد بلغت نسبة الفقراء في المدارس الصناعية ٨٦٪ وفي دور المعلمين والمعلمات ٧٢٪ كما قامت بدراسة أثر الوضع الاجتماعي والاقتصادي على نتائج الطلاب المتفوقين دراسياً . . وقد تبين من الدراسة أن الامتحانات ليست صمام الأمان في العملية التربوية فحسب بل هي مفتاح رقابة المجتمع .

❊❊ في الفصل العاشر عرضت الدارسة نتائج بحث مشكلة الامتحانات السورية ، وصنفتها حسب المراحل الدراسية ونوع الاختصاص وعددت بعض الاقتراحات لتطوير الامتحانات أهمها :

١ –الامتحان للتوجيه أكثر منه للانتقاد .

٢ – إنشاء مؤسسة أبحاث للامتحان تضم عدة خبراء .

٣ – إيجاد مصرف للأسئلة الكتابية والعمل على وضع روائز مقننة .

٤ – العمل على الاستفادة من نتائج الامتحانات في مراجعة العملية التربوية .

٥ – اجراء دراسات علمية تحليلية لموضوعات الأمتحان .

٦ – العمل على تنسيق جهود وزارة التربية مع كلية التربية بما يفيد في تصميم اختبارات موضوعية بطريقة علمية دقيقة ، مما يساعد على تكوين حصيلة كافية من الاختبارات دون تكاليف مادية كبيرة .

٧ – إعطاء وزن لتقييم المدرسة وعمل الطالب خلال السنة الدراسية ضمن درجات الشهادة العامة .

٨ — اعتماد الأسس الكفيلة باصلاح استخدام الوظيفة البيتية بشكل جيد .

٩ — عدم جبر كسر الدرجة إلا إذا بلغ النصف أو أكثر .

١٠ — العناية ببطاقات التلميذ والجديد في دراستها . .

١١ — أجراء اختبارات قبول للراغبين في دخول المدارس المهنية .

١٢ — الاعتماد في توزيع الطلاب إلى فروع واختصاصات مختلفة على دراسات تتم في المرحلة الإعدادية من قبل موجهين تربويين ومرشدين اجتماعيين .

١٣ — التخفيف من حوادث الرسوب ، لا بالمساعدات ، بل بانتقاء الدراسات المناسبة للطلاب .

١٤ — ضرورة الانتباه الخاص للمتفوقين والمقصرين .

١٥ — تعاون وزارة التربية ووزارة الإعلام في توجيه الطلاب وأولياء أمورهم نحو النظر في الامتحانات نظرة واقعية . .

⁂ بعد هذا العرض للرسالة والذي قدمت مثله السيدة صاحبة منفوجرت المناقشة وكانت في مجملها تدور حول استفسارات تفصيلية تتعلق بالنقاط الأساسية التي أثارتها الرسالة ، ولا سيما حول تقييم عملية الامتحانات في القطر ، والدور التربوي الذي تؤديه ، والتطويرات التي يمكن إدخالها على نظام الامتحانات في بلدنا . .

والواقع أن هذه الرسالة ، والرسالة التي سبقتها تشكل منطلقاً جديداً للبحوث التربوية في التحصيل العالي ببلدنا ، إذ كانت الرسالة السابقة الأولى من نوعها في الوطن العربي ، وجاءت هذه الرسالة الأولى من نوعها في قطرنا ، ويثير تقديمها لنيل درجة الماجستير أمر وجوب توسيع هذا النوع من البحوث التي تتعلق بالعملية التربوية ليشمل دراسات أخرى تتناول جوانب أخرى من القضية التربوية لتقديمها إلى الدوائر المسؤولة فتساعد في تطوير واقع التعليم في بلدنا . .

كما أن الطابع العلمي لخطوات التي سارت عليها الباحثة يدل على أنها كانت وراء هدفها باتقان ، وأنها فتحت بدورها طريقاً جديدة إلى صلب مهام كلية التربية . .

ويمكننا أن نعتبر أمر منح هاتين الشهادتين في أقل من ثلاثة أشهر ظاهرة صحية في جامعة دمشق بعد صدور المرسوم الخاص بالدراسات العليا . . وفاتحة طيبة لخطوات مماثلة ودراسات أخرى نأمل أن نقف عليها قريباً في مختلف الكليات والاختصاصات .

كتب جديدة

عادل أبو شنب

«صرخات للرقص العاري»

• يهدي فؤاد كحل ديوانه الأول « صرخات للرقص العاري »(١) إلى « الضوء الفاصل بين سجن الرحم وسجن القبر ، من خلال « صرخة «لا» في وجه الثورة التي تاهت في غياهب القهر » ، فهو ثائر ، منذ السطر الأول ، على الثورة ، رافض بكل مافي الكلمة من معنى .

(١) صدر على نفقة المؤلف في ١٦٠ صفحة من قطع خاص – مطبعة الإنشاء .

يتميز الديوان بشاعرية ملحوظة وباحساس بايقاع الكلمة وتأثيراتها إن الشاعر يكتب شعره من موقع الالتزام والمسؤولية . شعره ليس ترفاً ، والوظيفة التي يوظفها لشعره تأخذ أبعاداً وطنية بل قومية .

ثمة مميزة هامة لهذا الشاعر الجديد وهي تمكنه من اللغة ، وسيلةالشاعر الأولى ، فالنماذج التي بين أيدينا « ثلاث وعشرون قصيدة » تنبي عن تمكن في استخدامات اللغة لم نره في بواكير الشعراء الجدد الذين يحاولون أن يجدوا لانفسهم مكاناً ما في ساحة الشعر العربية .

قال الرمل : ستنتصر الصحراء
وقال البحر : ستنتصر الأمواج
وقال الموت : سينتصر العشاق
وقلت : سينتصر الشهداء

أين الوطن ، الزمن ، الحب ، الموت ، العشق ، الجنس
الخبز ، الفقر ، البؤس ، العري ، الطهر ، الـ . .
— مرت هذي الحرب
ففتش في صفحات المنشورات السرية
— لكن أين الشهداء
— فتش في ذاكرة الجندي المجهول
أين النصر حول
أحاديث السادة كالطحلب
فتش في سيل الأوسمة الحربية
— لا . . لا سوف افتش عن وطني

في مقبرة دهمها الغزو
وجندي هاجمه العشق
وأرض ماعرفت طعم الدم
قالت . . . . . .
قلت : . . . . . (١)

• • •

الوجه الآخر

• للقاضي الأستاذ محمد رؤوف بشير أكثر من عمل قصصي ، وآخر أعماله « الوجه الآخر (٢) » وهي مجموعة قصصية تضم ١٢ قصة جديدة.

تتميز قصصه بالبساطة ، حتى القصص التي تجنح إلى الرمز (٣) فهي تأخذ طابع السرد التقليدي غير المعقد الذي يظل نقياً غير ملوث بهجوم وأعباء التكنيك القصصي الحديث الذي يعتمد على التلاعب بالأزمان والأمكنة ، والتداعيات والمونولوجات .

إن اسلوب القص الكلاسيكي مدرسة قائمة ، ومازالت تلقى اقبالاً من قبل القراء الذين يستسهلون هذا اللون من القص ، ويبدو أن القاص متمكن من هذا الاسلوب ، يعرف كيف يقولبه بحيث يجعله وعاء للأفكار التي يريد أن يبثها عبر قصته .

---

(١) صفحات ١٢ — ١٣ — ١٤ .

(٢) مجموعة قصص صدرت عن مؤسسة نوفل بلبنان في ١١٦ صفحة من القطع المتوسط .

(٣) حكاية للأطفال صفحة ٣٧ وما بعدها .

إن مضامين القصص في « الوجه الآخر » تختلف بين قصة وأخرى، لكنها في خطها العام تريد أن تؤكد فكرة الخير التي لابد لها من الانتصار في النهاية .

• • •

أقاصص سياستوبول

• صدر خلال الشهر الماضي المجلد الثاني من أعمال ليون تولستوي الأدبية الكاملة ، وحمل هذا العنوان « أقاصيص سياستوبول وغيرها(١) » وهو كسابقه المجلد الأول وكالمجلدات القادمة الثلاثة عشر ترجمة الدكتور سامي الدروبي .

والواقع أن تولستوي عملاق الأدب الروسي . وصاحب « الحرب والسلم » و« آنا كارنينا » وغيرهما . . كان قد ترجم الى العربية أكثر من مرة غير أن أحداً لم يستطع النفاذ الى أعماق أدب هذا العملاق . . مثل الدكتور الدروبي ، صاحب الأسلوب المشرق في الترجمة ، والمتمكن من اللغة المترجم عنها (٢) واللغة المترجم اليها تمكناً قلّ أن نجد له مثيلاً .

يضم المجلد الثاني قصص « الغارة » و « قطع أشجار في الغابة » و « مذكرات عداد بلياردو » و « قصص من سياستوبول » و « عاصفة ثلجية » و « المجرد من رتبته العسكرية » و « صبيحة سيد » و ضابطان

(١) صدر عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي في دمشق بـ ٦٩٤ صفحة من القطع الكبير .

(٢) أعمال تولستوي مترجمة عن النص الفرنسي كما نشرته دار Rencon Tres في لوزان بسويسرا .

من سلاح الفرسان » ، وحسبنا في التعريف بهذا المجلد القول إن اثنين من العمالقة وراء هذا العمل الجبار تولستوي الفذ الذي لانظير له ». والدكتور الدروبي الذي يعتبر واحداً من كبار المترجمين الذي عرف في مكانته في الترجمة وكفاءته في نقل أروع الأعمال الأدبية الأجنبية إلى اللغة العربية بأسلوب أخاذ .

هذا المجلد وسابقه والمجلدات الأخرى . . لاغنى للقارىء المتابع عنها .

البشارة

« من بين مجموعات القصص التي تصلنا بين حين وآخر من العراق الشقيق . . مجموعات قصصية ، كتبتها قاصات . و « البشارة (١) » ، مجموعة قصص لقاصة عراقية « لطفية الدليمي » هي آخر ما وصلنا من هناك من هذا النوع .

ولعل من الظلم للأدب الذي تكتبه النسوة أن يقال فيه هذا أدب نسائي ، تعبيراً عن تمييز بينه وبين الأدب الذي يكتبه الرجال ، وقصص لطفية . . ترفع هذا التمييز ، وتؤكد على أن قلم الرجل وقلم المرأة سواء في التناول .

---

(١) من منشورات وزارة الإعلام بالجمهورية العراقية – سلسلة كتابات جديدة . تقع في ٧٦ صفحة من القطع المتوسط .

تضم « البشارة » عشر قصص ، تجنح جميعها نحو الرمز ، إن الترميز سمة بارزة من سمات هذه القصص ، ويكاد أن يكوّن شخصية القاصة القصصية . والسمة البارزة الأخرى في قصص البشارة » . . الإنشائية — إن صح التعبير — فهي تحاول أن تلد من الجمل جملاً . . تشكل في تلاحقها بناء قصتها .

أما المضمون فيتميز ، على الرغم من الرمز ، في أنه يمس جوانب من الحياة في المجتمع المعاصر ، وغالباً ما يكون أكثر التصاقاً بعالم وفكر المثقفين أكثر من التصاقه بعالم وفكر الآخرين الذين يشكلون السواد الأعظم من الناس . .

وإذا كان لابد من حديث عن اللغة المستخدمة في قصص «البشارة » فالحديث يجب أن ينصب على تمكن لطفية من اللغة تمكناً ملحوظاً ، لعل كثيرين من كتاب القصة لايملكونه .

• • •

فاجعة مايرلينغ

« بعد « غادة أفاميا » ١٩٦٧ و « العباسة » ١٩٦٨ و « الملكة زنوبيا » ١٩٦٩ و « الحلاج » ١٩٧١ و«رابعة العدوية»١٩٧٢ و«مصرع غرناطة» ١٩٧٣ و« فلسطين الثائرة » ١٩٧٤ وهي جميعها مسرحيات ودرامات شعرية يقدم لنا الشاعر الأستاذ عدنان مردم بك (٢) مسرحيته

(١) له أيضاً « نجوى » ١٩٥٦ و « صفحة ذكرى » ١٩٦١ و « عبير من دمشق » ١٩٧٠ وجميعها دواوين شعرية .

الشعرية الثامنة « فاجعة مايرلنغ (١) » ذات الفصول الأربعة .

ومايرلنغ مكان ريفي في النمسا كان ولي عهد قيصر النمسا يذهب اليه ناشداً المتعة . وقد تعرف على فتاة فحملت منه سفاحاً ، فجاءه أخوها — وهو ضابط في الحرس الأمبراطوري — واتفق معه على غسل العار بالطريقة الأميركية ، سحب إحدى كرتين بيضاء وسوداء ، ومن يسحب الأخيرة .. ينتحر .ويسحب رودلف ، ولي العهد ، الكرةالسوداء وينتحر بمسدسه .

هذه الواقعة الفاجعة .. حركت وجدان الشاعر فصاغها في مسرحية شعرية تنهج النهج الكلاسيكي في قرض الشعر ، وهو التزام لم يحد شاعرنا عنه قط في جميع أعماله .

ولعل من الصعب في هذه العجالة الاستشهاد بمقاطع من المسرحية ذلك أنها كل متكامل . والواقع أن أدبنا الحديث ، منذ محاولات شاعرنا الكبير أحمد شوقي في المسرحية الشعرية .. ما يزال يحتاج الى المزيد من هذا النوع الذي ، وإن كان الشرقاوي وعبد الصبور وأباظة وغيرهم قد غزوه .. إلا أن الساحة ما تزال تنتظر من يصل اليها ، وها هوذا الأستاذ الشاعر عدنان مردم بك يفعل ، بما يشبه التكريس .. فهو يكرس معظم شعره للمسرحيات الشعرية ذات المضمون المؤثر .

* * *

(١) منشورات عويدات — بيروت ، تقع في ١١٨ صفحة من القطع المتوسط .

أم كلثوم معجزة الغناء العربي

* أسهم القطر العربي السوري في تكريم المرحومة « أم كلثوم » المطربة الكبيرة إسهاماً ملحوظاً ، وعلى النطاق الفردي . . تحمس مواطنون للصوت المعجزة الذي انطفأ ، ومنهم السيد محمد عدنان الخطيب الذي أعد كتاباً عن الفنانة الكبيرة الراحلة (١) فكان هذا بمثابة وقفة إجلال واحترام لأم كلثوم التي أعطت الجماهير العربيـــة فرحاً وسعادة وتبشيراً بالعاطفة الصادقة طوال نصف قرن .

والكتاب مقسم إلى عدة فصول ، في فصل سرد لحياتها وكفاحهـا ، وفي فصل ثان تصوير لمعاناة أم كلثوم عند ولادة كل أغنية من أغانيها ، وفي فصل ثالث تحليل قيم لقدرات صوتها ، وفي فصل رابع جزء مقتطع من المذكرات التي كانت كتبتها بخط يدها ، وفي فصل خامس إخبار عن الوفاة المأساة .

ويلفت النظر في الكتاب أنه معدّ لجمهور أم كلثوم . . بشكل لايتوخى دغدغة عواطفهم ومحبتهم لها ، وإنما بشكل يتوخى أن يقـدم تقييماً موضوعياً لهذه المرأة المعجزة التي تركت فراغاً مميتاً بموتها .

ولعل من مميزات الكتاب الجديرة بالإهتمام أن معده قد أكد على دور أم كلثوم ، بعطائها خلال الحقبة المذكورة ، في توحيد مشاعر العرب من المحيط إلى الخليج ، وهو أمر لم يطمح إليه إلا قلائل ولم يصل إلى بلوغه حتى الساسة ، باستثناء المغفور له جمال عبد الناصر .

---

(١) صدر عن « مطبعة العلم » في ١٠٤ صفحات مزينة بصور ورسوم للسيدة أم كلثوم منذ احترافها الفن .

مناقشات المعرفة

رد على نقد

الدكتور ابراهيم الكيلاني

نشرت « المعرفة » في العدد الماضي مقالا حول ترجمة الدكتور ابراهيم الكيلاني لكتاب بلاشير « تاريخ الأدب العربي » .

وقد تلقت « المعرفة » الرد التالي من السيد مترجم الكتاب ، تنشره بنصه الكامل .

قرأت النقد الذي كتبه « ناقد عربي » تعليقاً على ترجمة « كتاب الأدب العربي » للمستشرق بلاشير ، والذي ابى عليه تواضعه وثقته بنفسه إلا التستر وراء اسم مستعار ، وإني لأطلب من الناقد أن يرشدني إلى مقال كتبه ، أو كتاب ألفه ، إذا كان عنده شيء من ذلك، أو أن يترجم صفحة من أي كتاب شاء كي اقتنع بأن النقد يسير ولكن الفن عسير كما يقول الشاعر بوالو !

هذا وإني على يقين بأن هذا الناقد لم يذق مرارة التأليف ، ولم يكتو بنار الترجمة ، ولم يكابد المصارعة المضنية مع النصوص وإلا لكان ارعوى عن التعرض لترجمة كتاب يقع في ألف صفحة ونيف عرف مؤلفه بصعوبة النهج التأليفي ،وتعقيد العبارة ، وغموض الأداء .

وأريد قبل الشروع في الرد على النقد أن ألفت نظر الناقد إلى ضعف بعض العبارات اسلوباً وتركيباً :

آ – « فلكيلا يمر هذا الكتاب الخطير دون أن يلحظ وكنوع من العون الأدبي هذا إذا كنت مهيأ لمثل هذا العون »

لاحظ نوع العطف ودخول الكاف .

ب – « بعض مانزل بها من إصابات هنية وبليغة ! »

ماهذه الجملة ؟ هل هناك إصابة هنية وغير هنية ! ولعله أراد سطحية او جائفة ؟

ج – « يعبر بقلعيته وجملة في قطار » ماهذه الجملة في قطار ؟

د – « كما أن الاعتراض كان يكون وجيهاً ! » ماهذا التركيب ياأستاذ ؟

ه – إن علامات الترقيم ليست حلى تنثر في اثناء النص هكذا فوضى لا إن لها وظيفة غاية الخطورة » .

أهذا تعبير ياأستاذ ! ولا بد لي بعد ايراد هذه النماذج من ذكر بعض الملاحظات :

١) لقد أحسن كاتب المقال صنعاً باضافة كلمة « عربي » إلى كلمة « ناقد » وإلا كنا ظنناه ناقداً انكليزياً أو روسياً أو يابانياً !

٢) شاء هذا الناقد أن يصحح لي كتابة اسم المؤلف فحذف حرف السين «س » من كلمة ريجيس وكتبها ريجي والأفرنسيون يلفظون الـ «س » كما هي مكتوبة Regis!

والآن لنعد إلى صلب الموضوع أي ملاحظاته على الترجمة :

ص ١٥٤ من المجلة : قال عن علامات الترقيم : « فاذا وضعت علامات الترقيم في مواضعها كانت معالم تهدي القارىء وتيسر له الفهم أما اذا بعثرت دون التقيد بوظائفهــا فانها تصبح اداة تضليل ثم يعود فيناقض نفسه قائلا : « وقد حاول الدكتور الكيلاني ان يحلو في ترجمته حذو النص الفرنسي او انه فعل الشيء نفسه إلا فيما تقتضيه العبارة العربية » .

فهو يعترف بانني حاولت احتذاء النص الفرنسي وهذا ما تقتضيه أمانة الترجمة إلا فيما تقتضيه العبارة العربية !

ماذا تريد ياأستاذ لقد أوقعتنا في حيرة من أمرك .

ص ١٢٤ : ثم يورد فقرتين لم يحسن فهم مضمونها على الوجه الصحيح لضعفه باللغة الفرنسية وسوءاستيعابه لروح النص وسياق الموضوع ولو انه تمهل وتدبرالنص لوجد ان العبارتين ليستا مختلفتين ولا متميزتين كما يدعي بلهما واردتان في نص واحد متسلسل والدليل على ذلك ان المؤلف لم يفصل بينهما بعنوان مستقل أو اشارة طباعية وجل مافعله أنه وضـــع نقطة في آخر الجملة !

ص ١٥٥ : قال : « فاذا انتقلنا إلى علامات الترقيم واحصينا بعضها وجدنا المؤلف قد استعمل في الفقرتين المذكورتين ثلاثاً وعشرين نقطة واحدى وسبعين شولة بينما لم يستعمل الأستاذ المترجم إلا ست عشرة نقطة وثلاثين شولة! »

إنه لقول عجيب يدل على شذوذقائله والجواب عليه : إننا نترجم نصاً فرنسياً إلى العربية وليس من المحتم ولا الطبيعي ان تتساوى النقط والشولات في كلا النصين وبخاصة فان اللغة العربية معروفة بالإيجاز على خلاف اللغات الأجنبية .

ص ١٥٥ قال : « كما ان الاعتراض كان يكون وجيهاً لولا أن الأستاذ المترجم قد أعاد النظر في الجزء الأول من الكتاب حين أرسله للطبع ثانية لقد تلافى بالفعل بعض النقائص منها ما يتصل بالدقة ومنها ما يصلح خللا فاحشاً في المعنى » .

هذا قول صحيح عن كل ما يعاد النظر فيه قبل تقديمه للطبع ثانية ، وهنا تنتهي القضية : طبعة قديمة أعيد تنقيحها فظهرت في ثوبها الجديد ، إلا ان الناقد العربي شرع لغاية غير شريفة ، في مقابلة الطبعة القديمة التي مضى عليها ما يقرب من عشرين سنة ، بالطبعة الجديدة فشغل هــذا الجهد المحال الذي لايهم القارىء في كثير أو قليل ، ثلث المقال ولا أجد لهذا تعليلا سوى ان الناقد العربي أراد تضخيم مقاله وزيادة عدد سطوره ايهاماً للناس بخطورة المكتوب وجلالة شأن الكاتب !

ص ١٢٦ من المجلة : العبارة الفرنسية ولها علاقة بمخالفة اساوب مؤلف آخر ورد ذكره في السياق :

En premier lieu on s'Arrêtra à une définition Beau coup plus ètroite du mot littèrature »

وترجمتها : « إن اولى هذه المخالفات تضييق مفهوم كلمة أدب » والمعنى كما ترى مفهوم .

وصححها « الناقد » العربي متقيداً بالحرفية : « فاولا سنقف عند تعريف لكلمة أدب أضيق بكثير .

وجاء في النص الفرنسي : «

Ce terme ne represntera Plus L'ensemble des monuments Scripturaires en langue arabe, C'est - A - direnon seulement œuvres en vers et en prose littè raire. mais aussi les œuvres philosophiques , Thè ologiques , Juridikues et scientifiques » .

وترجمتها : « وسوف لا تعني هذه الكلمة بعد الآن مجمل الآثار المكتوبة باللغة العربية وأعني بذلك الشعر والنثر الأدبي بل الآثار الفلسفية والكلامية والفقهية والعلمية » .

وصحح الناقد العربي : « فلن تدل هذه الكلمة منذ الآن على مجمل الآثار المكتوبة باللغة العربية أي الآثار المكتوبة شعراً ونثراً أدبياً مضافاً اليها الآثار الفلسفية واللاهوتية والفقهية والعلمية » . وهكذا جعل : منذ الآن بدلا من بعد الآن فابدل ظرفاً بظرف .

ثم ارتكب غلطة عندما ترجم كلمة « « Théologie » » بكلمة لاهوت وهي غير مقبولة اطلاقاً في معرض الكلام عن التراث الفلسفي الإسلامي فليس عند المسلمين والعرب لاهوت ولا ماهوت بل عندهم « علم الكلام » أو علم الآلهيات (١) ؛ أو علم التوحيد .

ص١٥٦ : العبارة الفرنسية « Il n'est jusqu'aux biographies Qui ne con firment Cette impression D'indif f erencié, de Collectif».

(١) فما أجمل ان يفتتح أحدنا درسه ، مثلا ، بالعبارة الآتية : إنَّ أبا الهذيل العلاف من علماء اللاهوت عند المسلمين !!

وترجمتها : « وليس ثمة شيء حتى التراجم إلا ويؤيد الانطباع القائم على غير المتميز والجماعي » .

وقال « الناقد » العربي : « لا شيء ، حتى التراجم إلا ويؤكد هذا الانطباع باللاتمايز والجمعي » .

إن اي مترجم مجيد يفضل العبارة الأولى لوضوحها ودقتها وخاصة أن « الناقد » أخطأ في ترجمة كلمة Indiff erencié باللاتمايز وهي ترجمة للمصدر Indiff ferenciation وترجم كلمة Collectif جمعي والشائع المستفيض جماعي !

ص ١٤٧ : العبارة الفرنسية : «

« Nous n'avons Que des Compilations de seconde main ,. D'ailleurs D'un Prix inestimable, renfermant des anecdotes , s des Traits D'esprit des Jugements des Citations en un Mot une masse de documents tre's Préeilux Pour l'histoiredes moeur, tre's me'diocres au Contraire pour e'crire une vie Continue et de'mêler des tendances Individuelles » .

وترجمتها : « إذ لا نملك سوى مجموعات قليلة الأهمية ، ولكنها ثمينة جداً لاحتوائها على نوادر وملح وحِكَم وشواهد وبالاختصار على كتل من الوثائق الثمينة جداً في تأريخ العادات ، ولكنها ، على العكس ، عديمة النفع عند كتابة ترجمة حياة متصلة والتفريق بين مختلف النزعات الشخصية » .

وترجمها « الناقد » العربي : « فليس بين أيدينا إلا ركام من سقط المتاع ، ولكنه إلى ذلك ذو قيمة لا تقدر يحتوي على حكايات ونوادر وأحكام ونصوص الثمينة جداً في تأريخ العادات ولكن جدواها على العكس تافهة في كتابة ترجمة حياة متصلة وفي استخلاص الميول الفردية » .

وهكذا فان عبارة الناقد تضج بالركاكة والخطأ فقد ترجم : «

Compilations de seconde main » .

« . ركام من سقط المتاع والمقصود في النص الأصلي مجموعات قليلة الأهمية أي من الدرجة الثانية وترجم كلمة Citations بكلمة نصوص والصحيح شواهد ،

ونرجم فعل Demêler بكلمة استخلاص ومعناها فرق، فصل ، ميز ! (راجع يا أستاذ المعاجم التي بين يديك) .

ص ١٥٧ العبارة الفرنسية : «

De faire un bilan de nos maigres acquisitions , de tracer un tableau de notre pauvreté » .

وترجمتها : « . . . في أن نحصي ما عرفناه عن هذا الأدب من منجزات هزيلة وأن نرسم لوحة لمادتنا الفقيرة » .

اقتراح « الناقد » العربي : « . . . أن نحرر جرداً بمحصولاتنا الهزيلة وأن نخط لوحة بما نحن مفتقرون إليه » .

العبارتركيكة وقد زادها ركة قوله خط لوحة بدل من رسم لوحة ، وترجم كلمة pauvreté ومعناها فقرنا في تلك المادة بـ مفتقرون اليه أي ما نحن محتاجون إليه أوتواقون إليه وهذا يخالف المراد من العبارة .

ص ١٥٧ العبارة الفرنسية :

Une telle méthode Conduit Certes A des conclusions déc-evantes, mais elle seule détourne , contre vent et marée , d'at - tribuer une originalité a' des œuvres qui n'en of frent point et dont l'intéret Consiste précisement a' n'en point of frir ».

وترجمتها : « إن مثل هذه الطريقة تقودنا إلى نتائج مخيبة للآمال ، ولكنها الوحيدة التي تبعدنا عن الأهواء وتحول دون إطلاق صفة الأصالة على آثار لا تملكها والتي تنحصر فائدتها في تجردها من تلك الصفة » .

فجاء « الناقد » العربي واقترح ما يلي : « ولكنها الوحيدة التي توقينا ضد الريح والتيار على الرغم من كل العقبات من أن ننسب الأصالة لأعمال لا تنم عنها إطلاقاً » .

١) أنظر هذا التركيب : توقينا ضد !

٢) فعل نسب يتعدى بإلى لا باللام .

٣) لا أدري ما هو الجديد في العبارة المقترحة سوى أنها مفككة متهافتة كقوله : « توقينا ضد الريح والتيار»أي ريح وأي تيار يا أستاذ ، المقصود بـ VentetMaree معناها المجازي لامعناها الحرفي .

٤) أقترح تنم عنها بدلا من لا تملكها وهذه أصح ، إذا تقيدنا بعبارة المؤلف لتضمنها فعل offrir الدال على الكشف والتقديم لا الخفاء والإفساد .

٥) فعل تم لا يتعدى بعن بل بعلى .

ص ١٥٨ : العبارة الفرنسية :

« Cette renaissance sepoursuit sous nosyeux avee des, Bonheurs divers »

وترجمة الكلمتين الأخيرتين : « في سيرها المضطرب » وترجمها « الناقد » : « مختلفة في سعودها » والمقصود من العبارة اضطرابها واختلاف نصيبها من التوفيق والإخفاق .

ص ١٥٨ . العبارة الفرنسية :

Pourtant, un long examen
nést pas necessaire pous discerner combien eette division repose Sur une Con fusion grave ».

وترجمتها : « وليس من العسير علينا أن نتبين ما يؤدي إليه هذا التقسيم من التباسات خطيرة » .

فجاء « الناقد » الفهامة واقترح ما يلي : « لا نحتاج إلى طويل بحث حتى يتبين لنا على أي خلط فاحش يقوم هذا التقسيم » .

وهنا ارتكب « الناقد » خطأً فاحشاً بترجمته Con fusion Grave ومعناهـا التباس خطير بـ خلط فاحش وكلمة Cou fusion مذكورة في جميع معاجم الدنيا ومعناها غموض ، لبس ، ارتباك ، اضطراب . وكلمة Grave لا تعني فاحشاً بل خطيراً ، جسيماً ، هاماً .

(راجع أيها الأستاذ المولع بالدقة المعاجم التي بين يديك ترشد إن شاء الله !) .

ص ١٥٩ وجاء في النص الفرنسي :

« Sans se ; Souvenir Qu'en L'oecurrence il n' ya pas Synchronisme Entre les Faits Historiques et les Fait Littéraires »

وترجمتها : « دون أن نذكر في الوقت نفسه أن ليس ثمة تزامن بين الحوادث التاريخية والوقائع الادبية »

وقال الناقد : « غير ذاكر أنه حتى اذا ما اتفق وقوع احداث تاريخية وأحداث أدبية في زمن واحد فليس بينها ارتباط زماني » .

فجعل غير ذاكر مقابل دون أن يذكر

وفي اللغة : ذكره بعد النسيان وذكره بلسانه وقلبه .

وجعل : حوادث مقابل وقائع ويصح الوجهان .

وجعل : وهي حتىاذا ما اتفق مقابل في الوقت ذاته أي في الظرف ذاته والحالة هذه ،وهو أصح .وناهيك عما في العبارة من ركاكة .

وجعل : « وقوع أحداث تاريخية واحداث أدبية في زمن واحد » مقابل : « أن ليس ثمة تزامن بين الحوادث التاريخية والوقائع الأدبية »

وفي النص كلمة Synchronisme ومعناها: التزامن والتواقت أي الحدوث في وقت أو زمن واحد وهي تغني عن أربع كلمات : وقوع + في + زمن + واحد = تزامن . ويظهر أن الناقد يجهل هذا الاصطلاح أو لم يفهم معناه .

وفي العبارة الأخيرة ترجم الناقد عبارة « On A Estimé) بكلمة « يجب » والصواب : تعتقد ، نستصوب ، نعتبر .

وبعد فاني اعتذر من القارىء فقد اتعبته وأمللته فيما لا طائل فيه ولا غناء ، ولكني أريد أن أطمئنه بأن بين يديه ترجمة لكتاب يعد ، على نفاسته ، من أصعب وأضخم ما ألف بالفرنسية عن الأدب العربي ، وان أقل ما يقال في هذه الترجمة إنها أديت بأمانة وأخلاص من قبل رجل زاول الترجمة وعجم عودها فذاق حلوها ومرها ، وهو في ذلك لم يدع يوماً بلوغ الكمال ، والكمال لله وحده ، وعليه فلن يضير المترجم أقوال العيابين المستترين ، ولا نقد الناقدين المتطفلين عرباً كانوا أم أعاجم !

* * *